

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

People's Democratic Republic of Algeria

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

Ministry of Higher Education and Scientific Research

جامعة البليدة 02

University of Blida 02

كلية: الآداب واللغات

قسم: اللغة العربية وآدابها



الميدان: اللغة والأدب العربي

الشعبة: /جذع مشترك

التخصص: /السنة الأولى ليسانس

دروس عبر الخط

محاضرات في مادّة: النّص الأدبي القديم (شعر)

الطور: ليسانس

السنة: الأولى

السادسي: الأول

من إعداد الدكتورة: سليمة مدلفاف

الرتبة: أستاذة محاضرة أ

السنة الجامعية: 2022-2023



الفهرس

الصفحة	العنوان
02	فهرس
11	مقدمة
14	المحاضرة الأولى: الشعر العربي القديم تاريخيا وجغرافيا
15	1. مدخل عام إلى الأدب الجاهلي: العصر الجاهلي: 150-200 قبل الإسلام
15	1. بيئة الشعر الجاهلي
15	2. تسمية العصر
16	3. الموقع الجغرافي
17	4. أثر طبيعة شبه الجزيرة في نمط حياة العرب
19	II. الشعر الجاهلي: المراحل والاتجاهات
20	1. بداية الشعر
21	2. المرحلة الفنية: مرحلة القصيدة
22	3. مراحل الشعر الجاهلي الفنيّة
25	المحاضرة الثانية: المعلقات
26	1. التسمية
29	2. أصحابها ومطالعها
32	3. موضوعات المعلقات
32	1.3. معلقة امرئ القيس
33	1- المطلع والمقدمة الطللية
33	2- الغزل

34	3- الوصف
35	2.3. معلقة طرفة بن العبد
35	1- التعريف به
36	2- المعلقة
37	3.3. معلقة زهير: مذهب الصنعة والاحتراف
37	1- التعريف به
38	2- السياق التاريخي
38	3- موضوعات المعلقة
40	4. الخصائص والبناء الخارجي
41	1- تقديم مذهب الصنعة
41	البناء الخارجي
42	المحاضرة الثالثة: شعر الصّعاليك
43	1. ظاهرة الصعلكة
43	1.1. الصعلوك في اللغة
44	2.1. في الاصطلاح
45	3.1. العوامل المؤثرة في ظهور الصعلكة وأصناف الصّعاليك
46	2. شعر الصّعاليك
47	3. الشعراء الصّعاليك
47	1.3. عروة بن الورد
48	2.3. الشنفرى
49	3.3. تأبّط شرّاً

49	4.3. السليك بن سلكة
49	4. الأغراض والموضوعات
49	1.4. الأغراض
50	2.4. موضوعات الشعر
56	5. الخصائص الفنية
58	المحاضرة الرابعة: الشعر في صدر الإسلام (شعر الفتوحات)
59	1. مدخل إلى الشعر في صدر الإسلام
59	1.1. تحديد الفترة الزمنية
60	2.1. السياقات
64	﴿ في القرآن الكريم
65	﴿ في الحديث النبوي الشريف
66	2. صدر الإسلام مرحلة انتقالية فنيًا وموضوعيًا
68	3. شعر الفتوح
72	(1) من حيث الموضوع
72	(2) من حيث الخصائص الفنية
72	(3) شعراؤه
74	المحاضرة الخامسة: المراثي النبوية
75	1. الرثاء لغة واصطلاحًا
77	2. رثاء الرسول عليه الصلاة والسلام
78	3. مراثي حسان بن ثابت
80	• الدالية الأولى: بطيبة رسم للرسول ومعهد

81	• الداليتان
81	• الدالية
81	• اللامية
81	• الزائية
83	المحاضرة السادسة: شعر النقائض
84	مدخل
84	1. العوامل المؤثرة في الشعر
84	1.1. العوامل السياسية
86	2.1. العوامل الاجتماعية
86	3.1. العوامل الثقافية العقلية
86	2. الشعر الأموي بين التقليد والتجديد
87	3. شعر النقائض
88	1.3. شعراء النقائض
90	4. خصائص النقائض
91	5. نموذج شعري من النقائض
93	6. حقيقة النقائض
93	7. قيمة النقائض
94	المحاضرة السابعة: الغزل العذري والغزل العمري
95	مدخل: الغزل والنسيب والتشبيب
96	1. الغزل بين الجاهلية والإسلام (العصر الأموي)
96	1.1. الجاهلي

98	2.1. الأموي
99	2. الاتجاه العذري
99	1.2. التسمية والوصف
100	2.2. المفهوم والنشأة
102	3.2. نشأة الغزل العذري
102	4.2. أعلامه
103	1- جميل بثينة (ت82هـ)
104	مميزات شعره
105	3. الغزل العمري: الغزل الحسي
105	1.3. التسمية والنشأة
105	2.3. عمر بن أبي ربيعة
107	3.3. مميزات الغزل العمري
110	المحاضرة الثامنة: شعر الزهد والتصوف نصوص من المشرق والمغرب: أبو العتاهية، ابن الفارض
111	I. شعر الزهد: نموذج أبي العتاهية
111	توطئة
111	1. تيار الزهد في الأدب العربي
115	2. أبو العتاهية (130هـ-211هـ)
115	3. العوامل المؤثرة في زهده
116	1.3. العوامل الاجتماعية
117	2.3. العوامل الذاتية
117	4. حقيقة زهد أبي العتاهية

118	5. الموضوعات والخصائص
118	1.5. موضوعات شعره
121	II. شعر التصوّف
121	1. التسمية
122	2. ابن الفارض: (576هـ/632هـ)
123	المحاضرة التاسعة: شعر الحماسة: نصوص أبي تمام البحتري/ البياسي
124	توطئة
124	1. الحماسة بين الدلالة المعجمية والغرض الشعري
125	2. الحماسات الشعرية
126	(1) حماسة أبي تمام
127	(2) البحتري: أبو عبادة الوليد بن عبيد الله (2005هـ-284هـ/822م - 898م)
129	(3) حماسة الزوزني (ت413هـ)
130	(4) الحماسة الشجرية لابن الشجري
131	(5) الحماسة المغربية: لأبي العباس أحمد بن عبد السلام الجراويالتادلي
132	(6) الحماسة البياسية
133	(7) حماسات أخرى
134	3. الحماسة بين أبي تمام والبحتري
134	1.3. سياقات التأليف
135	2.3. الأبواب
136	3.3. الاختيارات الشعرية
138	المحاضرة العاشرة: الشعر السياسي في المشرق والمغرب:الفتوحات-

	الخوارج- الشيعة- السجون- رثاء المدن
139	توطئة
139	1. الشعر السياسي المفهوم والممارسات
140	2. الشعر السياسي الأموي
141	1- الحزب الأموي
142	2- حزب الخوارج
143	3- حزب الشيعة/ الهاشميون/ العلويون
146	4- الزبيريون
146	3. شعر السجون
147	1- الأدب العباسي
148	2- الأدب الاندلسي
149	4. رثاء المدن
153	المحاضرة الحادية عشرة: الشعر الفلسفي وشعر الحكمة
154	توطئة
154	I. الحكمة في الشعر العربي
154	1. الحكمة بين اللغة والاصطلاح
155	2. الحكمة في الشعر الجاهلي: زهير بن أبي سلمى
158	II. الشعر والفلسفة
158	1. الشعر الفلسفي
159	2. نماذج الشعر الفلسفي
159	1- أبو تمام: 192هـ-231-232هـ

160	2- أبو الطيب المتنبّي: (303هـ-354هـ)-(916م-966م)
161	3- أبو العلاء المعرّي: (363هـ-449هـ)-(973م-1057م) حكيم المعرّة
163	المحاضرة الثانية عشرة: الموشحات والأزجال
164	توطئة
165	1. حركة الأدب في العهد الأوّل
166	2. تسمية الموشحات
167	3. سياق نشأة الموشحات
169	4. هيكل الموشح
171	5. أوزان الموشحات
172	6. أغراض الموشحات
172	7. الأزجال
172	1.7. الزجل لغة واصطلاحاً
172	2.7. نشأته
176	المحاضرة الثالثة عشرة: الشعر الأندلسي نصوص من أشعار ابن زيدون
177	توطئة
177	1. المرحلة الأولى: الشعر في عهد الولاة في بداية الفتح الإسلامي
179	2. المرحلة الثانية: الشعر في عهد الحكم الأموي
183	3. المرحلة الثالثة: الشعر في عهد ملوك الطوائف والمرابطين
188	المحاضرة الرابعة عشرة: نصوص من الشعر الجزائري القديم بكر بن حماد التيهرتي
189	توطئة
189	1. مراحل الحركة الشعرية في المغرب العربي

190	1.1. مرحلة التأسيس
192	2.1. المرحلة الثانية: مرحلة النهضة الأدبية
193	2. الملامح العامة للأدب في هذه المرحلة
194	3. بكر بن حماد التيهري
194	1.3. التعريف به
195	2.3. مذهبه
196	3.3. شعره
199	خاتمة
202	قائمة المصادر والمراجع





مقدمة



مقدمة:

يتصدر الأدب العربي القديم قائمة المواد في الوحدة التعليمية الأساسية الأولى ويرد تحت عنوان: نص أدبي قديم شعر في السداسي الأول ونص أدبي قديم-نثر- في السداسي الثاني؛ وعليه فإن أول ما يفتح عليه تكوين الطالب هو الشعر العربي القديم. ولا نعتقد أن موقع الصدارة عبث وعشوائية. فليس التصدر إلا لأهمية المادة وأثرها العميق في تأسيس شخصية الطالب الباحث وتعزيز ثقافة الانتماء لديه من خلال تزويده بقاعدة معرفية تحيط بالجوانب الحضارية للأمة العربية. وعلى هذا الاعتبار فقد تتوّعت مفردات المادة المتوزعة-وفق المقرر- على أربع عشرة مفردة، هي:

- 1- الشعر العربي القديم تاريخيا وجغرافيا.
- 2- المعلقات مضامينها وأساليبها (نصوص من معلقة زهير بن أبي سلمى. معلقة امرئ القيس. معلقة عنتره).
- 3- شعر الصّعاليك (نصوص...لامية العرب للشنفرى)...
- 4- الشعر في صدر الإسلام شعر الفتوحات.
- 5- المراثي النبوية.
- 6- شعر النقائض.
- 7- الشعر العذري والشعر العمري.
- 8- شعر الزهد (نصوص من المشرق والمغرب. أبو العتاهية. ابن فارض...).
- 9- شعر الحماسة: نصوص لأبي تمام/ البحتري... الزوزني. الشاطبي. الحماسة المغربية لأبي الحجاج يوسف البياسي... الكوراني....
- 10- الشعر السياسي في المشرق والمغرب (الفتوحات.الخوارج. الشيعة. السجون...رثاء المدن....)
- 11- الشعر الفلسفي وشعر الحكمة.

12- الموشحات والأزجال.

13- الشعر الأندلسي (نصوص من أشعار ابن زيدون).

14- نصوص من الشعر الجزائري القديم. بكر بن حماد التيهرتي.

ومن هذا الجانب الذي أولاه البرنامج المسطر في التكوين اجتهدنا في إثراء المحاضرات بما هو ملائم للطالب في مستواه الأول: فأوردنا بعض الجوانب التاريخية والاجتماعية حتى تتضح المفاهيم والرؤى التي اختفت وراء إبداع الشعراء. كما أننا عمدنا إلى منهجية العرض والتمثيل بالأشعار في المواضيع التي تتطلب الاستشهادات الشعرية الموضحة. وحرصا على تكوين الطالب وظفنا لغة مفهومة متداولة في الدراسات الأدبية وابتعدنا عن الألفاظ المعقدة والتراكيب الغامضة حتى يسهل على الطالب التجاوب مع مادة أدبية قديمة تشكّلها - في نظره - لغة مستعصية على قارئها. وقد سعت هذه المحاضرات إلى توسيع قائمة المصادر والمراجع وتنويعها وفقا للموضوعات المطروقة فيها حتى يتسنى للطالب تعميق معارفه متى ما أراد.

الكلمات المفاتيح: شعر-معلقات- صعلكة-فتوح-رثاء-غزل-نقيضة-حماسة- شعر فلسفي-
حكمة-موشحات-أزجال-شعر مغربي.

المحاضرة الأولى:

الشعر العربي القديم تاريخياً وجغرافياً

1. مدخل عام إلى الأدب الجاهلي: العصر الجاهلي: 150-200 قبل الإسلام.

1. بيئة الشعر الجاهلي

2. تسمية العصر

3. الموقع الجغرافي

4. أثر طبيعة شبه الجزيرة في نمط حياة العرب:

II. الشعر الجاهلي: المراحل والاتجاهات

1. بداية الشعر:

2. المرحلة الفنية: مرحلة القصيدة

3. مراحل الشعر الجاهلي الفنيّة

المحاضرة الأولى: الشعر العربي القديم تاريخيا وجغرافيا

1. مدخل عام إلى الأدب الجاهلي:

العصر الجاهلي: 150-200 قبل الإسلام.

1. بيئة الشعر الجاهلي:

نظر الدارسون إلى الظاهرة الشعرية العربية في الأدب العربي القديم نظرة تاريخية سياسية؛ انقسم الأدب إثرها إلى عصور أدبية راجت عند الباحثين العرب-متأثرين بالدراسات الاستشراقية- معتمدة على الأحداث التاريخية الكبرى التي عملت على تغيير طبيعة الحكم العربي بالدرجة الأولى؛ ثم ما أسفرت عليه هذه التغييرات من آثار في البنى العقلية والفكرية والوجدانية للعربي وهو يمثل ذاته الاجتماعية والنفسية والثقافية؛ نقف في عصرنا الأدبي الأول: العصر الجاهلي-عصر ما قبل الإسلام على أهم ما ميّز حياة العرب في الزمان والمكان العربيين.

2. تسمية العصر:

اصطلحت الدراسات على تسمية المرحلة التي سبقت ظهور الإسلام في "الجاهلية"، والجهل هو نقيض العلم؛ والجهالة أن تفعل فعلا بغير علم. أمّا الجاهلية فقد جعلها ابن منظور "زمن الفترة ولا إسلام"¹ و"الفترة: ما بين كلّ نبين وفي الصحاح: ما بين كلّ رسولين من رسل الله عز وجل من الزمان الذي انقطعت فيه الرسالة"². والفترة: الانكسار والضعف، وفترة الشيء: سكن بعد حدة ولأنّ بعد شدة³. وعليه فإنّ الزمن الذي فصل بين رسالتي عيسى عليه السلام ومحمد عليه الصلاة والسلام هو زمن ضعف فيه الدين ولأنّ، فالجاهلية هي الحال التي كان عليها العرب قبل الإسلام من الجهل بالله

¹-ابن منظور:لسان العرب، مج2(ج-ح)، طبعة مراجعة ومصححة بمعرفة نخبة من الأساتذة

المتخصصين، دار الحديث، القاهرة، 2003، ص246

²-نفسه، 14/7

³-نفسه، 14/7

تعالى؛ والظاهر أن هذه التسمية حدثت في العهد الإسلامي. لقد ذكر القرآن الكريم لفظ "الجاهلية" أربع مرّات:

1- في الآية 154 في سورة آل عمران:

(يَظُنُّونَ بِاللّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ)

2- في الآية 5. في سورة المائدة:

(أَفْحَكَمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ)

3- في الآية 33 في سورة الأحزاب:

(وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى)

4- في الآية 26 في سورة الفتح:

(إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْحَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةَ)

وإذا تحدّد المعنى الأول بالشكّ في أمر الله وتكذيب رسوله وظنّ أهل الشرك أنّ الله خاذل رسوله، وعنى الثاني "أحكام عبدة الأوثان" واستقرّ المعنى في الآية الرابعة بأنّه أخلاق أهل الكفر، فإنّ الآية الثالثة: آية سورة الأحزاب قد فتحت القول على اعتبار وجود جاهليتين: الجاهلية الأولى وهي القديمة التي يقال لها الجاهلية الجهلاء توكيداً للجهل فيها؛ وقد ردت هذه المرحلة إلى زمن إبراهيم - عليه السلام- وقد شاع فيه أن المرأة "كانت تضع الدرع من اللؤلؤ فتمشي بين الرجال تعرض نفسها عليهم؛ كما ردت إلى ما بين آدم ونوح عليهما السلام؛ وقيل زمن داوود وسليمان عليهما السلام؛ أمّا الجاهلية الأخرى فهي ما بين عيسى ومحمد عليهما السلام. وفسّر الجهل الذي تُسبب إليه العرب بأنّه مُنَافٍ لِلْحِلْمِ، وهو ما يتفق مع سلوك العربي قبل الإسلام وفيها نشأ الشعر العربي القديم.

استندت الدراسات في تحديد العصر الجاهلي أدبيا إلى قول أبي عثمان عمرو بن بحر المعروف بالجاحظ قال: "أمّا الشعر فحديث الميلاد صغير السن.... فإذا استظهرنا الشعر وجدنا له إلى أن جاء الإسلام خمسين ومائة عام وإذا استظهرناه بغاية الاستظهار فمائتي عام..."

3. الموقع الجغرافي:

موطن الأدب الجاهلي شبه جزيرة العرب: تقع جنوب غرب آسيا، يحيط بها الماء من ثلاث

جهات:

- الخليج العربي شرقاً

- المحيط الهندي جنوباً

- البحر الأحمر غرباً

- بلاد الشام شمالاً

"يقسم جغرافيو العرب الجزيرة إلى خمسة أقسام هي: تهامة (أو: الغور) والحجاز ونجد والعروض واليمن"⁴:

1- تهامة: المنطقة الساحلية الغربية، وهي شديدة الحرّ (هيم الحرّ: اشتد مع ركود الرياح)، تقع فيها المدن الساحلية.

2- نجد: وهي الجبال المرتفعة من جهة الشرق.

3- الحجاز: وهي سلاسل جبال السراة سميت حجازاً لأنها حجزت بين تهامة ونجد.

4- العروض: وهو الجزء الذي ينتهي به "نجد" في الشرق حتى يصل إلى الخليج العربي (يشمل البحرين واليمامة وعمان).

5- اليمن: ويمثل القسم الجنوبي منها وقيل سُمي كذلك لأنه واقع على يمين الكعبة أو لكثرة أشجاره وزروعه (يشمل حضر موت والشحر).

4. أثر طبيعة شبه الجزيرة في نمط حياة العرب:

تميّز هذا الموقع بطبيعة خاصة جمعت بين الأضداد كانت للعربي بواعث إلهام شعري رافقه في حلّه وترحاله؛ لقد انصهرت العوامل الخارجية في ذاته؛ فكان للعامل الجغرافي القسط الأكبر في توجيه مسار انفعالات العربي؛ حيث كان الانبناء على التضاد في التضاريس وتوزعها على الجبال والسهول والرمال وانعكاس ذلك على مناخ المنطقة الصحراوية بين حرارة لأفحة محرقة ورياح مفاجئة في هبوبها وهدوئها وعواصف رملية وأمطار وإن كانت نادرة فهي مدمرة، كلّ هذا "يذكرنا بسرعة انفعال العربي وتأجج مشاعره وفورانها وسرعة عودته إلى الهدوء والصفاء"⁵.

⁴- شوقي، ضيف: العصر الجاهلي، دار المعارف، ط24، مصر، 2003، ص18

⁵- علي سليمان: الشعر الجاهلي و أثره في تغيير الواقع، قراءة في اتجاهات الشعر المعارض، منشورات وزارة

الثقافة، دمشق، 2000، ص.ص16.17

لقد أفرزت هذه البنية الطبيعية ذاتا عربية قابلة لمعايشة الأضداد والذوبان فيها؛ فلم يكن غريباً على العرب أن يجمعوا بين مكارم الأخلاق من كرم وشجاعة وعزّة نفس؛ وبين دنيتها من السفه والقتل والبطش والإغارة على القبائل والاختتال لأنّته الأسباب، ووأد البنات والأخذ بالثأر وغيرها، وفي ضوء هذا الواقع تمّ تفسير موقف الشاعر الجاهلي "يبدو أن هذا التناقض الحادّ في العامل الجغرافي والمناخي قد دخل في نسيج حياة الشعراء، وكان عنصراً أساسياً في تشكيل ورسم ملامح الشخصية الجاهلية وفي وضع بذور الاحتجاج والتمرد والمعارضة في تربة هذا الواقع"⁶.

توزعت نفس العربي بين الشّر والخير، فهو عدواني لا يضبطه ضابط وهو طيّب خير يتفانى لأجل الوفاء بالعهد ولا يحول دون كرمه فقر أو حاجة، وهو في جمعه بين الطرفين عكس سنة الخلق من جهة، تربت عليها بعض الآثار الاجتماعية من جهة أخرى.

لقد أدّى هذا الواقع إلى ظاهرة اجتماعية حياتية أسهم في تشكيلها الجانب الاقتصادي؛ ذلك أنّ حياة العرب المادية طبعها الفقر والحاجة والترحال بحثاً عن مقومات حياة البدو (الماء والكلاء)، وكان هذا الوضع عاملاً من عوامل نشوب الحروب بين القبائل العربية وودفع إلى "التسابق على الاستئثار بامتلاك المناطق الخصبة أو المناطق الغنيّة بالثروات والموارد الطبيعية وأدّى بالتالي إلى خلل مماثل في العلاقات الاجتماعية إلى صراعات دموية وتصدّعات متواصلة في البنية الاجتماعية"⁷.

ولقد خلف هذا الباعث عداً بين القبائل فساسها نظام "البقاء للأقوى" وإذا كان هذا هو الوضع العام الذي خضعت له الحياة العربية الصحراوية، فقد انتظمت الحياة في نظام قبلي، فانقسم العرب إلى قبائل متعدّدة كان العرق والنسب الموحّد الأوّل بين أفرادها، ذلك أنّهم كانوا شديدي الاهتمام بأنسابهم. فسّروا هذا الاهتمام بحاجتهم إلى "التناصر بالعصبية" والقبيلة دون الشعب، وإتّما سميت قبيلة لتقابل بعضها ببعض واستوائها في العدد، وقد استنقلت كلّ قبيلة بقوانينها تسنّها لفرض النظام الداخلي" وكان أفراد القبيلة يتعاونون ويتساندون في الحفاظ على شرف القبيلة وحماها... ولا يدينون بالطاعة إلاّ لرئيس قبيلتهم... كما كانت الحرية التي يتغنون بها ويتمسكون بها حرية شخصية لا حرية اجتماعية، وكان على القبيلة في مجموعها أن تحمي كل فرد من أفرادها وتهبّ كلّها للدفاع عنه والأخذ له بحقه

⁶ - السابق، ص17

⁷ - نفسه، ص18

والانتصاف له إن أصابه ضيم أو مُتت كرامته وكان الفرد يعتمد على القبيلة في كلِّ مآله من حقوق نظير ما كان عليه من واجبات لذلك اشتد تعلق القبائل بأفرادها كما اشتد تعلق الفرد بقبيلته، ومن هنا وجدت بينهم العصبية قويّة؛ فكان التعصب للدمّ شديداً، ووقف الفرد بجانب أخيه من قبيلته في جميع الأحوال ظالماً كان أم مظلوماً⁸.

وحال لسانهم قول الشاعر:

وَمَا أَنَا إِلَّا مِنْ غَزِيَّةٍ إِنْ عَوْتُ عَوِيْتُ وَإِنْ تَرُشِدُ غَزِيَّةٌ أَرُشِدُ

الشاعر دريد بن الصمة

II. الشعر الجاهلي: المراحل والاتجاهات

بعد أن قدّمنا لبينة الشعر الجاهلي نرصد بداياته؛ ولا أحد يشك أن الذي وصل إلينا منه إنّما مثل شعراً فنياً اكتمل بناؤه شكلاً ومضموناً، وأنّ هذه المرحلة من النضج سبقتها مرحلة إرهامات مثلت بداية الشعر، وسارت بالتجربة الإبداعية نحو "القصيد". وذلك بناءً على إجماع الدارسين أنّ أقدم ما وصل من الشعر الجاهلي هو رثاء مهلهل بن ربيعة الثعلبي في أخيه حيث تناقلوا قول ابن سلام في التأريخ لهذه البداية قال: "وكان أول من قصّد القصائد وذكر الوقائع المهلهل بن ربيعة الثعلبي في قتل أخيه كليب وائل، قتله بنو شيبان، وكان اسم المهلهل عدياً وإنّما سمي مهلهلاً لهلهة شعره كهلهة الثوب واختلاقه"⁹.

إذا عاينا القول استخلصنا منه أمرين؛ أمّا الأول فزمني وهو تحديدنا لمرحلة القصيدة بالمهلهل؛ وأمّا الثاني فشكلي يعرض للبناء الخارجي حيث يكشف القول عن عدم الاكتمال؛ إذ استعيرت هلهة الثوب لرداءة الشعر ورقته. و"الهَلُّ" هو نسج العنكبوت؛ والثوب "الهَلُّ" أو "الهلهل" و"الهلهال" و"الهلهال" و"الهلهال" : الرقيق السخيف النسج¹⁰. وأمّا الشاعر الذي يأتي بشعر هلهل: شعر رقيق

⁸- علي الجندي: في تاريخ الأدب الجاهلي، دار غريب للطباعة و النشر و التوزيع، القاهرة، 1998،

⁹- محمّد بن سلام الجمحي (ت 231هـ) : طبقات فحول الشعراء، دار الكتب العلمية، لبنان، 2001، ص 38.

¹⁰- ابن منظور : لسان العرب، 9/125

فهو مهلهل وسمي الشاعر المذكور أنفا مهلهلا لأنه أول من أرقّ الشعر. وقيل إنّما هو امرؤ القيس، والمشهور أنّه أبو ليلي عدّي بن ربيعة. فإذا علمنا هذا تأكّد أنّ الشعر الجاهلي مرّ بمرحلتين: البداية والمرحلة الفنيّة.

1. بداية الشعر:

يبعث فينا قول ابن سلام الرغبة في معرفة واقع الشعر قبل مرحلة المهلهل. وقد شاع أن الشعر وقتها كان محصورا في القبائل وبلهجاتها فلم يخرج عن نطاقها، فجاء تعبيراً "عن وجدان فردي أو قبلي محدود، داخل إطار التعبير الإنساني البسيط أو انعكاس للوجدان الجماعي القبلي"¹¹. فكان هذا الوضع تفسيراً لعدم روايته إذ المتفق عليه أن الرواية اعتمدت اللهجة القرشية وهي التي فرضت نفسها على اللهجات وأصبحت لغة رسمية. أمّا عن طبيعة هذا الشعر فقد تميّز أولاً بأنّه مجموع أبيات تتراوح بين البيتين والثلاثة أبيات، فذل على ضالته، وبأنّه تعبير ذاتي اتجاه مواقف ما قد يحمل فكرة بسيطة اعتنقها القائل، كما يمكن أن تكون القبيلة معتقدة لها وكان الشاعر لسانها فيها ف: "يقول من الرجز البيتين والثلاثة ونحو ذلك إذا حارب أو شاتم أو فاخر"¹². وعليه فإنّ الشاعر انفتحت قريحته على الرجز والأغراض: الحماسة- الهجاء- الفخر باعتبارها ممارسات ثقافية وسياسية اجتماعية تطبع نمط حياته. ومن الأقوال التي رفضت أن يكون الرجز هو أقدم قالب شعري قالت فيه العرب، ورأت أنّ الشكل الشعري الأقدم هو "السجع" معتمدة رأي المستشرق بروكلمان، ليقول: «ينبغي أن يكون أقدم القوالب الفنيّة العربية هو السجع أي النثر المقفى المجرد من الوزن، ويبدو أن النقوش اليمينية تدل على اتجاهات إلى استعمال القافية"¹³. وعلى هذا الأساس يمكن افتراض أطوار مرّ بها الشعر في بدايته هي: مرحلة الأسجاع- مرحلة الألحان الاتقافية- مرحلة البيت والأبيات.

• **الأسجاع:** هو التعبير الفطري الذي يعرفه الإنسان وقد شاع على لسان الكهان والعرافين حيث وظفوه للتأثير في الناس حتى يعتقدوا أن الآلهة -في معتقدهم باطل- تكلمهم . ومن ميزاته تواتر

¹¹ - سيّد حنفي حسنين: الشعر الجاهلي ،مراحلها واتجاهاته الفنيّة،ص24.

¹² - نفسه، ص25.

¹³ - بروكلمان :تاريخ الأدب العربي 51/1 نقلا عن سيّد حنفي حسنين: الشعر الجاهلي ،مراحلها واتجاهاته

الفنيّة، ص25.

النگمات والتقطيع المتساوي لدرجة لافتة للنظر، وهو شبيه بصوت الحمام "السجع" ومن أقوالهم فيه "الأرض والسماء والعقاب والصقعاء (الشمس) واقعة ببقعاء لقد نفر المجد من بني العشراء للمجد والسناء".

• **الألحان الاتفاقية:** ويطلق عليها "الحداء"، وهو أول الغناء، عرفته العرب عن تجربتها في الاستئناس بالحيوان، وهو ملائم لمرافقتهم في الحياة ملهم لأوزانهم، فالعرب "كانوا يحدون الإبل من أقدم أزمانهم بكلام وأصوات تشبه التوقيع لأتة من المعلوم بالضرورة أتة لا ينفس من التعب ولا يبعث على النشاط غير الأصوات الموقعة على وزن ما".

• **البيت والأبيات:** المقطوعة: "وإذا نظرنا في النصوص الجاهلية الموثقة... فسنجد أن قالب المقطوعة هو الذي يسمح للشاعر أن يعبر عن المضمون الواحد في الموقف الواحد بالسرعة المطلوبة... والمقطوعة إذن هي القالب الأول الذي نظم فيه الشعر الجاهلي وهو قالب لم يخنف مع تقصيد الشعر بل استمر شكلاً يتيح لهم التعبير السريع حسب الضرورة والظرف الذي ينظمون فيه"¹⁴.

2. المرحلة الفنية: مرحلة القصيدة

1- **مادة ق-ص-د:** يتناول اللسان المادة اللغوية، ويقول فيها "القصيدة استقامة الطريق، وقوله تعالى: (وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ) أي على الله تبيين الطريق المستقيم والدعاء إليه بالحجج والبراهين الواضحة. وطريق قاصد: سهل مستقيم، والقصيدة العدل... وفي الحديث: القصد القصد تبلغوا أي عليكم بالقصد من الأمور في القول والفعل، وهو الوسط بين الطرفين، والقصد: الاعتماد والأتم،... والقصد إتيان الشيء.

والقصيد من الشعر: ما تم شطر أبياته، وفي التهذيب: شطر بنيته، سمي بذلك لكماله وصحة وزنه، وقال ابن جنبي: سمي قصيداً لأنه قُصِدَ واعْتُمِدَ، وإن كان ما قُصِرَ منه واضطرب بناؤه نحو الرمل والرجز شعراً مراداً مقصوداً، وذلك أن ما تم من الشعر وتوفر أثر عندهم وأشدُّ تقدماً في أنفسهم ممَّا قُصِرَ واختلَّ، فسموا ما طال ووفر قصيداً أي مراداً مقصوداً، والجمع قصائد. وربما قالوا (قصيدة).

والقصيد عند الجوهري: جمع القصيدة كسفين جمع سفينة، وقيل الجمع قصائد وقصيد... وقيل سمي قصيداً لأنه قائله احتفل له فنقحه باللفظ الجيد والمعنى المختار، وأصله من

¹⁴ - سيّد حنفي حسنين: الشعر الجاهلي، مراحل واتجاهاته الفنية، ص 27.

القصيد وهو المَخَّ السمين الذي يتقصد أي ينكسر لِسْمِنِهِ وضدّه "الرّير" و"الرّار" وهو المَخَّ السائل الذائب الذي يميع كالماء، ولا يتقصد. والعرب تستعير السّمّن في الكلام الفصيح، فتقول: هذا كلام سمين أيّ جيّد، وقالوا شعر فُصِدَ إذا نُفِحَ وجُودٌ وهذّب، وقيل سُمي الشعر التام قصيدا لأن قائله جعله من باله فقصد قصدا ولم يحتسه حسيا على ما خطر بباله وجرى على لسانه، بل روى به خاطره واجتهد في تجويده، ولم يقتضبه اقتضابا.

وقال أبو الحسن الأَخفش:.... وليست القصيدة إلا ثلاثة أبيات، فجعل القصيدة ما كان على ثلاثة أبيات قال ابن جني: وفي هذا القول من الأَخفش جواز، وذلك لتسميته ما كان على ثلاثة أبيات قصيدة، والذي في العادة أن يسمى ما كان على ثلاثة أبيات أو عشرة أو خمسة عشر قطعة، فأما ما زاد على ذلك فإنما تسميه العرب قصيدة. وقال الأَخفش: "القصيد من الشعر هو الطويل والبسيط التام، والكامل التام والمديد التام والوافر التام والرجز التام والخفيف التام، وهو كل ما تغنى به الركبان، قال ولم نسمعهم يتغنون بالخفيف...ومعنى قوله التام.... يريد أتمّ ما جاء منها في الاستعمال...."¹⁵.

3.مراحل الشعر الجاهلي الفنيّة:

عرف الشعر الجاهلي ثلاث مراحل مثّلت اتجاهات فنيّة، تعيّنت كالاتي:

1- مرحلة الطبع والتلقائية/ اتجاه.

2- مرحلة الصنعة/ اتجاه.

3- مرحلة الجمود: وهي مرحلة الاكتمال والنضج الفني، لم يضاف إليها الشعراء.

1- مرحلة الطبع والتلقائية: ويحددها بعض الدارسين تاريخيا "مرحلة ما قبل الاحتراف" قياسا على المرحلة التالية لها. واستقر وصفها بالطبع والتلقائية من منظور فنيّ لمرافقتها الحسّ الإنساني البسيط وانسجامه مع الظرف الذي يعيش فيه "يعني لنفسه، لأحلامه لأماله، ويصور هذا الغناء تلك البيئة الفياضة بالأخيلة البسيطة الخالية من التعقيد المعتمدة على الإدراك الحسّي المباشر، وقد يتحوّل غناؤه إلى تعبير عن آمال عصبية التي يحسّها كجزء من نفسه، فيكون غيريا ولكن في الوقت نفسه ذاتي التعبير"¹⁶.

¹⁵ - ينظر في المادة اللغوية قصد، ابن منظور: لسان العرب: 380.377/7

¹⁶ - سيد حنفي حسنين: الشعر الجاهلي مراحل واتجاهاته الفنية، ص.ص 32.31.

أثر في الشاعر في هذه المرحلة عاملان، الأول: ذوبانه في القبيلة إذ هو جزء لا يتجزأ منها (مراجعة النظام القبلي ما هو)؛ والثاني: طبعه الإنساني وتمييزه عن غيره بالقدرة على الشعر ومنه اكتسابه لحقّ التعبير عن الذات وانفعالاتها، عاش "لفنه... سواء حين عبّر عن وجدان قبيلته أو عن خاصة نفسه، ولم يكن بحاجة إلى تكلف أو صنعة مادام الدافع للنظم ينبع من شعوره لا من إرادته أو عقله فحسب، وهو فرق قد يكون طفيفا، ولكن سوف يكون له أبلغ الأثر حين ينقل فنّ الشعر من هذه التلقائية والطبع الفنّي إلى الصناعة والتحكّيك الإرادي"¹⁷. يمثل هذا الاتجاه كوكبة من الشعراء الجاهليين أميرهم امرؤ القيس، ومعه جماعة الصّعاليكووصافو الخيل.

2- الصنعة: ويطلق عليها مرحلة الاحتراف.

يرتبط المعنى الأول للصنعة بتحسين العمل وإتقانه سواء كان فكريا أم حرفيا. والرجل الصنع اللسان هو الشاعر الذي يمتلك لسانا مبينا. ومن هنا كانت صناعة الشاعر في حرفة القول لديه، فارتبط مصطلح الصنعة الشعرية بالشعر باعتباره حرفة وصناعة محبوكة لا يقدر عليها إلا متمرس تقف فنون القول. قال ابن سلام: "و للشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم كسائر أصناف العلم، والصناعات منها ما تتقفه العين، ومنها ما تتقفه الأذن، ومنها ما تتقفه اليد، ومنها ما يتقفه اللسان"¹⁸. وصف ابن سلام الشعر من منظور تخصيصه بثقافة اللسان وصناعته، فلم يعد قول الشعر عملا سهلا ساذجا الأصل فيه الوزن والقافية كما شاع في تداول الناس وعرفهم الأدبي البسيط بل هو عملية بالغة التعقيد، وقد كشفت القوائد الجاهلية الطوال عن الجهد الذي كان يبذله الشعراء قبل إخراج أشعارهم. مثل هذا الاتجاه في الشعر الجاهلي المدرسة الأوسية نسبة إلى أوس بن حجر زوج أمّ زهير بن أبي سلمى المزني؛ وامتد إلى غاية العصر العباسي واشتهرت بمدرسة البديع. نقل شوقي ضيف تجربة زهير في تحكّيك الشعر وتنقيحه على لسان الجاحظ في كتابه الحيوان، قال:

"كان زهير بن أبي سلمى يسمى كبار قصائده الحوليات، ولذلك قال الحطيئة: خير الشعر الحولي المحكك، وقال الأصمعي: زهير بن أبي سلمى والحطيئة وأشباههما عبيد الشعر، وكذلك من جود في جميع شعره ووقف عن كلّ بيت قاله، وأعاد فيه النظر، حتى يخرج أبيات القصيدة كلّها

¹⁷ - السابق، ص 37.

¹⁸ - ابن سلام الجمحي: ص 26.

مستوية في الجودة، وكان يقال: لولا أن الشعر استعبدهم وستفرغ مجهودهم حتى أدخلهم في باب التكلّف وأصحاب الصنعة، ومن يلتمس قهر الكلام واغتصاب الألفاظ لذهبوا مذهب المطبوعين الذين تأتيهم المعاني سهوًا ورهوًّا وتتثال عليهم الألفاظ انشياً¹⁹.



¹⁹ - شوقي ضيف: الفن ومذاهبه في الشعر العربي، دار المعارف، ط2، ص12، مصر، ص21.

المحاضرة الثانية:

المعلقة

1. التسمية
2. أصحابها ومطالعها
3. موضوعات المعلقة
- 1.3. معلقة امرئ القيس
- 2.3. معلقة طرفة بن العبد
- 3.3. معلقة زهير: مذهب الصنعة والاحتراف
4. الخصائص والبناء الخارجي

المحاضرة الثانية: المعلقات

عرف الشعر الجاهلي مجموعة من النصوص الشعرية محدّدة العدد أطلق عليها مصطلح "المعلقات"، وهي بمثابة النصوص النماذج للشعر العربي القديم احتذى به شعراء العرب بعد الإسلام وإلى غاية زمن متأخر من تاريخ الأدب العربي، ذلك أنّها مثّلت "الصور الأخيرة التي انتهت إليها تجارب الجاهليين في التعبير الشعري ولذلك فاقت شهرتها ما سواها من الشعر الجاهلي بل الشعر العربي على الإطلاق، وأصبح لأصحابها من الذكر في تاريخ الأدبالعربي ما لم يظفر غيرهم من الشهرة وذيوع الصيت"¹.

ولما كان الحديث عن المعلقات شيقاً ثرياً وجب أن نحدّد عناصر منه ونختصر القول فيه:

1. التسمية:

تسمّت هذه القصائد النماذج بعدد من التسميات، وقد ورد مع كل تسمية تعليل: وهي:

1) المعلقات: هو ومفردها المعلقة، وهو أكثر التسميات انتشاراً وذيوعاً واستعمالاً وقد ردت هذه التسمية إلى أنّها علقت على أستار الكعبة، أو لأنّها علقت في خزانة الملك كما ورد في قول ابن الرشيقي "وكانت المعلقات تسمى المذهبات وذلك لأنّها اختيرت من سائر الشعر فكتبت في القباطي بماء الذهب (والقبطي ثياب من الكتان تنسب إلى مصر) وعلّقت على الكعبة، فلذلك يقال مذهبة فلان، إذا كانت أجود شعره، ذكر ذلك غير واحد من العلماء، وقيل بل كان الملك إذا استجيدت قصيدة الشاعر يقول: علقوا لنا هذه، لتكون في خزانته"².

2) السبع الطوال: وقد تناقلوا التسمية عن حمّاد الراوية وقيل إنه استلهمها من حديث النبي عليه الصلاة والسلام عن السور الطوال، في قوله: "أعطيت مكان التوراة السبع الطوال". أمّا عن التعليل الأدبي، فإنّ مرّد التسمية إلى طول القصيدة وكثرة عدد أبياتها ممّا يفصح عن طول نفّس شعري يميّز أصحابها عن غيرهم.

¹ - بدوي طبانة: معلقات العرب، دراسة نقدية تاريخية في عيون الشعر الجاهلي، مكتبة الأنجلومصرية، ط1، 1958، ص05.

² - ابن الرشيقي القيرواني الأزدي(390-456): العمدة في محاسن الشعر و آدابه ونقده، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، ج1، دار الطلائع، مصر، ط1، 2006، ص83.

3 المذہبات: وقد نقلنا عن ابن الرشيقي قوله في تسميتها بالمعلقات والمذہبات في فقرة سابقة وقد أورد بدوي طبانة هي التسمية الواصفة على لسان: ابن قتيبة في وصفه معلقة عنتره على أنها أجود شعره وكانوا يسمونها المذہبة³؛ وعلى لسان البغدادي صاحب خزانة الأدب، قال:

" وقال البغدادي صاحب خزانة الأدب في قول عنتره:

وَكأَنَّ رَبِّاً أَوْ كُحَيْلاً مُعَدَّاً حَشَّ الْوَقُودَ بِهِ جَوَانِبَ فُمُومِ
يُنْبَاغُ مِنْ زَفْرَى عَضُوبِ جِسْرَةٍ زِيَاةٍ مِثْلَ الْفَنِيقِ الْمُكْدَمِ

هذان البيتان من معلقة عنتره، وهي من أجود شعره وكانت العرب تسميها المذہبة بصيغة اسم المفعول من الإذهاب أو التذهيب، وهو بمعنى التمويه والتطلية بالذهب⁴.

ونود أن نشير إلى أن التسمية بالمذہبات واردة في "جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام" على أنها مجموعة شعرية ثانية غير المعلقات حيث عدّ من المجموعات الشعرية:

1- السموط: وهي المعلقات كما سيأتي ذكره.

2- المجهرات.

3- المنتقيات.

4- المذہبات.

5- المراثي.

6- المشوبات.

7- الملحقات.⁵

4 السموط: والسمط هو الخيط مادام فيه الخرز، وقد ذكر هذه التسمية أبو زيد القرشي كما

أسلفنا فقال ناقلاً عن المفضل: "هؤلاء أصحاب السبع الطوال التي تسميها العرب السموط"⁶.

³-بدوي طبانة : معلقات العرب، ص16.

⁴- نفسه، ص16. والقول للبغدادي نقله بدوي طبانة.

⁵- أبو يزيد القرشي: جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام، تح: محمد البجاوي، نهضة مصر،

ص98-99.

⁶- نفسه، ص98.

وأورد بدوي طبانة أن تسمية المعلقات بالسموط راجع إلى حمّاد الراوية فقد "كانت العرب تعرض أشعارها على قريش، فما قبلوا منها كان مقبولاً، وما ردّوا منها كان مردوداً، فقدم عليهم علقمة بن عبدة، فأنشدتهم:

هَلْ مَا عَلِمْتَ وَمَا اسْتَوْدَعْتَ مَكْتُومٌ*

فقالوا هذا "أسمط" الدهر، ثم عاد عليهم في العام المقبل، فأنشدتهم:

طَحَا بِكَ قَلْبٌ فِي الْحِسَانِ طَرُوبٌ**

فقالوا هاتان "سمطا" الدهر، والسمط عندهم خيط النظم....والسمط أيضا القلادة، والأمر في التسمية قائم على التشبيه⁷.

(5) المشهورات: والتسمية راجعة لحمّاد كذلك، وذلك أنه رأى زهد الناس في الشعر فجمع هذه السبعة وحثّ حضهم عليها.

(6) ومن أسمائها أيضا "السبعيات" وانفرد بالتسمية الباقلائي و"السبع الجاهليات" وانفرد بهذه التسمية ابن الأنباري⁸.

وقد دقق بدوي طبانة في تمحيص هذه التسميات ومدى صحة القول بالتعليق: والكتابة بماء الذهب وهو الرأي الذي مال إليه الكاتب: وذلك أنه رأى انعدام توفر الأسباب الداعية إلى الشك فيها: "ولا نرى سبباً معقولاً يدعو إلى نفي هذه المعلقات أو تكذيب هذه الروايات التي توراد عليها الرواة في مختلف العصور"⁹.

*- هَلْ مَا عَلِمْتَ وَمَا اسْتَوْدَعْتَ مَكْتُومٌ أم حبلها إذ تأتلك اليوم مصروم

** - طَحَا بِكَ قَلْبٌ فِي الْحِسَانِ طَرُوبٌ بُعِيدَ الشَّبَابِ عَصَرَ حَانَ مَشِيْبُ

⁷- بدوي طبانة: معلقات العرب، ص.ص. 17-18.

⁸- نفسه، ص.18.

⁹- نفسه، ص.21.

2. أصحابها ومطالعها:

قال ابن الرشيقي القيرواني في كتابه العُمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده: «وقال محمد بن أبي الخطاب في كتابه الموسوم بجمهرة أشعار العرب: إنّ أبا عبيدة قال: أصحاب السبع التي تسمى السمط: امرؤ القيس، وزهير، والنابغة، والأعشى، ولييد، وعمرو بن كلثوم، وطرفة. وقال المفضل: من زعم أنّ في السبع التي تسمى السمط لأحد غير هؤلاء فقد أبطل. فأسقط من أصحاب المعلقات عنتره والحارث بن حلزة، وأثبت الأعشى والنابغة»¹⁰.

وأضاف أبو زيد القرشي في جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام: "...وإنّ بعدهن (يقسط السموط) سبعا ما هنّ بدونهن ولو كنت ملحقا بهن سبعا لألحقتهن: المجهرات: لعبيد بن الأبرص وعنتره...."¹¹ ص 98. ونسجّل ما يلي:

(1) أنّ أبا زيد القرشي وهو ينقل عن المفضل لم يذكر الحارث بن حلزة لا في المعلقات ولا في الطبقة الثانية من مختاراته: المجهرات؛

(2) أنّه أسقط عنتره من المعلقات وصنّفه في المجهرات؛

(3) أنّه ذكر عبيد بن الأبرص في المجهرات.

وأما أصحابها كما اشتهروا به من شرح المعلقات السبع لصاحبه أبي عبد الله الحسين بن أحمد بن الحسين الزوزني المتوفى في سنة 468 من الهجرة؛ فهم بالترتيب الذي وردوا عليه: 1- امرؤ القيس بن حجر الكندي؛ 2- طرفة بن العبد البكري؛ 3- زهير بن أبي سلمى المزني؛ 4- لييد بن ربيعة العامري؛ 5- عمرو بن كلثوم التغلبي؛ 6- عنتره بن شداد العبيسي؛ 7- الحارث بن حلزة اليشكري. أمّا الثلاثة الذين أضيفوا إلى هؤلاء فهم:

1- الأعشى ميمون؛ 2- النابغة الذبياني؛ 3- عبيد بن الأبرص.

¹⁰ - ابن الرشيقي: 83/1.

¹¹ - أبو زيد القرشي: ص 98.

عدد أبياتها في رواية الزوزني ¹² والشنقيطي ¹³	مطلعها	صاحب المعلقة
عند الزوزني: 79 بيتاً. عند الشنقيطي 82 بيتاً.	فَقَا نَبْكَ مِنْ ذِكْرِي حَبِيبٍ وَمَنْزِلٍ بِسِقْطِ اللَّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلٍ	1- امرؤ القيس. وهو أول الفحول على أغلب الأقوال. ورأس الطبقة الأولى عند ابن سلام الجمحي. توفي في 80 قبل الهجرة.
102 بيتاً عند الزوزني. و106 عند الشنقيطي.	لِحَوْلَةِ أَطْلَالٍ بِبُرْقَةٍ تَهْمَدِ تَلُوْحُ كَبَاقِي الْوَشْمِ فِي ظَاهِرِ الْيَدِ	2- طرفة بن العبد، لقب طرفة واسمه عمرو. جعله لبن سلام في الطبقة الرابعة وجعله البغدادي في المرتبة الثانية. توفي في 70 قبل الهجرة.
62 بيتاً عند الزوزني وعند الشنقيطي.	أَمِنْ أُمِّ أَوْفَى دِمْنَةٌ لَمْ تَكَلِّمْ بِحَوْمَانَةِ الدَّرَاجِ فَالْمُنْتَمَلِّمِ	3- زهير بن أبي سلمى: هو أحد الثلاثة المتقدمين في الشعر: امرؤ القيس والنابغة وزهير. اشتهر بالحوليات. توفي في 14 قبل الهجرة.
88 بيتاً عند الزوزني وعند الشنقيطي.	عَفَّتِ الدِّيَارُ مَحَلُّهَا فَمَقَامُهَا بِمَنْى تَأَبَّدَ غَوْلُهَا فَرَجَامُهَا	ليبد بن ربيعة بن مالك العامري. جعله ابن سلام في الطبقة الثالثة. أدرك الإسلام

¹²- أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن الحسين: الزوزني، شرح المعلقات السبع، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الطلائع، مصر، 2005.

¹³- أحمد بن الأمين الشنقيطي: شرح المعلقات العشر وأخبار شعرائها، اعتنى به عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، لبنان، ط4، 2010.

		وأسلم. وكان من المعمرين. لم يقل بعد إسلامه شعرا. توفي في 40 للهجرة.
91 بيتا عند الزوزنيو106 بيتا عند الشنقيطي.	أَلَا هُبِّي بِصَحْنِكَ فَأَصْبَحِينَا وَلَا تُبْقِي حُمُورَ الْأَنْدَرِينَا	5- عمرو بن كلثوم التغلبي في الطبقة الثالثة عند ابن سلام. توفي في 52 قبل الهجرة.
عند الزوزني 81 بيتا وعند الشنقيطي 84 بيتا.	هَلْ غَادَرَ الشُّعْرَاءُ مِنْ مُتَرَجِّمٍ أَمْ هَلْ عَرَفَتِ الدَّارَ بَعْدَ تَوَهُّمٍ	6- عنتره بن عمرو بن شداد العبسي. جعله ابن سلام في الطبقة السادسة. توفي في 22 قبل الهجرة.
عند الزوزني 82 وعند الشنقيطي 84	أَدْنَتْنَا بَيْنَهَا أَسْمَاءُ رُبَّ ثَاوٍ يُمَلُّ مِنْهُ النَّوَاءُ	7- الحارث بن حلزة اليشكري هو في الطبقة السادسة في طبقات الفحول. توفي في 52 قبل الهجرة.
64 بيتا عند الشنقيطي	وَدَّعْ هُرَيْرَةَ إِنَّ الرِّكَبَ مُرْتَحِلٌ وَهَلْ تُطِيقُ وَدَاعاً أَيُّهَا الرِّجُلُ	8- الأعشى ميمون بن قيس وكانوايسمونه صنّاجة العرب لجودة شعره. وهو في الطبقة الأولى. توفي في 7 قبل الهجرة.
49 بيتا عند الشنقيطي.	يَا دَارَ مَنِيَّةَ بِالْعَلْيَاءِ فَالَسَنْدِ أَقْوَتَ وَطَالَ عَلَيَّهَا سَالِفُ الْأَبْدِ	9- النابغة الذبياني واسمه زياد بن عمرو بن معاوية بن ضباب.... ولقب النابغة لأنه كبر ولم يقل الشعر فنبيخ فيه بغتة. وهو في الطبقة الأولى من الفحول. توفي في 18 قبل

		الهجرة.
48 بيتا عند الشنقيطي	أَفْقَرَ مِنْ أَهْلِهِ مَلْحُوبٌ قَالَتْطَبَّيَاتٌ قَالَذَنُوبٌ	10- عبيد بن الأبرص وهو في الطبقة الرابعة من الفحول. توفي في 17 قبل الهجرة.

3. موضوعات المعلقات:

رأينا في انتقاء النماذج من المعلقات أن تمثل بها عن مراحل الشعر الجاهلي:

- الطبع والتلقائية والصنعة والاحتراف.

- الطبع والتلقائية؛ وتمثل المرحلة الأولى في الشعر الجاهلي-في القصيدة- ووصفها بالطبع والتلقائية هو الوصف الفني في حين أنها تتعدد تاريخيا بمرحلة ما قبل الاحتراف¹⁴، وتمثل لها بنموذجي امرئ القيس وطرفة بن العبد:

3.1. معلقة امرئ القيس¹⁵:

معلقة امرئ القيسأولى المعلقات وأشهرها، وقد أتى ترتيبها كما بيّناه سابقا، وذكر الزوزني - وغيره قصة المعلقة أو لنقل المناسبة التي قيلت فيها المعلقة، وتلخصت في حادثة دارة جلجل المشهورة التي جمعت الشاعر مع عنيزة ابنة عمّه وفتيات من القبيلة حيث تحينّ ظهور الفتيات في الغدير و"انغمس في الماء"أخذ ثيابهن وأبى عليهن إلا أن يخرجن عاريات لأخذها، ففعلن ذلك ثم قلن

¹⁴- سيد حنفي حسنين: الشعر الجاهلي مراحل واتجاهاته الفنيّة، ص38.

¹⁵- لكثرة الدراسات التي تناولت التعريف بالشاعر قديما وحديثا نورد ما جاء في معجم تراجم الشعراء الكبير تأليف وإعداد يحيى مراد، دار الحديث القاهرة، 2006، ص280. (امرؤ القيس 130-80ق.هـ/ 396-544م).

امرؤ القيس بن حجر بن الحارث الكندي: شاعر جاهلي، أشهر شعراء العرب على الإطلاق يمانى الأصل، مولده بنجد، كان أبوه ملك أسد (قبيلة أسد) وغطفان، وأمّه أخت مهلهل الشاعر. قال الشعر وهو غلام، وجعل يشيب ويلهو ويعاشر صعاليك العرب، فبلغ ذلك أباه فنهاه عن سيرته ولم ينته، فأبعده إلى حضر موت موطن أبيه وعشيرته وهو في نحو العشرين من عمره. أقام زهاء خمس سنين ثم جعل ينتقل مع أصحابه في أحياء العرب يشرب ويطرب ويغزو ويلهو إلى أن ثار بنو أسد على أبيه فقتلوه، فبلغه ذلك وهو جالس للشراب فقال: "رحم الله أبي، ضيّعني صغيرا وحملني دمه كبيرا، لا صحو اليوم ولا سكر غدا، اليوم خمر وغدا أمر". ونهض من غده فلم يزل حتى ثار لأبيه من بني أسد...".

له: "قد جوعتنا وأخرتتنا عن الحيّ فقال لهن: لو عقرت راحلتي لكن: أتأكلن: قلن نعم، فعقر راحلته ونحرها...." وعند عودتهم إلى الحيّ لم يجد راحلة يعود عليها فركب هودج ابنة عمّه فجعل يدخل رأسه في الهودج ويقبلها، وقد ذكر هذا في المعلقة¹⁶. ونود أن نشير أنّ هذه القصة في مناسبة قول القصيدة فيها كثير من النقاط التي تثير التساؤل عن مدى صحتها.

توزعت القصيدة على ما تجاوز الثمانين بيتا وفق الموضوعات الآتية:

1- المطع والمقدمة الطلية:

من البيت الأول إلى البيت السادس:

قَفَا نَبْكَ مِنْ نِكْرِي حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ بَسِطِ اللَّوَى بَيْنَ الدُّحُولِ فَحَوْمَلِ

إلى:

وَأَنَّ شَفَائِي عَبْرَةَ مَهْرَاقَةٍ فَهَلْ عِنْدَ رَسْمِ دَارِسٍ مِنْ مُعَوَّلِ

وقد أضاف بدوي طبانة الأبيات الثلاثة التالية إلى المقدمة الطلية.

2- الغزل:

ومقطوعة الغزل هي أطول أغراض المعلقة وفيها عرّج على تذكر مغامراته في صباه وقد حملها معاناته ومشاعره، وتمثلت في:

من البيت:

كَدُّ أَبِكَ مِنْ أُمِّ الحَوَيْرِثِ قَبْلَهَا وَجَارَتِهَا أُمُّ الرِّبَابِ بِمَأْسَلِ

إلى قوله:

أَلَا رَبِّ حَصْمٍ فِيكَ أَلْوَى رَدَدْتُهُ نَصِيحٍ عَلَى تَعْدَالِهِ غَيْرِ مُؤْتَلِ

وذكر فيها مغامراته الآتية:

مع أم الحويرث وأم الرباب:

كَدُّ أَبِكَ مِنْ أُمِّ الحَوَيْرِثِ قَبْلَهَا وَجَارَتِهَا أُمُّ الرِّبَابِ بِمَأْسَلِ

دائرة جلل:

¹⁶ - الزوزني: شرح المعلقات السبع، ص.ص. 5-6.

وَلَا سَيِّمَا يَوْمَ بَدَارَةِ حُلُجْلِ

أَلَا رَبُّ يَوْمٍ لَكَ مِنْهُنَّ صَالِحٍ

قصة الحبلى:

فَأَلْهَيْتُهَا عَنْ ذِي تَمَائِمٍ مَحْوَلٍ

فَمَثَلِكِ حُبْلَى قَدْ طَرُقْتُ وَمُرْضِعٍ

فاطمة:

وَإِنْ كُنْتُ قَدْ أَرَمَعْتُ صَرْمِي فَأَجْمَلِي

أَفَاطِمُ مَهْلًا بَعْضَ هَذَا التَّنَلِّ

بيضة الخدر:

تَمَتَّعْتُ مِنْ لَهْوِ بِهَا عَيْرٍ مُعْجَلٍ

وَبَيْضَةِ خَدْرٍ لَا يُرَامُ خِبَاؤُهَا

3- الوصف:

والوصف هو التحلية وهو باعتباره غرضاً شعرياً "تصوير المظاهر الطبيعية بصورة واضحة التقاسيم وتلوين الآثار الإنسانية وأكوان كاشفة عن الجمال وتحليل المشاعر الإنسانية تحليلاً يصل إلى الأعماق، إلى غير تلك هاتيك العناصر التي قد تحتاج إلى وصفها إلى ذوق فني"¹⁷. وقد عكست معلقة امرئ القيس هذا المعنى الأولي لتحديد الغرض الشعري، وفضلاً عن ذلك فقد اندرج تحتها نوعا الوصف للطبيعة المتحركة والصامتة، علماً أننا لا يمكن أن نتجاوز اعتبار الأطلال والغزل وصفاً، ولهذا السبب قيل إن الشعر وصف.

أما عن موضوعات الوصف في المعلقة فهي:

وصف الليل:

عَلَيَّ بِأَنْوَاعِ الْهَمُومِ لَيْبَتَلِي

وَلَيْلِ كَمَوْجِ الْبَحْرِ أَرْخَى سَدُولَهُ

إلى غاية:

بِكَلِّ مَغَارِ الْفَتْلِ شَدَّتْ بِيذْبِلِ

فِيَا لَكَ مِنْ لَيْلٍ كَأَنَّ نَجُومَهُ

وصف الذئب:

عَلَى كَاهِلِ مَنِي تُلُولِ مُرَحَّلِ

وَقَرِيْبَةٍ أَقْوَامٍ جَعَلَتْ عِصَامَهَا

¹⁷ - عبد العظيم علي قناوي: الوصف في الشعر العربي، ص 42.

إلى قوله:

وَمَنْ يَحْتَرِثُ حَرْثِي وَحَرْثَكَ يَهْزِلْ

كَلَانَا إِذَا مَا نَالَ شَيْئًا أَفَاتَهُ

وصف الفرس والصيد:

الفرس:

بمنجردٍ قيدِ الأوابدِ هيكلِ

وَقَدْ أَعْتَدِي وَالطَّيْرُ فِي وُكُنَائِهَا

إلى قوله:

عُصَارَةٌ حِنَاءٍ بِشَيْبٍ مُرَجَّلِ

كَأَنَّ دِمَاءَ الْهَادِيَاتِ بِنَحْرِهِ

الصيد:

عَذَارَى دَوَارٍ فِي الْمَلَأِ الْمُدْبِلِ

فَعَنَّ لَنَا سَرَبٌ كَأَنَّ نَعَاجَهُ

إلى قوله:

وَبَاتَ بَعِينِي قَائِمًا غَيْرَ مَرْسَلِ

وَبَاتَ عَلَيْهِ سَرْجُهُ وَلِجَامُهُ

وصف البرق والمطر:

كَلَمَعَ الْيَدَيْنِ فِي حَبِيٍّ مُكَلَّلِ

أَصَاحَ تَرَى بَرَقًا أُرِيكَ وَمِيضَهُ

إلى :

بَأَرْجَائِهِ الْقُصُوفِ أَنْابِيشُ عُنْضُلِ

كَأَنَّ سِبَاعًا فِيهِ غَرَقَى عَشِيَّةً

2.3. معلقة طرفة بن العبد.

1- التعريف به:

هو طرفة بن العبد بن سفيان بن سعد بن مالك بن ضبيعة بن ثعلبة بن عكابة بن صعب بن علي بن وائل -وطرفة- بالتحريك في الأصل واحد الطرفاء وهو الأثل وبها لقب واسمه عمرو. عدّه ابن سلام في الطبقة الرابعة وقرنه بعبيد بن الأبرص وعلقمة الفحل التميمي، وعدي بن زيد العبادي، قال: فأما طرفة فأشهرهم واحدة وهي قوله:

تَلُوحُ كَبَاقِيِ الْوَشْمِ فِي ظَاهِرِ النِّيدِ

لِحَوْلَةِ أَطْلَاقِ بُبْرِقَةٍ تَهْمَدِ

نشأ في بيت معروف بالشعراء، فالمتلمس خاله ومن عمومته المرقشان الأصغر والأكبر. وأخته الخرنق شاعرة. كان معروفاً بذكائه الخارق: حضر يوماً مجلس عمرو بن هند فأشد المسيب بن علس قصيدته التي يقول فيها:

وَقَدْ أَتَنَاسَى الْهَمَّ عِنْدَ إِحْتِضَارِهِ بِنَاجٍ عَلَيْهِ الصَّيْعِرِيَّةُ مُكَدَّمِ

فقال طرفة: استنوق الجمل وذلك أنّ الصيعيرية من سمات النوق دون الفحول فغضب المسيب، وقال: من هذا الغلام؟ فقالوا: طرفة بن العبد، فقال: ليقتلنه لسانه؛ فكان كما فرس فيه.

2- المعلقة:

"والمعلقة أجود ما نظم طرفة، وتعد عند كثير من النقاد أفضل الشعر الجاهلي ويغلو بعضهم فيجعلها أفضله على الإطلاق، وحجته صدق الشاعر في التعبير عن تجاربه وعمق آرائه ونظراته في الحياة والموت وجمال صياغتها، وسهولة لغتها. لكن طه حسين شك في نسبة قطعة منها إلى طرفة وهي الأبيات التي يصف فيها الشاعر الناقة لما في الأبيات من غريب الألفاظ وذهب إلى أنّ الذين كانوا يتخذون العلم والتعلم هم الذين أضافوا وصف الناقة".

عدد أبيات المعلقة: 105 بيتاً توزعت كالاتي:

1) من البيت الأول إلى البيت الخامس بدأ بوصف الطلل وانتهى إلى موكب الارتحال:

لِحَوْلَةِ أَطْلَالٍ بِبُرْقَةِ نَهْمٍ تَلُوْحُ كَبَاقِي الْوَشْمِ فِي ظَاهِرِ الْيَدِ
وُقُوفاً بِهَا صَحْبِي عَلَيَّ مَطِيئُهُمْ يَقُولُونَ لَا تَهْلِكِ أَسَى وَتَجَدِّدِ
كَأَنَّ حُدُوجَ الْمَالِكِيَّةِ غُدُوَّةٌ خَلَايَا سَفِينٍ بِالنَّوَاصِفِ مِنْ دَدِ
عَدُولِيَّةٌ أَوْ مِنْ سَفِينِ ابْنِ يَامِنِ يَجُورُ بِهَا الْمَلَاْحُ طَوْرًا وَيَهْتَدِي
يَشُقُّ حَبَابَ الْمَاءِ حَيَزُومَهَا بِهَا كَمَا قَسَمَ التُّرْبَ الْمُفَايِلُ بِالْيَدِ

2) ذكر الحبيبة في الأبيات الممتدة من البيت السادس إلى البيت العاشر:

البيت السادس:

وَفِي الْحَيِّ أَحْوَى يَنْفُضُ الْمَرَدَ شَادِنٌ مُظَاهِرٌ سِمَطِي لُؤْلُؤٍ وَزَبْرَجِدِ

البيت العاشر:

وَوَجْهَةٌ كَأَنَّ الشَّمْسَ حَلَّتْ رِءَاها عَلَيْهِ تَقِيَّ اللَّوْنِ لَمْ يَتَّخَذْ

3) خرج بعدها إلى وصف الناقة في ثلاثة وثلاثين بيتاً:

من:

وَإِنِّي لَأَمْضِي إِلَيْهِمْ عِنْدَ احْتِضَارِهِ بِعَوْجَاءِ مِرْقَالٍ تَرُوحُ وَتَعْتَدِي

إلى:

وَجَاشَتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ خَوْفًا وَخَالَهُ مُصَابًا وَلَوْ أَمْسَى عَلَى غَيْرِ مَرَصِدٍ

(4) فضلا عن غرض الوصف اشتملت المعلقة على غرض الافتخار الذاتي جاء في تسعة

وثلاثين بيتا:

من:

إِذَا الْقَوْمُ قَالُوا مَنْ قَتَلْتَنِي خِلْتُ أَنَّي عُنَيْتُ فَلَمْ أَكْسَلْ وَلَمْ أَتَبَدَّدْ

إلى:

وَبَرَكَ هُجُودٍ قَدْ أَثَارَتْ مَخَافَتِي بَوَادِيهَا أَمْشِي بِعَضْبٍ مُجَرَّدٍ

(5) وتعرض إلى:

1- المسرف والممسك.

2- الموت والأيام.

3- موقف ابن عمه منه.

3.3. معلقة زهير: مذهب الصنعة والاحتراف

1- التعريف به:

هو زهير بن أبي سلمى، واسم أبي سلمى ربيعة بن رياح المزني من مزينة.... كانت محلتهم في بلاد غطفان. وهو أحد الشعراء المتقدمين بالاتفاق، واختلفوا في تعيين أيهم أشعر وهم: امرؤ القيس؛ وزهير؛ والتابغة الذبياني.

كان زهير حكيما في شعره ومن ذلك ما جاء في المعلقة قوله:

وَمَهْمَا تَكُنْ عِنْدَ امْرَأٍ مِنْ خَلِيقَةٍ وَإِنْ خَالَهَا تَخْفَى عَلَى النَّاسِ تُعَلِّمُ

وشبه امرأة بثلاثة أوصاف في بيت واحد فقال:

تَنَارَعَهَا الْمَهَا شَبَهَا وَدُرُّ الـ نُحُورٍ وَشَاكَهَتْ فِيهَا الظِّبَاءُ

وروى "البحور" موضع "النحور" و"شابهت" موضع "شاكهت" ثم قال ففسر:

فَأَمَّا مَا فُوقَ الْعِدِّ مِنْهَا فَمِنْ أَدْمَاءَ مَرْتَعُهَا الْخَلَاءُ
وَأَمَّا الْمُقْلَتَانِ فَمِنْ مَهَاتٍ وَلِلدَّرِّ الْمَلَاخَةُ وَالصَّفَاءُ

لزهير أربع قصائد عرفت بالحوليات وهي:

قِفْ بِالْدِيَارِ الَّتِي لَمْ يَعْفُهَا الْقَدَمُ بَلَى وَغَيْرَهَا الْأَرْوَاحُ وَالْدِيمُ
إِنَّ الْخَلِيطَ أَجَدَّ النَّبِينَ فَاِنْفَرَقَا وَعُلِقَ الْقَلْبُ مِنْ أَسْمَاءَ مَا عَلِقَا
بَانَ الْخَلِيطُ وَلَمْ يَأْوُوا لِمَنْ تَرَكَوَا وَرَوَّدوكَ إِشْتِيَاقًا أَيَّةَ سَلَكَوَا
لِمَنْ طَلَّ بِرَامَةً لَا يَرِيمُ عَفَا وَخَلَا لَهُ حُفْبٌ قَدِيمُ

2- السياق التاريخي:

جاء في ديوان زهير في معرض التقديم للمعلقة ما يلي: "كان هرم بن سنان والحارث بن عوف، وهما سيدان من سادات ذبيان، قد تدخلوا في إصلاح ذات البين بين عبس وذبيان ووقفا الحرب التي نشبت بينهما على أثر حرب داحس والغبراء، ودفعا من أموالها حقنا للدماء، ديّات القتلى الذين لم يؤخذ بثأرهم، فكانت ثلاث آلاف بعير. إلا أن حصين بن ضمضم أحد فرسان بني ذبيان تعيّب يوم الصلح، لأنّ ورد بن حابس العبسي كان قد قتل أخاه هرما قبل الصلح، وأقسم لا يغسل رأسه حتى يقتل قاتل أخيه أو رجلا من بني عبس ثمّ بني غالب، ولم يشأ أن يأخذ الدية أو يحضر الصلح لئلا يحمل عليه حياء، فعقد الصلح في غيابه.

واتفق أنّ رجلا من بني عبس نزل عنده بعد الصلح فسأله حصين: من أنت أيّها الرجل؟ فأجابه: عبسي. قال: من أيّ عبس؟ فلم يزل ينتسب له حتى انتسب إلى بني غالب، فقتله حصين. غير أنّ هرم بن سنان والحارث بن عوف تدارك خطر نشوب الحرب وخرق الصلح بين القبيلتين فأرسل الحارث إلى القبيلة مائة من الإبل وابنه فداء ودية؛ فقبلت القبيلة الإبل وأوقفوا سفك الدماء وأتموا الصلح. فقال زهير معلقته يمدح السيدين.

3- موضوعات المعلقة:

جاءت المعلقة وفق رواية التبريزي في تسعة وخمسين بيتا واثنين وستين بيتا وفق رواية الزوزني؛ ووردت في ثلاثة وستين بيتا عند الشنقيطي. عند الشنقيطي. تعددت فيها الأغراض -على مثال النموذج الجاهلي -فتحت بمقدمة طلبية، ثمّ عمد إلى وصف الرحلة و الهوداج؛ ليعرج على غرضه الأساس فتحدث في المديح والهجاء وختم بالحكمة.

(1) المقدمة الطللية وهي ستة أبيات؛ قال:

أَمِنْ أُمِّ أَوْفَى دِمْنَةً لَمْ تَكَلِّمْ بِحَوْمَانَةٍ الدُّرَاجِ فَالْمُنْتَلِّمْ
وَدَارَ لَهَا بِالرَّقَمَتَيْنِ كَأَنَّهَا مَرَجِعُ وَشَمٍ فِي نَوَاشِرِ مِعْصَمِ
بِهَا الْعَيْنُ وَالْأَرَامُ يَمْشِينَ خِلْفَةً وَأَطْلَاؤُهَا يَنْهَضْنَ مِنْ كُلِّ مَجْتَمِ
وَقَفْتُ بِهَا مِنْ بَعْدِ عِشْرِينَ حِجَّةً فَلَأَيًّا عَرَفْتُ الدَّارَ بَعْدَ التَّوَهُّمِ
أَثَافِي سَفْعاً فِي مُعَرَّسِ مِرْجَلِ وَتُؤَيًّا كَجِذْمِ الْحَوْضِ لَمْ يَتَثَلِّمْ
فَلَمَّا عَرَفْتُ الدَّارَ قُلْتُ لِزَيْبِهَا أَلَا عِمَّ صَبَاحاً أَيُّهَا الرِّبْعُ وَاسْلَمِ

(2) وصف الرحلة:

من قوله:

تَبَصَّرَ خَلِيلِي هَلْ تَرَى مِنْ ظَعَائِنِ تَحَمَّلَنَّ بِالْعَلْيَاءِ مِنْ فَوْقِ جُرْتُمِ
إِلَى قوله:

أَفَسَمْتُ بِالْبَيْتِ الَّذِي طَافَ حَوْلَهُ رِجَالٌ بَنَوْهُ مِنْ قُرَيْشٍ وَجُرْهُمِ
(3) المديح:

يبدأ من البيت:

يَمِيناً لِنِعَمِ السَّيِّدَانِ وَوَجِدْتُمَا عَلَى كُلِّ حَالٍ مِنْ سَحِيلٍ وَمُبْرَمِ
إِلَى البيت:

فَأَصْبَحَ يَجْرِي فِيهِمْ مِنْ تِلَادِكُمْ مَغَانِمُ شَتَّى مِنْ إِفَالِ الْمُزَنَّمِ

(4) الحديث عن الحرب: هجاؤها:

من البيت:

أَلَا أَبْلِغُ الْأَخْلَافَ عَنِّي رِسَالَةً وَذُبْيَانَ هَلْ أَقْسَمْتُكُمْ كُلَّ مُقْسَمِ
إِلَى قوله:

كِرَامٍ فَلَا ذُو الصَّغْنِ يُدْرِكُ تَبْلَهُ وَلَا الْجَارِمُ الْجَانِي عَلَيْهِمْ بِمُسْلَمِ

(5) الحكمة:

من البيت:

سَمِئْتُ تَكَالِيفَ الْحَيَاةِ وَمَنْ يَعِشُ ثَمَانِينَ حَوْلًا لَا أَبَا لَكَ يَسَامُ

إلى قوله:

سَأَلْنَا فَأَعْطَيْتُمْ وَعُدًّا فَعُدْتُمْ وَمَنْ أَكْثَرَ النَّسَالِ يَوْمًا سَيُحْرَمُ

4. الخصائص والبناء الخارجي:

لا شك أنّ اللافت إلى النظر في النماذج التي أوردنا هو تعدد السياقات التي قيلت فيها وقد كان هذا عاملاً أساسياً في تنوع أغراض المعلقات وتشابك موضوعاتها، فولد هذا المنحنى في القصيدة الجاهلية تنوعاً في الألفاظ والتراكيب والأساليب بصفة خاصة، ذلك أنّ الأمر فيها يعود إلى خصوصيات الشاعر في الاختيارات التي تتيحها له اللغة ومدى قدرتها على تمثيل تجربة الشاعر العاطفية الاجتماعية (الذاتية والقبلية) وسكبها في قالب فني وفق ما يلائم الغرض الشعري الذي فيه يبديع الشاعر، فاللغة الشعرية تختلف على ما تؤديه من المعاني والأغراض، فالألفاظ التي تصلح للوصف تختلف عن الألفاظ التي تصلح للفخر أو الصالحة للنسيب، ثم إنّ هذه اللغة تختلف من شاعر إلى شاعر على حسب طبيعة كلّ منهما وإمعانه في الحياة المتبدية أو قربه من الحياة المتحضرة، ففي طبيعة بعض الناس خشونة وفي حياتهم شظف، وهؤلاء لا تطاوعهم الألفاظ الرقيقة، كما أنّ في طبيعة بعضهم وفي حياتهم نعياً وترفاً، ولذلك رقت ألفاظهم وعذبت لغتهم طوعاً من غير تكلف أو استكراه¹⁸.

نضيف إلى هذه الخصائص بعض ما ورد في الخصائص المعنوية:

- 1- الوضوح والبساطة، فلم يتكلف الشاعر في تصوير حياته وانطلق من الواقع الذي يعيشه، وما بدا لنا صعباً غير مفهوم فمرّده إلى بعد العصر عنّا.
- 2- النزعة الحسية: وهي نزعة تولدت لدى الشاعر من طبيعة حياته المادية وشغفه بالتعبير عنه.

- 3- النمطية: تأتي نمطية المعاني من تأثير النزعة الحسية في الشعراء حتى جعلتهم يتناولون المعاني نفسها و"يدرون حول معان تكاد تكون واحدة، وكأنّما اصطلحوا على معاني بعينها"¹⁹.

¹⁸ - بدوي طبانة: معلقات العرب، ص346.

¹⁹ - شوقي ضيف: الشعر الجاهلي، دار المعارف، مصر، ط24، ص221.

4- الحركية: على الرغم من تداول المعاني وتكرارها فإنّ ميزة الشعر هي الحيوية فالشعراء "لم يعرضوا علينا معانيهم الحسيّة جامدة بحيث تنشر الملل في نفوسنا فقد أشاعوا فيها الحركة، وبذلك بثوا فيها كثيرا من الحيوية، وما من شك في أن هذه الحركة مشتقة من حياتهم التي لم تكن تعرف الثبات والاستقرار"²⁰. وقد نتج عنها بعض السمات:

• تعدد الأغراض: الانتقال من غرض إلى غرض ومن موضوع إلى موضوع في القصيدة الواحدة.

• الإيجاز.

• الحسّ القصصي.

1- تقديم مذهب الصنعة:

البناء الخارجي:

ترد القصائد الجاهلية على منوال واحد من البناء الخارجي، تنقسم من خلاله القصيدة إلى مقاطع شعرية متتالية، كثرت الدراسات عنها، كلّها متأثرة بما ورد عند ابن قتيبة²¹ في الشعر والشعراء حين عمد إلى تفسير الابتداء بالطلل أو الغزل ومن خلال جلي الشكل الخارجي العام للقصيدة الجاهلية وفق رؤية نفسية اجتماعية استلهمها من موضوعات القصائد ومعانيها، استوعبها قالب القصيدة:

- المقدمة وفيها بيت مطع:

- وصف الرحلة:

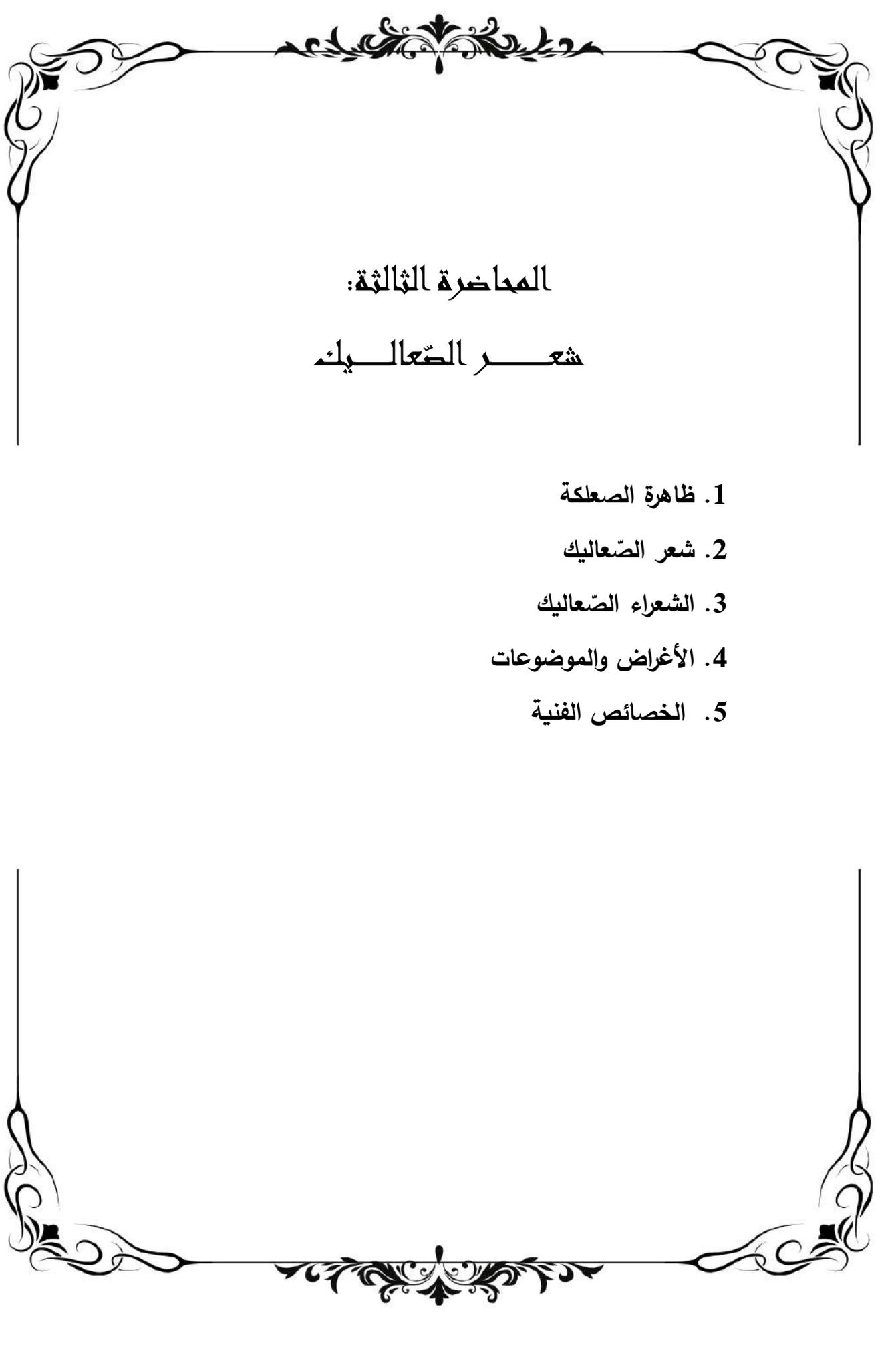
- الخروج إلى الغرض:

- بيت مقطع:

- ويجب أن نشير أنّ الدراسات قد أسهبت في تناول هذا البناء ممّا لا يسعنا ذكره هنا.

²⁰ - السابق، ص 223.

²¹ - ابن قتيبة: الشعر والشعراء، مطبعة ليدن، 1903، ص 14.



المحاضرة الثالثة:
شعر الصّعاليك

1. ظاهرة الصعلكة
2. شعر الصّعاليك
3. الشعراء الصّعاليك
4. الأغراض والموضوعات
5. الخصائص الفنية

المحاضرة الثالثة: شعر الصّعاليك

1. ظاهرة الصعلكة:

توثقت الصلة بين ظاهرة الذوبان في القبيلة وبين تمثيلها شعراً كرسّه أصحابه لخدمة الانتماء -وكأنهم يدفعون ضريبة-؛ ولما كان الشعر ذا حدين فقد صوّرت فئة من الشعراء واقعا مضادا لمبدأ الانصهار في الآخر والرضوخ له؛ تعيّنت في منظور النظام القبلي بأنها مجموعة خارجة عن الأعراف فوجب نبذها وسلبها حقّها في الانتساب. فتحددت العلاقات بين الطرفين بتحديد الموقع داخل القبيلة أو خارجها وبلغت أخرى بتحكيم الانتماء إلى القبيلة أم إلى الصعلكة، وقد رافق هذا الانفلات من أسر الانتماء من قيود القصيدة الجاهلية انفلات من نظام القول الذي يفرضه.

1.1. الصعلوك في اللغة:

جاء في معجم المقاييس: "صعل الصاد والعين واللام : أصيل يدّل على صغر وانجراد من ذلك: الصعل وهو الصغير الرأس من الرجال والنعيم"¹. وجاء في لسان العرب في مادة صعلك: "الصعلوك الفقير الذي لا مال له، زاد الأزهري: ولا اعتماد، وقد تصعلك الرجل إذا كان كذلك.... ورجل مصعلك الرأس: مدوّره، ورجل مصعلك الرأس: صغيره"²، وعلى هذا فإنّ المعنى الأوّلي للصعلكة هي الفقر والصغر وهي الميزة الأساسية للشعراء الصّعاليك؛ ولعلّ الزيادة التي أوردتها صاحب اللسان على لسان الأزهري تكشف عن رواية مهمّة في دلالة اللفظ ذلك أنّ الاعتماد على الشيء هو التوكؤ والالتكاء عليه، وعليه فإن الصعلوك هو الفقير إلى المال والفقير إلى السند المدّعم والعضد المعين في الحياة وعليها، وقد أجمل هذا المعنى الأوّل يوسف خليف في "الضمور والانجراد" وحدّد الصعلكة لغويا بأنها "الفقر الذي يجرد الإنسان من ماله ويظهره ضامرا هزيلا من أولئك الأغنياء المترفين الذين اتخمهم المال وسمنهم"³. وقد أضفى على ذات الصعلوك بعض الملامح مفسراً إضافة الأزهري "ولا اعتماد" وهو بذلك "الفقر الذي يواجه الحياة وحيداً، وقد جردته من وسائل العيش

¹- أحمد بن فارس: معجم مقاييس اللغة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 2008، ص543.

²- ابن منظور: لسان العرب: المجلد الخامس، دار الحديث القاهرة، ص2003، ص340.

³- يوسف خليف: الشعراء الصّعاليك في العصر الجاهلي، دار المعارف، د.ت، ص23.

وسلبته كل ما يستطيع أن يعتمد عليه في مواجهة مشكلاتها، فالمسألة ليست فقرا فحسب، ولكنها فقر يغلق أبواب الحياة في وجه صاحبه ويسد مسالكها أمامه⁴.

2.1. في الاصطلاح:

وقد شاعت هذه المادة لتصبح مصطلحا أدبيا امتلاً موضوعا وقتاً، وربما كان دافع ذلك فضلا عن الدلالة المعجمية الأولية ورود اللفظة في معجم الشعراء.

روى صاحب اللسان عند تعريفه للوحدة بيتا لحاتم الطائي يقول فيه:⁵

غَنَيْنَا زَمَانًا بِالتَّصْعُكِ وَالغِنَى فَكَلًّا سَقَانَاهُ بِكَاسِيهِمَا، الدَّهْرُ

فَمَا زَادَنَا بَغِيًّا عَلَى نَبِيِّ قَرَابَةٍ غِنَانًا، وَلَا أَزْرَى بِأَحْسَابِنَا الْفَقْرُ

كما وردت اللفظة صريحة "الصعاليك" لتدل على جماعة من الناس اجتمعوا على نظام حياة خاص، قال عمرو بن بركة:

تَقُولُ سُلَيْمِي لَا تَعْرُضْ لِنِثْفَةٍ وَأَيْلِكَ عَنِ لَيْلِ الصَّعَالِيكِ نَائِمٌ

وَكَيْفَ يَنَامُ اللَّيْلَ مَنْ جُلُّ مَالِهِ حُسَامٌ كَلُونِ الْمِلْحِ أَبْيَضُ صَارِمٌ

أَلَمْ تَعْلَمِي أَنَّ الصَّعَالِيكِ نَوْمُهُمْ قَلِيكٌ إِذَا نَامَ الْخَلِيُّ الْمُسَالِمُ

والشاعر هنا "يصور لنا يقظته فينفي عن نفسه نوم الليل ولكنه يعرف أنها ليست صفته وحده، وإنما هي صفة الصعاليك جميعا، ويعرف أيضا أن الناس جميعا يعلمون أن هذه صفة الصعاليك، لأنه إنما ينام الليل خليّ الببال والمسالم أمّا الصعاليكفليسوا خليّ الببال، وليسوا مسالمين، فلا عجب أن يكون نومهم قليلا"⁶. وقد استطاع يوسف خليف أن يستتق دلالة خفية من أبيات الشاعر فعلق عليها: "... وما سرّ المقابلة بين قلة نومهم ونوم الخليّ المسالم؟ وما دخل المسألة التي يتحدّث عنها الشاعر في حديث عن الفقر والغنى؟ من الواضح أنّ الصعاليك هنا ليسوا هم أولئك الفقراء المعدمين الذين يقنعون بفقرهم أو يستجدون الناس ما يستدون به رمقهم، وإنما هم أولئك المشاغبون

⁴ - السابق، ص 23.

⁵ - ابن منظور: لسان العرب، 340/5، 340/5.

⁶ - شريف راغب علاونة: عمرو بن بركة الهمداني من مخزومي الجاهلية والإسلام سيرته وشعره، دار المناهج للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، 2005، ص 32.

المغيرون أبناء الليل الذين يسهرون لياليهم في النّهب والسلب والإغارة بينما ينعم الخليّون المترفون المسالمون بالنّوم والرّاحة والهدوء"⁷. لقد ابتعدت دلالة اللفظة عن المعنى الأول فلم يعد الصعلوك هو الفقير، وقد عزز يوسف خليف هذا التوجه في إخراج الصعلكة من الدائرة اللغوية إلى دائرة المعنى الاجتماعي باعتقاد منه أنّ الشاعر امرأ القيس -كما تذكر كتب تاريخ الأدب- قد استعان بجماعة من الصّعاليك لاستعادة ملك أبيه على بني أسد، ونفى أن يكون الشاعر قد استعان بمجموعة من الفقراء، والرأي عنده أن الذين استعان بهم هم الفقراء تطوّرت حياتهم حتى لاءمت تشبيهم بالذئاب "ذؤبان العرب"⁸.

سند يوسف خليف إخراج الدلالة إلى الدائرة الاجتماعية ما نقله عن أبي زيد القرشي في الجمهرة: "الصعلوك الفقير، وهو أيضا المتجرّد للغارات" وأتبع "وهذا التعبير عن مفهوم المادة الاجتماعي بالمتجرّد للغارات يجعلنا نسجّل لهذا العالم المتقدم على أصحاب المعاجم التي بين أيدينا أنّه كان أدقّ من عرّف معنى الصعلوك"⁹. وعلى هذا الأساس فإن إضافة أبي زيد القرشي تضيء جانبا مهمّا في معنى المادة اللغوية حيث انتقل بها إلى مجال الحياة الاجتماعية. وهي حياة أقلّ ما يقال عنها إنّها مخالفة لحياة القبيلة. ومن هذا المنظور فإنّ الصعلكة تتوزع على دائرتين دلالتين: لغوية وهي المعنية بإيراد الفقر، واجتماعية تضم إليها كل معالم حياة التشرّد.

3.1. العوامل المؤثرة في ظهور الصعلكة وأصناف الصّعاليك:

تداخلت في تفسير الصعلكة ثلاثة عوامل: العامل الجغرافي والعامل الاقتصادي والعامل الاجتماعي؛ فقد تولّد عن التضاد الطبيعي الذي ميّز منطقة شبه الجزيرة العربية آثار وجهت حياة الصعلوك ودفعت به إلى الإغارة على مناطق الخصب فتركز نشاطه العدوانية فيها، وربّما تجرّأ الصّعاليك بعضهم على بعض إذا قلت المؤونة وهُدّدهم الموت جوعاً؛ وتأزر مع هذا الجانب الحياة الاقتصادية حيث إنّ الظرف الاقتصاديّ قائم على التجارة والزراعة وقد توقف مردودهما على النجاة من اعتداءات قطاع الطرق: الصّعاليك ومدى وفرة المياه، فكان ذلك أحد الأسباب المدّعمة للنظام القبلي

⁷ -يوسف خليف: الشعراء الصّعاليك، ص.ص. 24-25.

⁸ - نفسه، ص.25.

⁹ - نفسه، ص.28.

الطبقي وتمركز الأموال في فئة السادة وأبنائهم، وقد أدى هذا الوضع إلى تأكيد "الطبقية" باعتبارها معياراً اجتماعياً للتصنيف، وعليه فإن المجتمع الجاهلي يتكوّن من:

- 1- طبقة الصرحاء: وهم أبناء القبيلة الشرفاء الذين لم تختلط دماؤهم مع غيرهم.
- 2- طبقة العبيد: وهم أبناء الأسرى من العرب وغيرهم وهي الطبقة التي أنجبت الصّاعاليك، فقد رفض هؤلاء الاحتقار والذلّ والظلم وعدم الاعتراف بهم لأنّهم وضعهم سوداً فانتزعوا كرامة ذواتهم تمرّداً على النظام القبلي.
- 3- طبقة الموالي: وتتكوّن من العتقاء ومن العرب الأحرار اللاجئين إلى طلب حماية قبائل أخرى والاستجارة بها.

وقد نتج عن هذه البنية الاجتماعية ثلاثة أصناف من الصّاعاليك:

- 1- مثل الصنف الأوّل "الخلعاء والشذاذ الذين نبذتهم قبائلهم لما اقترفوا من جرائم مثل حاجز الأزدي، وقيس بن الحداية وأبي الطمّحان القبلي"¹⁰.
- 2- يوافق الصنف الثاني طبقة العبيد، ومنهم: السليك بن السلعة، الشنفرى الأزدي، تأبّط شراً، وسموا أغربة العرب لسوادهم.
- 3- أما الصنف الثالث ف"اتخذ الصلعة حرفة وصناعة، وهذه الصناعة قد تعمّ قبيلة كاملة مثل قبيلة بني هذيل، وقبيلة فهم، وقد تخصّ آحاداً كعروة بن الورد"¹¹.

2. شعر الصّاعاليك:

لقد أفرزت الظاهرة إنتاجاً شعرياً اتصف بتميزاً له عن الشعر الرسمي بأنّه شعر الصّاعاليك، وبأنّ أصحابه هم الشعراء الصّاعاليك، مثل من الناحية الفنيّة اتّجاه الطبع والتلقائية، فتميّز بعفوية التعبير عن الوجدان والإخلاص في تمثيل نمط الحياة البديلة فبرزت فيه سمة الاختلاف والفردية، وقد فكّث وثاق الالتزام بشعر القبيلة موضوعاً وفناً غير أنّ معظم هذا الشعر ضاع، فقالت مادته وقلّ عدد الشعراء فيه، وتحدّدت مصادره في:

¹⁰ - غازي طليّعات: عرفات الأشقر: الأدب الجاهلي: قضاياها، أغراضها، أعلامها، فنونها، دار الفكر، دمشق،

ط5، 2011، ص268.

¹¹ - نفسه، ص268.

"1- كتب الثقافة العربية المختلفة من كتب أو طبقات أو لغة، وهي محدودة بأذواق أصحابها في الاختيار وفي الهدف منه؛ ولم تكن تعنى بغير المشاهير....

2- كتب المختارات الشعري كالمفضليات والأصمعيات، وهي أيضا لا تروي إلا النماذج التي يعتقد جامعها أنّ لها صدى فنيا بين نقاد عصره....

3- والمصدر الأخير الدواوين التي جمعت نسبة من شعر أصحابها ولم يصل إلينا منها إلا ديوانان أحدهما لعروة بن الورد والآخر للشنفرى¹².

3. الشعراء الصّعاليك:

1.3. عروة بن الورد:

أورد صاحب الأغاني أخباراً عديدة عن عروة نقتطف بعضها: قال: "عروة بن الورد بن زيد، وقيل عمرو بن زيد بن عبد الله بن ناشب بن هريم.... ابن قيس بن عيلان بن مضر بن نزار، شاعر من شعراء الجاهلية وفارس من فرسانها وصلوك من صعاليكها المعدودين المقدمين، وكان يلقب عروة الصّعاليك لجمعه إيّاهم وقيامه بأمرهم إذا أخفقوا في غزواتهم ولم يكن لهم معاش ولا مغزى، وقيل بل لقب بعروة الصّعاليك، لقوله:

لَحَى اللهُ صُـلُوكًا إِذَا جَنَّ لَيْلُهُ	مُصَافِي المَشَاشِ أَلْفًا كُلَّ مَجَزِرِ
يُعَدُّ الغِنَى مِنْ نَفْسِهِ كُلَّ لَيْلَةٍ	أَصَابَ قِرَاهَا مِنْ صَدِيقٍ مُنَيَّرِ
وَللهِ صُـلُوكٌ، صَفِيحَةٌ وَجْهَهُ	كضوءِ شهابِ القابِسِ المَتَنَوَّرِ ¹³

وأضاف جورجى زيدان عن جملة الأخبار التي نقلها عن الأصفهاني انه توفي سنة 596م، وأنّ له ديوان شعر طبع في "غوتنجن" سنة 1864م مع ترجمة ألمانية وشروح لنولدكي وطبع أيضا

¹² - سيد حنفي حسنين: الشعر الجاهلي مراحلہ واتجاهاته الفنية، "دراسة نصية"، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، 1971، ص92.

¹³ - الأصفهاني، الاغانى، الجزء الثاني، تقديم محمد حسنين الأعرجي، موفم للنشر، 1992، ص799.

في بيروت، وله أشعار متفرقة في الأغاني 190 ج² والشعر والشعراء 425 وشعراء النصرانية 883 والجمهرة 114¹⁴.

2.3. الشنفرى:

ونكر في أخبار الشنفرى ونسبه:

"كان من الأواس بن الحجر...أسرته بنو شباة بن فهم بن عمرو بن قيس بن عيلان فلم يزل فيهم حتى أسرته بنو سلامان.... قال: فكان الشنفرى في بني سلامان بن مقرج لا تحسبه إلا أحدهم حتى نازعته بنت الرجل الذي كان في حجره وكان السلامي اتخذه ولدا وأحسن إليه وأعطاه فقال لها الشنفرى: اغسلي رأسي يا أختي (وهو لا يشك أنها أخته) فأنكرت أن يكون أباها فلطمته، فذهب مغاضبا حتى أتى الذي اشتراه من فهم فقال له الشنفرى: أصدقني من أنا؟ قال: أنا من الأواس بن الحجر، فقال: ما إنني لم أدعكم أقتل منكم مائة بما استعبدتموني"¹⁵.
وروى أنه حين فتكت به جماعة وكبلته لقتله وطلبوا منهم أن ينشدهم شعرا، قال: "أما النشيد للمسرة" فذهبت مثلا، وسألوه أين نقبرك فقال:

فَلَا تَقْبُرُونِي إِنَّ قَبْرِي مُحَرَّمٌ عَلَيْنِمْ وَلَكِنْ خَامِرِي أُمُّ عَامِرٍ
إِذَا احْتَمَلْتُ رَأْسِي فِي الرَّأْسِ أَكْثَرِي وَعُودِرَ عِنْدَ الْمُتَنَقِّي تَمَّ سَائِرِي
هِنَاكَ لَا أَرْجُو حَيَاةَ تَسْرُنِي سَمِيرَ اللَّيَالِي مُبَسَّلًا بِالْحَرَائِرِ¹⁶

والذي نشير إليه أن الأصفهاني لم يذكر لاميته المشهورة وذكر التائية التي مطلعها:

أَلَا أُمُّ عَمْرٍو أَجْمَعَتْ فَاسْتَقَلَّتْ وَمَا وَدَّعَتْ حَيْرَانَهَا إِذْ تَوَلَّتْ

وقد ذكر اللامية جورجى زيدان.

¹⁴ - جورجى زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية، الجزء الأول، تقديم إبراهيم صحراوي، موفم للنشر، 1993،

¹⁵ - الأصفهاني: الأغاني، 7427/15.

¹⁶ - نفسه، 7430-7429/15.

3.3. تأبّطشراً:

وأورد في أخبار تأبّط شراً أحداث كثيرة تقتصر فيها على نسبه ولقبه: "هو ثابت بن جابر بن سفيان بن عميثل بن عدّي بن كعب بن حزن -وقيل حرب- بن تميم بن فهم بن عمرو بن قيس عيلان بن مضر بن نزار. وأمّه امرأة يقال لها أميمة، يقال: إنها من بني القين بطن من فهم، ولدت خمسة نفر: تأبّط شراً، وریش بن لغب، وریش نسر، وكعب جدر، ولا بواكي له، وقيلت إنما ولدت سادسا واسمه عمرو. وتأبّط شراً لقب لُقّب به"¹⁷، وذكر روايات مختلفة في سبب تلقيبه بتأبّط شراً¹⁸.

4.3. السليك بن سلكة:

"هو السليك بن عمرو، وقيل ابن عمير بن يثربي أحد بني مقاعس وهو الحارث بن عمرو بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم. والسُّلْكَة أمّه، وهي أمة سوداء، وهو أحد صعاليك العرب العدائين الذين كانوا لا يلحقون ولا تعلق بهم الخيل إذا عدوا وهم السليك بن السُّلْكَة والشنفرى وتأبّط شراً وعمرو بن براق ونفيل بن براق"¹⁹.

4. الأغراض والموضوعات:

1.4. الأغراض:

على الرغم من انفلات الصّعاليك عن تقاليد الحياة القبلية وأنظمتها وعلى الرغم من تميّز شعرهم بميزة "المقطوعة-كما سنرى- فإننا نعتز على ملامح الأغراض الشعرية القبلية عندهم، جاءت متناثرة في مقطوعاتهم فرضها على الصعلوك الظرف المعيشي الذي وجد نفسه فيه، وقد انتابته رغبة في لفظ مكنون مشاعره اتجاه ما هو متفاعل معه، فسكب وجدانيته في القوالب الجاهزة لديه:

• الفخر: لا يقل الفخر أهمية عند الصّعاليك إذ هو ديوان البطولة والمغامرات خاصة أن حياتهم قامت على قيم خلقية تغنوا بها وكان حقيقا عليهم أن يتباهوا بها أمام النظام القبلي، خاصة

¹⁷ - السابق، 7387/15.

¹⁸ - نفسه، 7387/15.

¹⁹ - 7217/15.

أنهم كانوا يعتقدون أنفسهم أقوى الناس وأشجعهم، ومن ثمّ جاء افتخارهم بالصلعة التي طبعت حياتهم والكرم وإغاثة الفقير والمحتاج وغيرها من المحامد.

• المديح: ميزة المديح في شعر الصّعاليك أنّه موقوف عليهم لم يخرج عن دائرتهم فلم يتجاوز الرفاق والأصحاب المنتمين إليهم.

• الرثاء: وهو أيضا غرض ماثوث في شعرهم فرباطهم الاجتماعي متين، تدّعه الصّحبة والصدّاقة، لذا فإنّ فقدان أحد الصّعاليك فاجعة لهم، فهو لا يعوّض، ومن ثمّ كان رثاؤه تخليدا لمحامده ومناقبه وتخليدا لمآثرهم جميعا.

• الهجاء: لا نعثر على هجاء كثير عند الصّعاليك، وما توفّر منه إنّما هو خاص بدائرة الصّلعّة كذلك، وربّما هجى بعض المطرودين من قبائلهم تمرّدا عليها. وميزة هذا الهجاء-في دائرة الصّلعّة- أنّه نشأ من صلب حياتهم اليومية والقيم التي انتظمت عليها حياتها فهجوا الصّلعوك الخامل الذي يرضى بالعيش الذليل والقوت الزهيد...

• الغزل: الشائع في غزل الصّعاليك أنّه اقتصر على الزوجات، ولعلّ أشهر ما روي في غزلهم هو مقدّمة الشنفرى في تائيته الشهيرة:

أَلَا أُمُّ عَمْرُو أَجْمَعَتْ فَاسْتَقَلَّتْ وَمَا وَدَّعَتْ جِيرَانَهَا إِذْ تَوَلَّتْ²⁰

"وهي مقدّمة طويلة تمتد إلى أربعة عشر بيتا وهي مقدّمة غزلية ولكنها فريدة في الشعر الجاهلي، ولعلّها المقدّمة الوحيدة فيه التي تتناول الجوانب المعنوية من جمال المرأة... وهي مقدّمة ترسم صورة مثالية للمرأة العربية في حياتها الزوجية"²¹.

2.4. موضوعات الشعر:

أمّا عن موضوعات شعرهم فإنّ المعوّل عليهم في التطرق إليها هي الركون إلى الاعتراف بأثر حياة الصّلعّة الاجتماعية والاقتصادية في الحياة الأدبية، فلا نجد لهم قصائد انبنت البناء الرسمي

²⁰ - ديوان الشنفرى: جمعه وحققه إميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، بيروت، ط2، 1996، ص31.

²¹ - مي يوسف خليف: القصيدة الجاهلية في المفضليات، دراسة موضوعية وفنية، مكتبة غريب، د.ت،

الذي التزم به الشعراء القليلون ونظموا قصائدهم عليه غير أن هذا لا ينفي أن الرواة جمعوا لهم بعض القصائد الطوال، وإن كانت قليلة قياساً إلى المقطوعات ففقدنقل عن المفضل الضبّي - كما ورد عند ميّ يوسف خليف- أنه روى قصيدتين طويلتين من شعرهم إحداها لتأبط شراً وهي القصيدة التي افتتح بها مجموعة الشعرية المختارة والثانية للشنفرى: قالت: "والقصيدتان من أطول القصائد التي احتفظ بها الرواة من شعر الصّعاليك فالأولى في ستة وعشرين بيتاً والأخرى في ستة وثلاثين، وهما ترسمان صورة صادقة لحياة الصّعاليك في بعض جوانبها، وتقدّمان نموذجاً للشخصية المتمردة التي عرف بها هؤلاء الصّعاليك والتي يمثلها هذان الشاعران أقوى تمثيل"22.

ويجب أن نضيف إلى هاتين اللامية-وهي أشهر قصائد الصّعاليك- وقد اختلف الدارسون في نسبتها إلى الشنفرى، فذهب يوسف خليف إلى إنكارها مؤكداً أنها من وضع خلف الأحمر وساق في ذلك عدداً من الأسباب:

- 1- "براعة خلف الأحمر في الوضع ونحل الشعر...".
- 2- "ترجيح يوسف خليف رواية ابن دريد التي اعتمد عليها المستشرق كرنكو وكذلك تميمه لنص القالي البغدادي في كتابه الأمالي، ومرد ذلك أن ابن دريد كان قريب العهد من الأحمر".
- 3- "إغفال ذكر اللامية في كتاب الأغاني... يضاف إلى ذلك ابن منظور الذي لم يستشهد بها ولم يذكرها في لسان العرب".
- 4- "طول لامية العرب التي بلغ عدد أبياتها ثمانية وستين بيتاً...".
- 5- "قلة الاضطراب في رواية أبيات لامية العرب، وكذلك ألفاظها وفي ترتيب أبياتها وهي ظاهرة كما يرى يوسف خليف -غير مألوفة في شعر... الصّعاليك...".
- 6- "ندرة أسماء الأماكن والأسماء"23.

22- السابق، ص114.

23- حرشايوي جمال: الخصائص الأسلوبية في شعر الصّعاليك، أطروحة لنيل شهادة دكتوراه في الأدب العربي، جامعة وهران، كلية الآداب والفنون، قسم اللغة العربية وآدابها، 2015-2016، ص.ص. 103-104.

وقد ردّ هذا الرأي مجموعة من الدارسين نذكر منهم عبد الحليم حفني وقد تناول جملة الأسباب المذكورة أعلاه بالمناقشة وردّ عليها مؤكداً نسبتها للشنفرى²⁴.

أمّا من الموضوعات التي أثارها الشاعران في القصيدتين-ماعدا اللامية لأنها النموذج التطبيقي- فهي:

1- في قصيدة تأبّط شرّاً: ومطلعها:

يا عيدُ ما لكِ من شوقٍ وإيراقٍ ومَرَّ طَيْفٍ على الأهوالِ طَرّاقٍ²⁵

وقد توزعت القصيدة بعد المقدّمة على أربعة محاور ذكرتها مي يوسف خليف: وفي المقدمة تصوير لحياة الصعلكة، جاءت سريعة عاكسة لسرعة الحياة عندهم، ذلك أنهم حرموا الفائض من الوقت للهو والغزل وأرهقهم التشرد والنهب، فخصصها الشاعر للحديث عن طيف المرأة فأضفى عليه صفات "تعد في حقيقة أمرها انعكاساً لصفاته هو، من اقتحام الأهوال وجراءة على أخطار الصحراء واعتماد على رجله"²⁶. قال بعد البيت الأول متما صورة الطيف، ومتخلصاً منها إلى موضوعه الأساس: الفرار من قبيلة بجيلة:

يَسْرِي عَلَى الْأَيْنِ وَالْحَيَاتِ مُحْتَفِيًّا نَفْسِي فِدَاؤُكَ مِنْ سَارٍ عَلَى سَاقٍ
إِنِّي إِذَا حُلَّةٌ صَنَنْتُ بِنَائِلِهَا وَأَمْسَكْتَ بِضَعِيفِ الْوَصْلِ أَحْذَاقٍ
نَجَوْتُ مِنْهَا نَجَائِي مِنْ بَجِيلَةَ إِذِ أَلْقَيْتُ لَيْلَةَ حَبِيبِ الرَّهْطِ أَرْوَاقٍ²⁷

• المحور الأول: وقد خصّ للافتخار الذاتي ومسابقته سرعة/ عدو الحيوانات: الظليم والظبية والفرس والعقاب.

²⁴- عبد الحليم حفني: شعر الصّعاليك منهجه وخصائصه، الهيئة المصرية للكتاب، 1987، ص.ص. 161-178.

²⁵- ديوان تأبّط شرّاً وأخباره، جمع وتحقيق وشرح علي ذو الفقار شاكر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1999، ص371.

²⁶- مي يوسف خليف: ص115.

²⁷- الديوان: ص.ص. 376-381.

• المحور الثاني: "وفيه يرسم الصورة المثالية التي يراها للرجل الذي يستحق أن يبكى عليه؛ وتشمل الصورة الجانبين المعنوي والحشي، فالمواصفات المعنوية المرغوب فيها هي: بصير بكسب الحمد؛ سباق إلى المجد، يأمر وينهى رفاقه، قائد يحمل لواء الحرب، سيد يشهد الندى؛ خطيب، جريء، أما الحسية فهي: علو الصوت، خفة اللحم؛ ظهور عروق الذراعين، سرعة الحركة، شدة المقاتلة²⁸.

• المحور الثالث: وفيه يرجع إلى الافتخار بحياة الصعلكة وتأتي صورة المرقبة (والمراقب أحد موضوعات الصّعاليك) "تعبيراً عن حياة الفقر والتشرد التي خرجوا من أجل الانتصار عليها ورمزا للمعاناة التي كانوا يقيسون منها"²⁹.

• المحور الرابع: يصل الشاعر إلى موضوع آخر من الافتخار: وهو الكرم في أرقى درجاته التي تصل إلى الإسراف فينتقل "حوارًا بينه وبين صاحب له يلومه لوما عنيفا على إسرافه الذي اهلك ماله، وانتهى به إلى هذا المصير الذي لا يحسد عليه، ويقف هو موقف المدافع الذي يحاول فلسفة مذهبه في الحياة...."³⁰.

واعتبارا من جملة المحاور التي تناولتها مي يوسف خليف فإن الغرض الأساس الذي مثّله القصيدة هو غرض الفخر بحياة الصّعلكة.

2- تائية الشنفرى: جاء في شرح القصيدة في الديوان "روى أنالشنفرى قدم منى وبها حزام بن جابر، فقيل له: هذا قاتل أبيك، فشدّ عليه فقتله ثم سبق الناس على رجليه ثم قال هذه القصيدة أو بعضا منها" وقد تناسب هذا السياق مع المحور الثالث في موضوعات القصيدة. والقصيدة على منوال شعر القبيلة حيث افتتحت بمقدمة طلبية - كما أسلفنا القول - وفيها أسدل مجموعة من الخصال المثالية على المرأة. وقد استهلّ الحديث فيها بذكر الرّحيل على عادة الجاهليين ثم خرج إلى الحسرة والتأسّف على المرأة وأتبع ذلك بذكر الأوصاف الجلييلة التي نسبها إليها: ومن أبياتها:

أَلَا أُمُّ عَمْرٍو أَجْمَعَتِ فَاِسْتَقَلَّتِ
وَمَا وَدَّعَتِ جِيرَانَهَا إِذْ تَوَلَّتِ

²⁸- مي يوسف خليف، ص116.

²⁹- نفسه، ص117.

³⁰- نفسه، ص117.

وَقَدْ سَبَقْنَا أُمَّ عَمْرٍو بِأَمْرِهَا وَكَانَتْ بِأَعْنَاقِ الْمَطِيِّ أَظْلَّتْ
بِعَيْنِي مَا أَمَسَتْ قَبَائِتْ فَأَصْبَحَتْ فَصَصَتْ أُمُورًا فَاِسْتَقَلَّتْ فَوَلَّتْ
فَوَا كَبِدًا عَلَى أُمِيمَةٍ بَعْدَمَا طَمِعْتُ فَهَبَهَا نِعْمَةَ الْعَيْشِ زَلَّتْ

وقد خرج بعد التقديم إلى موضوعات جمعتها مي يوسف خليف في النقاط الآتية:³¹

1-المحور الأول: وفيه سرد مغامرة غارة له مع رفاقه، فحدد "الطريق الذي سلكوه والهدف الذي اتجهوا إليه" وقد تحدد هذا الهدف بأنه الثأر.

2-المحور الثاني: "يصف رفيقا من رفاق صعلكته، يذكر الرواة انه تأبط شرًا ويطيل في الحديث عنه" وقد مزج في وصفه بين الجد والهزل. وهو مقطع مشهور في شعر الشنفرى:

وَأُمُّ عِيَالٍ قَدْ شَهِدْتُ تَقْوَتَهُمْ إِذَا أَطْعَمْتَهُمْ أَوْتَحَتْ وَأَقَلَّتْ
تَخَافُ عَلَيْنَا الْعِيَالُ إِنَّ هِيَ أَكْثَرَتْ وَنَحْنُ جِبَاعُ أَيِّ آلٍ تَأَلَّتْ
مُصْعَلِكَةٌ لَا يَقْضُرُ السِتْرُ دُونَهَا وَلَا تُرْتَجَى لِلنَّبِيْتِ إِنْ لَمْ تُنْبَيْتْ
(يقصد بأم العيال تأبط سرًا)

3-المحور الثالث: وقد خصصه لقضية الثأر وقد ضمن الأبيات "صورة تعكس تلك الثورة المتمردة الخارجة على كل ما تعارف عليه المجتمع من قوانين اجتماعية ومقدسات دينية، وهو خروج كانوا يستحلون معه القتل حتى في الأشهر الحرم التي تعارف العرب على قدسيته منذ فجر تاريخهم".

4-المحور الرابع: وقد خلص فيه الشاعر بعد هدوء ثورة الانتقام والثأر إلى تأكيد سمة التعالي على الذل والترفع على الظلم ورفض الخضوع للآخر السيد والاستسلام له.

لقد مثلت جملة الموضوعات في القصيدتين بعض ما كان يدور في أشعار الصعاليك، وفضلا عن ذلك ذكر يوسف خليف عددا من الموضوعات الأخرى التي لاءمت نمط حياتهم وعكست شعار مبادئهم في الحياة "الغزو والإغارة للسلب والنهب" فجاءت مصورة لجزئيات الشعار ومكوناته باعتبار النظام الضابط للحياة، فتحددت هذه الموضوعات في:

³¹ - السابق، ص.ص. 118-122.

أحاديث المغامرات، شعر المراقب، التوعد والتهديد، وصف الأسلحة، الحديث عن الرفاق، أحاديث الفرار، سرعة العدو، أحاديث التشرد.³²

نلخص الحديث عن ثلاثة موضوعات:

(1) أحاديث المغامرة: جمعوا في هذه المقطوعات أخبار حياتهم وما كانوا يتعرضون له أثناء عمليات السطو لأجل البقاء، وهي عمليات شابته الهجوم الحربي من جانبيين. من حيث القيمة التي يعينها بها الصعاليك فهي السبيل إلى استمرارية الحياة، تشكل عاملاً من عوامل افتخارهم وتميزهم، ومن حيث التحضير لهذا الهجوم ابتداءً من وضع إستراتيجية يكون العمل على تنفيذها موجبا نجاحها، وقد وقع على عاتق الشاعر الصعلوك مادام اللسان الناطق عن هذه الفئة وجوب النقل الأمين فكانت هذه الأحاديث قصصاً عاش أحداثها ومثل أدوارها الصعاليك عامة وتولى قصصها شعراً مؤثراً ومؤدياً غرض التوثيق كذلك الشاعر الصعلوك، فعمد إلى تتبع المغامرة فعلاً فعلاً من بدايتها إلى نهايتها.

(2) شعر المراقب: وهو موضوع يفرض نفسه على الشاعر الصعلوك كأساس المغامرة هو التربص بالأعداء وانتقاء اللحظة الملائمة للهجوم ولا يتسنى لهم تفعيل تنظيمهم المحكم إلا بعد مراقبة ضحاياهم وتتبع خطاهم، يفعلون ذلك فوق المرتفعات العالية التي يشرفون منها على الطريق بحيث يرون الناس ولا يرونهم، وكانوا يسمونها "مراقب". ونظراً لقيمتها وضرورتها في حياتهم فقد شغلت جزءاً من موضوعات أشعارهم، وقد حددوا لها أوصافاً ارتقوا من خلالها فكان منهم أن حددوا الزمن الذي يعتلون فيها، وهو الليل لأتته الملائم للتخفي كما أنه يدل على جرأتهم وقوة قلوبهم وصلابتها، ومن الأوصاف التي نعتوا بها المراقب ما جاء به الشنفرى:

وَمَرَقَبَةٌ	عَنْقَاءَ	يَقْصُرُ	دُونَهَا	أَخُو الضَّرْوَةِ	الرَّجُلُ الحَفِيّ	المُحَفَّفُ
نَعَبْتُ	إِلَى	أَدْنَى	نُورَاهَا	وَقَدْ	دَنَا	مِنَ اللَّيْلِ
قَبْتُ	عَلَى	حَدِّ	الذَّرَاعَيْنِ	مُجْذِباً	كَمَا	يَتَطَوَّى
وَلَيْسَ	جِهَازِي	غَيْرُ	نَعْلَيْنِ	أُسْحَقَتْ	صُدُورُهَا	مَخْصُورَةً
وَضْنِيَّةٌ	جَرْدٌ	وَإِخْلَاقٌ	رِبْطَةٌ	إِذَا	أَنْهَجْتَ	مِنْ جَانِبٍ
					لَا	تَكْتَفُفُ

³² -ينظر في تفصيل هذه الموضوعات: يوسف خليف: الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي. "موضوعات

شعر الصعاليك"، ص.ص. 182-258.

³³ -ديوان الشنفرى، ص.53.

وقد علّق يوسف خليف عليها بقوله: "في قصيدة من شعره لوحة رائعة لمرقبة منيعة عالية يعجز دونها الصياد والماهر الخفيف الذي يخرج بكلايه... للصيد، ويصف كيف صعد إليها وقد أقبل الليل بظلامه... الذي يلفّ الكون وكيف قضى الليل فوقها متربصا محدبا على ذراعيه مبالغة في تخفيه كما يتطوى الأفعوان المتكسر ولا شيء معه سوى فعلين باليقين وثياب أخلاق ثم أصحابه الذين لا يفارقونه" (الأصحاب هم السيف والقوس والسهام).

أما صورة المرقبة عند تأبّط شرافاتها مزيج من الجمال والقبح فبينما هي عالية لا يدانيها علوها أعالي أخرى، نجدها مشابهة العجوز الشمطاء فهي ذات تجاعيد تكسو ملمحها، عليها ثياب بالية، وقد تعددت صورها عند صعاليك آخرين فهي تارة فضلا عن علوها واسعة ملساء، وقد تجاوز الشعراء وصف المراقب إلى وصف المراقبين فذكروا لهم خصال القوّة والشجاعة وغيرهما.

(3) أحاديث الفرار: وإذا كانت جملة الموضوعات المحددة سابقا مصورة لوجهة نظر إيجابية عن الصعلوك وحياته بصفة عامة، فإنّ مجال الموضوعات كان أوسع لأنّ نظرهم إلى الحياة لم تكن ضيقة لذا فإنهم صوروا اضطرارهم إلى الفرار ورأوا فيه سبيلا إلى النجاة دون أن يسبب لهم ذلك غضاضة أو خجلا ذلك أنّه (الفرار): "فرصة تتيح لهم إظهار تلك الميزة التي يفخرون بها دائما وهي سرعة العدو أدركنا سرّ حرصهم على أحاديث الفرار في شعرهم لأنها أحاديث تتيح لهم مجال الفخر بهذه الميزة".

5. الخصائص الفنية:

شغل الصّعاليك البحث عن لقمة العيش الهنية والاستقرار في جوّ عائلي هادئ ينامون ليلهم كالآخرين ويرتّبون شؤون حياتهم كما يرتبها الناس العاديون ولكنهم عبثا بحثوا، فاقتنعوا بصعلكتهم وقد أسفرت هذه الصعلكة عن بعض المظاهر التي ميّزت إنتاجهم الشعري، تناولها يوسف خليف تناولا دقيقا فابتدأ بتعيين الظواهر بأسمائها ثمّ عرّج على شرحها وتحليلها ممثلا لها بأشعارهم، وقد كشف عن حملة من الخصائص هي:

- 1- شعر المقطوعات.
- 2- الوحدة الموضوعية.
- 3- التلخص من المقدمة الطللية.
- 4- عدم الحرص على التصريح.

5- التحلل من الشخصية القبلية.

6- القصصية.

7- الواقعية.

8- السرعة الفنيّة.

9- آثار من الصنعة المتأنيّة.

10- الخصائص اللغوية.

11- الظواهر العروضية.³⁴

وإذا اقتربنا من هذه الظواهر وجدناها آثارا منطقية لحياة اتسمت بالاستقرار، وقد ترابطت هذه الخصائص فيما بينها، وتوَلد عن بعضها بعضها الآخر، حيث كان لمجيء أغلب شعرهم في مقطوعات الأثر الأكبر في اتصاف البناء الفني بالمعالم المذكورة، فالمناسب لشعر محدد الأبيات هو الموضوع الواحد المضبوط الذي يمكن أن نأتي عليه وقد سيجناه في عنوان دال ملخص له، فإذا استقلت المقطوعة بالموضوع الواحد أو الموضوعين أدركنا سبب غياب المقدمة الطللية منها لأن المقدمة تهيئة للسامع نحو الخروج إلى عوالم أخرى ليست هي عالم المرأة والغزل؛ وهذا وإن كان شعر الصّعاليك لا يخل من الابتداء بحادثة صاحبة: الزوجة -كما رأينا-، ولكنها محادثة تتطوي على ذكر المغامرة التي عاشها بالدرجة الأولى، ولأنّ مجال المقطوعة ضيق فإنّ الشاعر لم يكن بوسعه الالتفات إلى التصريح فلم يكن التزيين اللفظي هاجسا من هواجسه التعبيرية، وقد عكس هذا التوجه الفني لديه أن طمس شخصية القبيلة من شعره وعوّضها بالتركيز على ذاتيته المبدعة والممثلة لنمط حياة اقتنع به، ولعلّ القالبيين القصصي والواقعي استطاعا أن يلمّا بجوانب حياة الصعلكة التي أفرزت طابعا فنيا تلقائيا تخلّله بعض آثار صنعة ليست هي الصنعة التي مثلها أصحاب الاحتراف في المدرسة الأوسية.

³⁴-ينظر يوسف خليف: الشعراء الصّعاليك في العصر الجاهلي "الظواهر الفنية في شعر الصّعاليك"،

المحاضرة الرابعة:

الشعر في صدر الإسلام

(شعر الفتوحات)

1. مدخل إلى الشعر في صدر الإسلام

2. صدر الإسلام مرحلة انتقالية فنياً وموضوعياً

3. شعر الفتوح

المحاضرة الرابعة: الشعر في صدر الإسلام (شعر الفتوحات)

1. مدخل إلى الشعر في صدر الإسلام:

1.1. تحديد الفترة الزمنية:

إن حديثنا عن الشعر في صدر الإسلام هو حديث مقيد بفترة زمنية قصيرة جدًا قياسًا إلى الحركات الشعرية التي عرفها الأدب العربي من العصر الجاهلي إلى يومنا هذا، وهو مرتبط بحيز جغرافي امتد بين مكة والمدينة والكوفة حيث نقل علي بن أبي طالب مقر الخلافة إليها؛ وعلى ذلك فهو ذو خصوصية أفرزها الظرف الديني الجديد الذي عاشته شبه الجزيرة العربية آنذاك.

وكما يوضحه المصطلح في تركيبه الإضافي فإن المدة المقصودة هي أول ظهور الإسلام وهي الممتدة من مجيء الإسلام إلى نهاية الخلافة الراشدة. وتنقسم إلى مرحلتين:

- 1- عصر النبوة: وتمثله مرحلة الدعوة في حياة الرسول عليه الصلاة والسلام ت11هـ.
- 2- عصر الخلفاء الراشدين: ونؤرخ له ابتداءً من تولي أبي بكر رضي الله عنه إلى نهاية خلافة علي بن أبي طالب كرم الله وجهه.

وقد توزعت هذه المرحلة بين الخلفاء كالاتي:

- ✎ خلافة أبي بكر الصديق¹: من 11هـ إلى 13هـ.
- ✎ خلافة عمر بن الخطاب: من 13هـ إلى أواخر ذي الحجة من سنة 23هـ.²
- ✎ خلافة عثمان بن عفان: "وكانت بيعته -رضي الله عنه- في الأيام الأخيرة من شهر ذي الحجة إلى غرة المحرم من السنة الرابعة والعشرين من هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم"³. إلى عام 35هـ.

- ✎ علي بن أبي طالب: من عام 35هـ إلى وفاته في 17 رمضان 40هـ.⁴

¹- ينظر: محمود شاكر: التاريخ الإسلامي، الخلفاء الراشدون، ج3، المكتب الإسلامي، ط8، 2000.

²- نفسه، ص192.

³- نفسه، ص.ص 221-222.

⁴- نفسه، ص276.

2.1. السياقات:

كان ظهور الإسلام في شبه الجزيرة العربية الحدث الانتقالي الذي شهدته في تاريخها إذ كان المعلم على بداية تحوّل جذري في المبادئ والقيم والسلوك. فقد زلزل اعتقاد العرب الوثني وحاربه ووقف مضاداً له، فالإسلام هو دين الوحدانية المطلقة: وحدانية الألوهية ووحدانية الربوبية، وهي مفاهيم لم يكن للعرب عهد بها؛ فقد تلاشت من الأذهان منذ زمن بعيد، غير أنّ أقلية منهم كانت على دين إبراهيم عليه السلام، وهم الأحناف، وأقليات أخرى اعتنقت النصرانية أو اليهودية متأثرة بأهل الكتاب، وفئة أخرى عرفها العرب في جاهليتهم هي "الصابئة" و"الصابيء": يقول ابن منظور: عنوا أنه خرج من دين إلى دين ونقل عن ابن إسحاق الزجاج قوله في الصابئين: معناه: الخارجون عن دين إلى دين"⁵، ذلك أنّ الأساس اللغوي لصبأ المتعدي: مأل، وقد استشهد له بيت شعر ورد في روح المعاني للألوسي:

إِلَى هِنْدٍ صَبًا قَلْبِي وَهِنْدٌ مِثْلَهَا يُصْبِي⁶

وتشير بعض الآراء إلى أنّ العرب الجاهليين عرفوا المجوسية كذلك.

نقل محمد إبراهيم الفيومي "عن المقدسي عند تناوله لشرائع أهل الجاهلية ومللها: "كان فيهم من كلّ ملة ودين وكانت الزندقة والتعطيل في قريش والمزدكية والمجوسية في تميم واليهودية والنصرانية في غسان والشرك وعبادة الأوثان في سائرهم" ثمّ يعلق على القول: "ونستطيع أن نقول إنّ قلب الجزيرة العربية في مكة استقبل تيارات متضاربة من الأفكار والمذاهب والديانات مثل المزدكية واليهودية والمسيحية والمشرقية والبوذية والعقائد السحرية الآتية من بلاد الزنوج وكلّها نجد لها ردود فعل في القرآن الكريم. لكنّ السؤال هو: إذا كانت الاتجاهات الدينية في مكة كلّها أو أكثرها وفدت إليها من الخارج فما هو الاتجاه الديني لمكة؟"⁷*. لقد تناول الكاتب القضية المذكورة أعلاه بتفصيل عرض فيه مجمل الآراء التي تحدثت عن الوثنية في مكة المكرمة. وقد ساد رأيان في انتقال: كيفية انتقال مكة من

⁵ - محمد إبراهيم الفيومي، تاريخ الفكر الديني الجاهلي، دار الجيل، بيروت، ط1، 1999، ص253.

⁶ - نفسه، ص522(نقلا عن الألوسي 231/1).

* - وقد فصل الكاتب في جوابه عن هذه الإشكالية.

⁷ - نفسه، ص.ص. 361-362: في انتظار مراجعة المقدسي.

التوحيد من زمن إبراهيم عليه السلام وابنها إسماعيل عليه السلام إلى معتقد الوثنية وعبادة الأصنام
ف: "قد ذهب أهل الأخبار إلى أنّ العرب الأولى كانت على ملة إبراهيم من الإيمان بالله واحد أحد،
اعتقدت به وحجت إلى بيته وعظمت حرمة الأشهر الحرم، بقيت على ذلك ثم سلخ بهم إلى أن
عبدوا ما استحبو ونسوا ما كانوا عليه واستبدلوا بدين إبراهيم وإسماعيل غيره، فعبدوا الأوثان وابتعدوا
عن دين آبائهم وأجدادهم حتى أعادهم الإسلام إليه"⁸.

أما عن الرأيين فمفاد الأول أنّ الوثنية وافدة عليهم فقد ذكروا أن "عمرو بن لحي" هو من
أدخل الأصنام إلى مكة ويروى أنّه في سفرة إلى البلقان (اليونان) وجد الناس يعبدون الأصنام فسألهم
عنها فقالوا بأنها أربابهم يستتصرونها فتتصرهم ويستترزقونها فترزقهم فطلب منهم واحدا فأهدوا له "هبل"
فسار به إلى الكعبة وطلب من الناس تبجيله وتعظيمه"⁹ (في عهد سابور ذي الأكتاف).

وقد أشارت الدراسات أن "هبل" تميّز عن بقية الأصنام بالزخرفة الفنية التي عليه. أمّا الرأي
الثاني فمفاده أن عبادة الأصنام محلية ظهرت في مكة، نقل صاحب الفكر الديني عن الألويسي: "وقد
بلغ تعظيم العرب لمكة أنّهم كانوا يحجون البيت ويعتصرون ويطوفون، فإذا أرادوا الانصراف أخذ الرجل
منهم حجراً من حجارة الحرم فنحته على صورة أصنام البيت ثم يجعله في طريق قبلة يطوف ويصلي
له تشبيهاً بأصنام البيت. ثم أفضى بهم الأمر بعد طول المدة إلى أن كانوا يأخذون الحجر من الحرم
فيعبدونه، فذلك كان أصل عبادة العرب للحجارة في منازلهم شغفاً منهم بأصنام الحرم وليس تذوقاً
للمعنى الديني القويم"¹⁰.

وعليه فإن زمن مجيء الإسلام هو زمن تعدد آلهة ووثنية مادية فلم يتقبل العرب هذا المعتقد
الذي يأمرهم بالتخلي عن ديانة الآباء والأجداد ويتوعددهم بجهنم إن أبوا ويعدهم بجنات عرضها
السموات والأرض إن أسلموا له. فمستّ النقلة إلى الإسلام جوهر حياتهم حيث تبدلت النظرة إلى
الوجود فلم يعد مادياً بحتاً كما كان فقد أضفى عليه الإسلام معتقداً سامياً: الإيمان بوجود خالق لهذا
الوجود: موجد الوجود فارتقت قيمة الإنسان وارتقت بذلك علاقته بغيره وزالت حواجز الانتماء القبلي فآل

⁸ - السابق، ص 422.

⁹ - نفسه، ص 383 (ينظر أيضاً: الرازي: 232/1؛ فتح الباري: 472/8).

¹⁰ - نفسه، ص 384.

مبدأ القبلية إلى الزوال وزالت معه مقومات القبلية: العصبية أهمها وحل محلها نظام الأمة الواحدة الذي احتوى القبائل العربية تحت لوائه: "وكنتم خير أمة أخرجت للناس".

■ أثر هذا الانتقال: التحولات.

نرصد التحولات التي لمست حياة العرب حديثي الإسلام فيما يأتي:

- **القيم الروحية:** أثرت أركان الإسلام: الشهادتان، إقامة الصلاة، إيتاء الزكاة، صوم رمضان، حج البيت على من استطاع، تأثيرا واضحا في الحياة: فالشهادتان أساس التوحيد والصلاة عمود الدين والزكاة حق الفقراء في أموال الأغنياء: نظام اقتصادي اجتماعي والصيام رياضة روحية وجسدية وعلاقة خاصة بين العبد وربّه، والحج رحلة القصد لله، تتطافر هذه الأساسيات مع أركان الإيمان: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وكذلك الإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك، فتتعالق الحياتان: الدنيا والآخرة، وتطبيب الأنفس في علاقاتها مع خالقها فتتجلى آثار الرحمة الإلهية في سلوك المسلمين المؤمنين وتطهر الأبدان وتطهر معها الأرواح.

- **القيم العقلية:** خلّص الإسلام العرب من الفكر الوثني المستسلم لأوامر الكهنة والسحرة والقائم على الشعوذة والأباطيل، فحرروا من ثقافات هذا المعتقد وحرروا من عبودية الفكر المادي التي سيطرت على عقولهم، فانتقلوا بإيمانهم بالله وإذعانهم له إلى مرتبة الإنسان الواعي المدرك أن لهذا العالم خالقا هو الأكبر حيث دعاهم القرآن إلى استعمال عقولهم لأن الوجود آية على الخالق الواحد وآياته كثيرة: تعاقب الليل والنهار، خلق السماوات والأرض، الشمس والقمر، وبالعقل يدرك الإنسان أن يبعث حتى "فإن من يبعث الحياة في الكائنات قادر على أن يردها إليها"¹¹. قال تعالى: (أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ (77) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (78)) وقال: (وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (5) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (6)). وفي مقابل هذا فإننا نجد في القرآن الكريم ذمًا للذين عطلوا عقولهم وأعموا قلوبهم عن التدبر والتفكير فهم الصم البكم العمي الذين لا يعقلون (لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا

¹¹-شوقي ضيف: العصر الإسلامي، ص16.

يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (179)). وقال: (أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا (44)). وما يثبت دعوة الإسلام إلى استعمال العقل هو كثرة الفواصل القرآنية: (أَفَلَا يَعْقِلُونَ)، (إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)، (إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) .

- **القيم الاجتماعية:** كان لاجتماع العرب تحت لواء الأمة نتائج مسّت حياتهم الاجتماعية حيث انتظمت الحياة الجديدة وفق مبدأ المساواة في الحقوق والواجبات وأنّ لا أفضلية بين الناس إلا بالتقوى؛ وأنّ الحسب والنسب والغنى والفقر ليست هي المعايير الأساسية لتقييم المرء (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ٥ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ٦). ونبذ الإسلام مبدءا جاهليا كان أساس التنازلات وهو الأخذ بالنثار، فدم المسلم على المسلم حرام، وأن الحكم في القتل له أحكامه في القرآن وليس لأحد أن يخرج عمّا سنّه الله. ومن القضايا الاجتماعية التي عالجها الإسلام ووضع لها حدّا تشريعيًا هي قضية المرأة بدءا بتحريم الوأد إلى بسط المواريث وجعل للمرأة حقًا فيه... وغيرها.

- **القيم الإنسانية:** إن جملة التأثيرات في الجوانب السابقة تؤدي إلى ضرورة التأثير في القيم الإنسانية وأهمها أنّ هذا الذي يسمى الإنسان هو مخلوق من مخلوقات البارئ عز وجل ولكنه ليس كبقية المخلوقات فلقد خصه الله بالرسالة وجعله خليفة في الأرض، وجعله أفضل المخلوقات: (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا (70)). وألّعن الله نظام الاسترقاق وحفظ للإنسان كرامته وحقوقه وإنسانيته وحرّر أبناء الإماء بعد أن كانت الجاهلية تجعلهم عبيدا لأبائهم؛ أمّ المنّة العظمى على الناس فهي أن خلقنا مسلمين، وعلى الرغم من ذلك فغته لا إكراه في الدين وهو بهذا جعل لغير المسلمين حرية حتى يستقيم بناء المجتمعات في ظل لا إله إلا الله محمد رسول الله.

- **القيم الأدبية:** يبقى لنا بعد هذا أن نطرح سؤالًا: إذا كان الإسلام لأمس جوانب الحياة كلها وأثر فيها، فما هو تأثيره في الحياة الأدبية؟ قبل أن نجيب عن هذا السؤال يجب أن نقف عند قضية تثيرها الدراسات الأدبية: ما موقف الإسلام من الشعر؟ نرصد هذا الموقف في القرآن الكريم ثم في الحديث النبوي الشريف.

في القرآن الكريم:

الشعر بالنسبة للجاهلي ضرورة حياة لا يستغني عنها ولا يتصور عيشا دونها ولما جاء الإسلام ونزل القرآن الكريم على الرسول صلى الله عليه وسلم قال بعض المشركين إنه شاعر، وقال بعضهم ليس بالشعر وقد عهدنا الشعر وإن هذا له حلاوة وعليه طلاوة ولكنه ليس بشعر وردا على هؤلاء نفى القرآن الشعر عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، وتأكد هذا النفي وكذلك النهي عنه بالنسبة للرسول صلى الله عليه وسلم في عدد من الآيات:

- * (وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ) يس/69.
- * (بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ، بَلْ افْتَرَاهُ، بَلْ هُوَ شَاعِرٌ) الأنبياء/5.
- * (وَيَقُولُونَ أَأَنْتَ لَتَأْرِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ) الصافات/36.
- * (فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَرِبِينَ) الطور/30.
- * (وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ) الحاقة/41.
- * (وَلَا يَقُولِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ) الحاقة/43.

أجمعت الآيات الكريمة على نفي الشعر والكهانة عليه عليه الصلاة والسلام وهما اتهامات لجأت إليها قريش حين وقعت منبهة أمام القرآن الكريما تعرف له وصفا سوى ما توفر لديها من وصفها للشعر غير أنها أدركت أنه ليس بشعر.

يتجلى الموقف البارز للقرآن الكريم من الشعراء في خواتيم سورة الشعراء: (وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (224) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (225) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ (226) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا ۗ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ (227)).

والآيات الكريمة واضحة في تمييزها بين صنفين من الشعراء محددة بذلك وظيفة الشعر من منظور الدين، وقدمت ذلك بشكل دقيق جدًا: حيث استهلكت الحديث عن عموم الشعراء وهم الغاؤون الذين لا حدود أخلاقية لهم يلتزمون بها، ثم عدل عن طريق الاستثناء إلى تخصيص المؤمنين الذين تميزوا بالأعمال الصالحة وذكر الله وأنهم الذين انتصروا من بعد ما ظلموا وقالت التفاسير في هؤلاء أنهم الذين ناصرُوا رسول الله عليه الصلاة والسلام "وقد ورد أنه لما نزلت هذه الآيات جاء حسان بن

ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يبكون فتلا النبي صلى الله عليه وسلم: **إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**. قال: **أَنْتُمْ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا**. قال **أَنْتُمْ**. وانتصروا من بعد ما ظلموا، قال: **أَنْتُمْ**، ويضيف ابن عبد ربّه الأندلسي: فأرخص الله للشعراء بهذه الآية في هجائهم لمن تعرّض لهم¹².

❦ في الحديث النبوي الشريف:

من خلال الموقف السابق للرسول صلى الله عليه وسلم أنّه فسّر لشعراء الدعوة أنّهم المقصودون بالاستثناء ومنه فإنّه عليه الصلاة والسلام لم يمانع في أن يردّ الشعراء المؤمنون على أعدائهم له موقفان اتجاه الشعر:

الموقف الأول: فقد روي عنه: أيضا قوله: **"لأن يمتلئ جوف أحدكم قبحا حتى يريه خير له أن يمتلئ شعرا"** و"المراد من الامتلاء أن يكون الشعر مستوليا عليه بحيث يشغله عن القرآن والذكر والعلوم الشرعية وهو مذموم من أي شعر كان، وقد ترجم الإمام البخاري رحمه الله في صحيحه على هذا الحديث من رواية ابن عمر وأبي هريرة باب ما يكون الغالب على الإنسان الشعر حتى يصدّه عن ذكر الله والعلم والقرآن"¹³.

الموقف الثاني: لقد ذكرت المصادر أنّه لما شبت الحرب بين الرسول صلى الله عليه وسلم والكفار استغل شعراء الكفار ألسنتهم ضدّ المسلمين: **"وقد أخذوا يسدّدون سهام أشعارهم إلى الرسول عليه الصلاة والسلام وأصحابه من المهاجرين وأنصاره من المدينة، وعزّ ذلك عليه لا لأنّهم كانوا يهجونه فحسب، بل أيضا لأنّهم كانوا يصدون عن سبيل الله بما يذيع من شعرهم في القبائل العربية"**¹⁴.

¹² - واضح الصمد: أدب صدر الإسلام، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1994، ص 74-75، نقلا عن: ينظر: صفوة التفاسير: ص479، ابن كثير: 3/354؛ ابن عبد ربه: 5/294.

¹³ - من الشبكة: شروح الحديث: تحفة الأحوذى، محمد بن عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري، عدد الاجزاء10، مسألة باب ما جاء لأن جوف أحدكم قبحا خير يمتلئ شعرا، حاشية رقم : 1 ص117.

¹⁴ - شوقي ضيف: العصر الإسلامي، ص47.

ومن هؤلاء الشعراء: عبد الله بن الزبير، كعب بن الأشرف اليهودي وفي رواية عن عائشة رضي الله عنها، قالت: "استأذن حسان بن ثابت رسول الله في هجاء المشركين، فقال رسول الله: "كيف بنسبي؟" فقال حسان: لأسلنك منهم كما تسلّ الشعرة من العجين"¹⁵.

وفضلا عن هذا فقد سردت مصادر الأدب روايات تجلي مواقف إيجابية من قول الشعراء، إذا كان هذا الشعر خاليا من كفر وموبقات وآثام عقدية، وهو ما يفصح عن تركيز الإسلام على الوظيفة الدينية التي من واجبها أن تضطلع بنشر الدين الجديد بتعاليمه وسلوكاته.

2. صدر الإسلام مرحلة انتقالية فنياً وموضوعياً:

ولما كان الإسلام هزة قوية في شبه الجزيرة امتدت آثاره إلى فنيات إبداعها فجدد بذلك مرحلة انتقالية بالغة الأهمية عرفت جدلاً نقدياً لم يكن مطروحا آنذاك -في صدر الإسلام- وإنما فجرته مقولة الأصمعي (122هـ-216هـ)؛ القاضية بأن الشعر "نكد بابيه الشر فإذا أدخلته باب الخير لان" وقد ترتب عن هذه القضية إشكالات نقدية لعل أهمها علاقة الشعر بالدين من زاويتي الصدق والكذب والأخلاق والفرن، والقراءات في هذا المجال لا تحصى. والذي نقف عنده هنا هو ما الأثر المباشر الذي حققه الإسلام في الشعر؟ والذي نسلّم به أن مرحلة تهذب فيها العرب المسلمون، وقد انشغلوا فيها وهم حديثو عهد بالتوحيد ومبادئه وقول هو القرآن الكريم ولم يكونوا آنذاك أن يهتموا بتنتيخ أو تجويد وهم مقبلون على فتح العالم. وعليه فإن التسرع في الحكم على أدب هذه المرحلة بأنه ضعيف وأنّي ويجب أن يراجع ويعاد النظر فيه، وللإشارة فإن الشعراء الذين تولوا الدفاع عن قضيتهم هم شعراء مخضرمون يتصدرهم حسان بن ثابت يتبعه كل من كعب بن مالك وعبد الله بن رواحة وقد تمثل هؤلاء المقاصد العليا للدعوة حيث جعلوا شعرهم يضارع سيوفهم ورماحهم "وقد احتدم الهجاء بينهم وبين شعراء مكة"¹⁶. علما انه لم يكن لمكة شعر في الجاهلية إلا بعض مقطوعات كانت لورقة بن نوفل وفتيان لهم: نبيه ومسافر ذكرهما الأصفهاني في كتابه الأغاني¹⁷. قلما نشبت الحرب بينها وبين الرسول لمعت فيها أسماء شعراء كثيرين مثل أبي سفيان بن الحارث وعبد الله بن الزبير وضرار بن الخطاب الفهري

¹⁵ - صحيح البخاري، كتاب الأدب-باب هجاء المشركين- حديث رقم: 6150.

¹⁶ - شوقي ضيف: العصر الإسلامي، ص 47.

¹⁷ - نفسه، ص 47.

وأبي عزة الجمحي وهبيرة بن أبي وهب المخزومي¹⁸. لقد اتخذ الشعراء أساليب أعدائهم في الهجاء فكان حسان وكعب "يعارضان شعراء قريش بمثل قولهم بالوقائع والأيام والمآثر ويعيرانهم بالمثالب، وكان عبد الله بن رواحة يعيرهم بالكفر؛ فكان في ذلك الزمان أشدّ القول عليهم قول حسان وكعب وأهون القول عليهم قول ابن رواحة؛ فلما أسلموا وفقهوا الإسلام كان أشدّ القول عليهم قول ابن رواحة"¹⁹. ووقفة دقيقة عند هذا الكلام من شأنها أن تفصح عن أثر عميق في موضوعات الشعر أساسه التوحيد، فلم تعد الأيام والانهازم في الوقائع ذات قيمة مقارنة مع قيمة الإيمان بالله. ولا يفوت أن نذكر هنا أن الإسلام نهى عن الهجاء المقذع المخل بالأخلاق الحاط من قيمة الإنسان الذي كرمه. أمّا الأثر الأكثر ظهوراً فقد تجلّى في أخذ معاني القرآن ومفرداته وتوظيفها في الشعر في جملة الأغراض التي قال فيها الشعراء، وحسان بن ثابت أهر شعراء هذا العصر تجلّى تأثره بالقرآن والإسلام في شعره الإسلامي على مستوى الموضوع الشعري حيث أصبحت حرية الدعوة إلى الله هي المهيمنة عليه أبرزها في مدائحه للرسول صلى الله عليه وسلم ، أمّا على مستوى الشكل فقد اقتبس بعض التعابير من القرآن الكريم وضمّنها شعره، قال:

وَأَنْتَ إِلَهَ الْحَقِّ رَبِّي وَخَالِقِي بِذَلِكَ مَا عُمِرْتُ فِي النَّاسِ أَشْهَدُ
تَعَالَيْتَ رَبُّ النَّاسِ عَن قَوْلِ مَنْ دَعَا سِوَاكَ إِلَهًا أَنْتَ أَعْلَى وَأَمَجْدُ

وقال:

وَضَمَّ إِلَهُ اسْمَ النَّبِيِّ إِلَى اسْمِهِ إِذْ قَالَ فِي الْخَمْسِ الْمُؤَدَّنُ أَشْهَدُ

وقال:

وَقَالَ اللَّهُ قَدْ أَرْسَلْتُ عَبْدًا يَقُولُ الْحَقَّ إِنْ نَفَعَ النَّبَاءُ

وقال:

فَأَمْسَى سِرَاجًا مُسْتَنِيرًا وَهَادِيًا يَلُوحُ كَمَا لَاحَ الصَّقِيلُ الْمُهْنَدُ

¹⁸ - السابق .

¹⁹ - نفسه، نقلا عن الأغاني، 4/138.

3. شعر الفتوح:

بعد الذي أوردنا من تأثير الإسلام في العرب حديثي العهد به، وقد وقفوا منبهرين أمام لغة القرآن ومختلف أساليبه، فانقلبوا به/ معه إلى تصوّر آخر للحياة تعارض مع منطلقاتهم الماديّة في نظرتهم للحياة والموت في معتقدتهم الجاهلي؛ فبدلوا أنفسهم وأموالهم في سبيل الله؛ ومنه كانت مغادرتهم لأوطانهم وتركهم ذوبهم تضحية خالصة لوجه الله ومواصلة للفتح الإسلامي الذي ابتدأ في عهد النبوة. ولعلّ موقف عبد الله بن رواحة -وهو من شعراء الدعوة- في غزوة مؤتة -في العام الثامن للهجرة- من المواقف الأكثر إجلالاً لعمق التحوّل الذي أحدثه الإسلام. كان الشاعر -الصحابي- ثالثاً مير على جيش المسلمين الذي واجهه في عهد النبي جيشاً نصرانياً حيث كان خروجه للغزوة طلباً للاستشهاد في سبيل الله، جاء في شرح ديوانه في تصوير لحظة الانطلاق: "ولمّا حضر خروجهم ودّع الناس أمراء رسول الله: زيداً وجعفرًا، وعبد الله، وسلّموا عليهم، فلَمّا ودّع ابن رواحة بكى، فاستغرب الناس بكاءه، ولعلّهم حسبوه حزناً على فراق أهل أو ولد، أو صباغة في الدنيا فيسألونه: ما يبكيك؟ فيقول: أما والله ما بي حبّ الدنيا ولا صباغة بكم، ولكني سمعت رسول الله يقرأ آية من كتاب الله يذكر فيها النار: (وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا) فلست ادري كيف لي بالصّدر عنها بعد الورد؟ فقال المسلمون: صحبكم الله، ودفع عنكم، وردّكم إلينا صالحين، ولكن ابن رواحة كان يريد غير ذلك، كان ينشد الشهادة في سبيل الله؛ فردّ على الناس:

لَكِنِّي أَسْأَلُ الرَّحْمَنَ مَغْفِرَةً وَصَرَبَةَ ذَاتِ فَرْغٍ تَقْزِفُ الزَّبَدَا
أَوْ طَعْنَةَ بِيَدِي حَزَانَ مُجَهَّرَةً بَحْرِيَّةٍ تُنْفِذُ الْأَحْشَاءَ وَالْكَبِدَا
حَتَّى يُقَالُ إِذَا مَرَّوْا عَلَى جَدِّثِي أَرَشَدَهُ اللَّهُ مِنْ غَازٍ وَقَدْ رَشَدَا²⁰

وقد دأب المسلمون بعد عصر النبوة على السير على خطى النبي عليه الصلاة والسلام في الدعوة إلى الله ونشر الإسلام في أصقاع الأرض، فكانت تلك قضيتهم التي اغتربوا لأجلها صوّروا تجاربهم فيها شعراً نابعا من أعماق الذوات التي تؤمن برسالتها وتضحي لجلها. وقد اصطلح النقاد بعدهم على تسمية هذا النتاج الشعري: شعر الفتوح/ أو شعر الفتوحات، وهو "شعر المحاربين من العرب المسلمين

²⁰-وليد قصاب: ديوان عبد الله بن رواحة دراسة في سيرته وشعره، دار الطباعة والنشر، ط1، 1981،

في فترة مشرقة من فترات تاريخهم، بل لعلها أكثرها إشراقاً، فهي الفترة التي تذخر بأسمى المشاعر الروحية الإسلامية، ويتجلى فيها أثر الإسلام عقيدة وفكرة في نفوس العرب²¹. وقد كان له قبل فترة الخلفاء الراشدين إرهاصات ممهّدة، حيث صوّر بعض الذين حضروا المعارك الإسلامية الأولى بين المسلمين الأوائل في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام والقبائل العربي، فقد قال حسان بن ثابت في غزوة بدر:

وَحَيْرِ بِالَّذِي لَا عَيْبَ فِيهِ بِصِدْقِ غَيْرِ إِخْبَارِ الْكُذُوبِ
بِمَا صَنَعَ الْمَلِيكَ غَدَاةَ بَدْرِ أَنَا فِي الْمُشْرِكِينَ مِنَ النَّصِيبِ²²

وقال كعب بن مالك:

عَجِبْتُ لِأَمْرِ اللَّهِ وَاللَّهُ قَادِرٌ عَلَى مَا أَرَادَ أَنْ يَفْعَلَ
قَضَى يَوْمَ بَدْرِ أَنْ نَلْقَى مَعْشَرًا بَعَثُوا وَسَبَّحُوا بِالنَّاسِ جَائِرًا
فَلَمَّا لَقَيْنَاهُمْ وَكُلٌّ مُجَاهِدٌ لِأَصْحَابِهِ مُسْتَبِيلُ النَّفْسِ صَابِرًا
شَهِدْنَا بِأَنَّ اللَّهَ لَا رَبَّ كَأَنَّهَا وَأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ بِالْحَقِّ ظَاهِرٌ²³

وقال عبد الله بن رواحة في غزوة أحد - السنة الثالثة للهجرة - في رثاء حمزة عم النبي عليه الصلاة والسلام:

بَكَتْ عَيْنِي وَحَقَّ لَهَا بُكَاهَا وَمَا يُغْنِي النُّكَاءُ وَلَا الْعَوِيلُ
عَلَى أَسَدِ الْإِلَهِ غَدَاةَ قَالُوا أَحْمَرُهُ ذَلِكَ الرَّجُلُ الْفَتِيلُ

²¹ - النعمان عبد المتعال القاضي: شعر الفتوح الإسلامية في صدر الإسلام، مكتبة الثقافة الإسلامية، مصر، ط1، 2005، ص9.

²² - عبد الرحمن البرقوقي: شرح ديوان حسان بن ثابت الأنصاري، المطبعة الرحمانية، مصر، 1929م ص15. (نسخة الكترونية)

* - تنبيه في النسخة قبل الشرح كلمة الشارح تناول فيها موضوعات كثيرة وابتدأ الترقيم من ص58 ويقابلها ص رقم1.

²³ - كعب بن مالك الأنصاري: الديوان، تح: مجيد طراد، دار صادر بيروت، ط1، 1997، ص.ص. 46-

أُصِيبَ الْمُسْلِمُونَ بِهِ جَمِيعاً هُنَاكَ وَقَدْ أُصِيبَ بِهِ الرَّسُولُ²⁴

والذي نلقت إليه أن مرحلة الفتوحات هي فترة خمود الشعر العربي وانطفاء جذوته وقد ردت ذلك الدراسات إلى الانشغال بالدعوة ونشر الإسلام. فضلا عن الرسالة المقدسة التي أداها الفاتحون فقد استطاعوا أن يصوروا تجاربهم الجديدة وبطولاتهم في البلاد المفتوحة، وبشعر تميّز بجملته من المواصفات نذكر منها:

1- تسجيل الوقائع التاريخية.

2- الروح الدينية الإسلامية: فلم يكن أمر الفتوح والتوسع في نشر الدين ليشغل المسلمين عن ذكر الله، بل كان عاملا قويا في ثباتهم على صدق العقيدة وترسيخها فيهم والتوكل على الله تعالى، وصوّر شعرهم هذه الدلالات التي تفصح عن خصوصية هذا الشعر، قال ضرار بن الأزور في فتح الشام:

عليك ربّي في الأمور المتكل
يا ربّي وفقني إلى خير العمل
أنا ضرار الفارس القرم البطل
أقمع بسيفي الروم حتى تضمحل
اغفر ذنوبي إن دنا مني الأجل
وعني امحُ سيدي كل الزلل
باغ على الأعداء أضحى المتصل
ما لي سواك في الأمور من أمل²⁵

3- الفخر: لقد ألهمت الفتوح الشعراء بفخر ليس هو الفخر الجاهلي الذي كان محظورا عليهم وإنما هو فخر بالقيم الإسلامية والانتماء إلى الجماعة الواحدة وقد كانت الهجرة إلى الفتوح متنفسا إلى الافتخار والإشادة بالذات والقوم "ما داموا جميعا يذودون عن العقيدة ويبدلون الأرواح رخيصة في سبيلها، أما قبل الفتوح فإن الفخر ليس إلا انحراف عن الحدود المهمة التي نيطت بالشعر إلى إثارة النعرات والعصبية التي كان يجب أن تختفي ويعفى على آثارها"²⁶.

²⁴- ديوان عبد الله بن رواحة، ص30.

²⁵- سامي مكي العاني: الإسلام والشعر، سلسلة عالم الفكر، رقم66، منشورات المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت 1996، ص85.

²⁶- النعمان عبد المتعال القاضي، شعر الفتوح الإسلامية، ص.ص.175-176.

4- الصدق في المقصد: قال النابغة الجعدي لامراته حين طلبت منه البقاء في بيته عوض

الاتحاق بجيش الفتح:

بَاتت تُذَكِّرُنِي بِاللَّهِ قَاعِدَةً وَالدمْعُ يَنْهَكُ مِنْ شَأْنَيْهِمَا سَبَلًا
يَا بِنَّةَ عَمِّي كِتَابُ اللَّهِ أَخْرَجَنِي عَنْكُمْ وَهَلْ أَمْنَعَنَّ اللَّهَ مَا فَعَلَا
فَإِنْ رَجَعْتُ قَرُبُ النَّاسِ يُرْجِعُنِي وَإِنْ لَحِقْتُ بِرَبِّي فَابْتَغِي بَدَلًا
مَا كُنْتُ أَعْرَجَ أَوْ أَعْمَى فَيَعِزِّرُنِي أَوْ ضَارِعًا مِنْ ضُنَى لَمْ يَسْتَطِعْ حَوْلًا²⁷

5- شعر الحنين: كان شعر المرحلة فسحة للتعبير عن الذات المفارقة لذويها وبيئتها

وماضيها وجاء صورة كشفت "عن عواطف الفاتحين وظروف حياتهم في ميادين القتال وعواطف ذوي قرباهم.... وعن حنينهم وتشوقهم إلا مواطن صباهم وبلدانهم"²⁸. ورأى النقاد أن هذا الشعر عوض المقدمة الطلية في شعر الجاهليين، وعلق صاحب كتاب شعر الفتوح الإسلامية عليه بقوله: "ونحن لا نعرف لهذا الشعر شبيها يقابله في شعر الجاهلية على كثرة ما كان من ظعنهم ورحيلهم إلا ما كان يعرف من بكاء الأطلال، وفي اعتقادنا: أن وجود هذا الضرب من الشعر في الفتوح يعلل اختفاء المقدمات من هذا الشعر..."²⁹.

وقد أخذ هذا الحنين أشكالا نذكر منها:

- الشعور بالغربة والحنين إلى الوطن؛
- الشوق إلى جوّ البلاد العربية حرة وباردة؛
- الشوق إلى الحبيبة.

6- وصف المظاهر الجديدة في حياتهم: وصف الفاتحون الطبيعة الجديدة ومظاهر العمران

(القصور) في البلاد المفتوحة وكل ما كان غير مألوف لديهم خلت منه بيئتهم العربية: فقد استأثرت المشاهد الغريبة التي لم يألفها العرب من قبل بقسط كبير من اهتمام شعراء الفتوحات الإسلامية

²⁷ - يوسف بكار: في الشعر العربي القديم: دراسات ونقود وتراجم، دار البيروني للنشر والتوزيع، نسخة إلكترونية، ص 47.

²⁸ - نفسه، ص 46.

²⁹ - النعمان عبد المتعال القاضي، شعر الفتوح الإسلامية، ص 257.

فصوروا تلك المشاهد تصويراً دقيقاً، وأودعوا الأشعار دهشتهم واستغرابهم لتلك المناظر التي كانوا يرونها لأول مرة ومن تلك المشاهد الغريبة الفيلة... وكان القعقاع بن عمرو أول فارس يواجه الفيل الأعظم يوم القادسية، فيققع مشفره ويفقأ عينه فقال في ذلك مشبهاً الفيلة ذوات الأجسام الضخمة بالبيوت:

فإن كنت قاتلت العدو فقلتة فإني
لألقي في الحروب الدواهي
فيولاً أراها كالبيوت مغيرة
أسمل أعياناً لها ومآقيا³⁰

وفضلاً عما ذكرنا فقد تميّز شعر الفتوح بكثير من الميزات التي كانت وقفاً عليها، نجملها في

النقاط الآتية:

(1) من حيث الموضوع:

- أنه ورد قصائد وأرجازاً.
- أن موضوعاته تداخلت بين القديم والجديد.
- أنه صادر عن روح إسلامية وأحاسيس دينية صادقة.
- أن معانيه دينية.
- أنه تضمن أحاديث البطولات وقصصاً عن الفرسان والمشاهير.
- أن كثيراً منه مجهول القائل.

(2) من حيث الخصائص الفنية:

- أنه قصائد وأرجازاً.
- التأثر بالقرآن الكريم.
- يعتمد الإيجاز.
- هو شعر عفوي بسيط.³¹

(3) شعراؤه:

ومن شعرائه نذكر:

³⁰- سامي مكّي العاني: الإسلام والشعر، ص84.

³¹- ينظر: في تفصيل هذه الخصائص النعمان عبد المتعال القاضي: شعر الفتوح الإسلامية.

- عمرو بن معد يكرب الزبيدي.

- أبو محجن الثقفي.

- النابغة الجعدي.

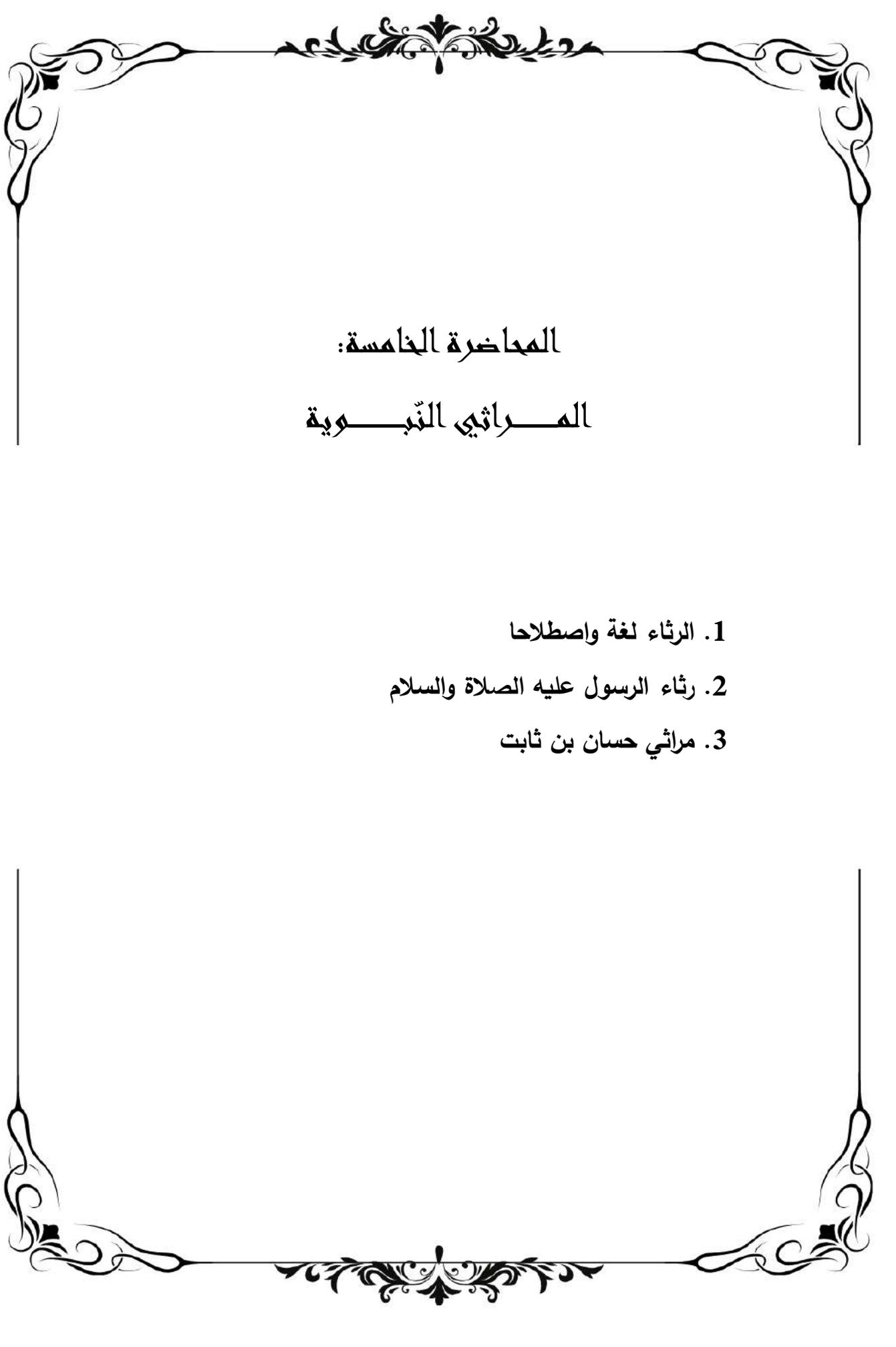
وهم من الشعراء المعروفين. ومن الذين قالوا شعرا في الفتوح: (لم يعرفوا قبل ذلك بالشعر):

- أبو أحيحة القرشي.

- بشر بن ذريح الثعلبي.

- عصام بن المقشعر وغيرهم.





المحاضرة الخامسة:
المراثي النبوية

1. الرثاء لغة واصطلاحاً
2. رثاء الرسول عليه الصلاة والسلام
3. مراثي حسان بن ثابت

المحاضرة الخامسة: المراثي النبوية.

جاء الإسلام والعرب على حين غفلة من الذين الصحيح وتأجج من بطلان المعتقد فكان محطة فاصلة بين حيتين، فحدثت النقلة النوعية في النظر إلى الوجود؛ فأنت يتغير الإنسان من اعتقاد راسخ في تعدد الآلهة وانتهاء الحياة بالموت إلى إقرار الوجدانية ألوهية وربوبية وحياة أخروية، وأن يبدأ الأمر بشخص واحد هو محمد بن عبد الله وتنتهي بأمة فاتحة لا تغيب عنها الشمس. وكذلك كانت وفاته حدثا جللا ارتد إثره كثير ممن لم يتمكن منهم الإيمان. وأظلمت المدينة المنورة بوفاته فكانت أشد مصيبة تصيب المسلمين "وكان الصحابة أول من ابتلي بموت الرسول صلى الله عليه وسلم وأول من رثاه، قال أنس بن مالك: لما كان اليوم الذي قدم فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة أضاء منها كل شيء؛ فلما كان اليوم الذي مات فيه؛ أظلم كل شيء، وما نفضنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أنكرنا قلوبنا"¹.

1. الرثاء لغة واصطلاحاً:

جاء في معجم المقاييس: "رثي: الرّاء والثاء والحرف المعتلّ أُصيِلَ يدلّ على رقة وإشفاق؛ يقال: رثيت لفلان: رقت، ومن باب قولهم: رثي الميت بشعر"²، ومما ورد عند ابن منظور في اللسان: "رثي فلان يرثيه يرثيا ومرثية إذا بكاه بعد موته، يقال فإنّمدحه بعد موته رثاه يرثيه ترثية. ورثيت الميت ورثاء ومرثاة ومرثية ورثيته: مدحته بعد الموت وبكيتها. ورثوت الميت أيضا إذا بكيتها وعددت محاسنه، وكذلك إذا نظمت فيه شعرا.... ورثي له إذا رقّ وتوجع"³.

¹ - محمد شمس عُقاب: المراثي النبوية في أشعار الصحابة، توثيق ودراسة، مكتبة الغمام البخاري للنشر والتوزيع، مصر، ط1، 2003، ص5.

² - أحمد بن فارس: معجم مقاييس اللغة، اعتنى به وصححه محمد عوض مرعب وفاطمة محمد أصلان، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 2008، ص421.

³ - ابن منظور: لسان العرب، المجلد الرابع، دار الحديث القاهرة، 2003، ص66-67.

وعرّفه ابن الرشيقي باعتباره غرضاً شعرياً قال: "وليس بين الرثاء والمدح فرق، إلاّ أنّه يخلط بالرثاء شيء يدلّ على أنّ المقصود به ميّت مثل "كان" أو "عدمنا به كيت وكيت" وما يشاكل هذا ليعلم أنّه ميّت"⁴.

وبناء على ما ذكرنا فإنّ أوّل دلالات الرثاء الرقة والإشفاق والتوجع، وهي أحاسيس وجدانية، انتقلت إلى دلالة اصطلاحية ارتبطت بفنّ الشعر فسمّوا البكاء على الميّت بذكره محاسنه رثاءً. وحتى يتميّز على المديح جعل ابن الرشيقي خاصيته الفارقة "أن يكون ظاهر التفعج بين الحسرة مخلوطاً بالتلّهُف والأسف والاستعظام"⁵.

ومما سبق يمكننا أن نحدّد قصيدة الرثاء: المرثية: (جمعها المرثي) بأنها خطاب شعري وجداني تنازعه الثناء والبكاء: الثناء على المحامد والمكارم عند المرثي والبكاء على فقده وفقدائها به. وبحكم كون الرثاء ملازماً لظاهرة الموت فإنّه غرض شعري أصيل أنس العربي في مأساته وكان له متنقّساً من شدّة فجيعة الموت. يأتي على ثلاثة أشكال ذكرها شوقي ضيف في كتابه "الرثاء"، وهي: الندب والتأبين والعزاء.

1- الندب: وعرّفه بأنّه: "النواح والبكاء على الميّت بالعبارات المشجّية والألفاظ المحزنة التي تصدع القلوب القاسية وتذيب العيون الجامدة إذ يولول النائحون والباكون ويصيحون ويعولون مسرفين في النحيب والنشيج وسكب الدموع"⁶. فالندب إذاً هو أثر عميق لجرح الموت تجسّد على المفجوع في الميّت سواء كان مقرّباً من الأهل أم لا بإحداث الصوت الدال على الحزن والبكاء: العويل مرفوقاً بالثناء وعلى المفقود وعليه فإنّه درجة عالية من التأسّي والشجن.

2- التأبين: وعرّفه قائلاً "أصل التأبين الثناء على الشخص حيّاً أو ميّتاً، ثمّ اقتصر استخدامه على الموقف فقط. إذ كان من عادة العرب أن يقفوا على قبر الميّت فيذكروا مناقبه، ويعدّدوا

⁴ - أبو علي الحسن بن الرشيقي: العمدة في محاسن الشعر وأدابه ونقده: الجزء الثاني، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الطلائع، القاهرة، ط1، 2006، ص127.

⁵ - نفسه، الصفحة نفسها.

⁶ - شوقي ضيف: الرثاء، دار المعارف، مصر، ط4، 1955، ص12.

فضائلهويشهرها محامده. وشاع ذلك عندهم، ودار بينهم، وأصبح في سننهم وعاداتهم، ولو لم يقفوا على القبور كأنهم يريدون أن يحتفظوا بذكرى الميت على مرّ السنين⁷.

يظهر التآبين وثوق العلاقة بين الميت وذويه بعد موته إذ يستمر ذكره بعد موته باستحضار مناقبه ومحامده في ذكره، "فالتآبين مدح الرجل بعد موته، قال متمم بن نويرة:

لعمري وما دهري بتآبين هالكٍ ولا جزعٍ مما أصاب فأوجعا⁸

3- العزاء: يتصدّر العزاء مراسيم الرثاء إذ هو مزامن للفجعة؛ يقوم على التشارك الوجداني بين أهل الميت والآخرين، الغرض منه حثّ أهل الميت على الصبر ذلك أن أصل العزاء الصبر، ثم اقتصر استعماله في الصبر على كارثة الموت، وأن يرضى من فقد عزيزا بما فاجأه به القدر⁹.

2. رثاء الرسول عليه الصلاة والسلام:

ذكرنا في السطور الأولى مفهوم القصيدة الرثائية: المرثية: بأنها خطاب توزعه الثناء والبكاء، ووجب علينا أن نستتفر على مفهوم آخر لمرثية النبي عليه الصلاة والسلام ما المقصود بها، وهي: "كلّ شعر قيل في وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام أو ثناء عليه أو وفاء أو ترحما أو غير ذلك من معاني الرثاء"¹⁰. فالمرثية النبوية إذاً خطاب شعري تميّز باقتصاره على ذات النبي عليه الصلاة والسلام موضوعا شعريا: مرثياوممدوحا في آن واحد لا ينافسه موضوع آخر.

ولما كان الرسول هو قائد الأمة ومسيّر أمورها، فقد كثرت مرثيته وتعدّد أصحابها، منها ما هو موثوق صحيح النسبة إلى أصحابه ومنها ما هو موضوع على ألسنة بعض الصحابة الكرام، فقد ذكر محمد شمس عقاب أنّ لأبي بكر رضي الله عنه -مثلا- عددا من المقطوعات في رثاء الرسول، وهي منسوبة إليه، استند في رأيه على ما ورد عن عائشة رضي الله عنها ونفيها المطلق بأنّ أباهما أبا بكر قد قال شعراً، ذكر له أربع مقطوعات، مطالعها هي:

باتت تأوئني هُمومٌ حُشدٌ مثلُ الصُّخُورِ فأُمستُ هدَّتِ الجَسدا

⁷- السابق، ص54.

⁸- أحمد بن فارس: معجم المقاييس، ص39.

⁹- شوقي ضيف: الرثاء، ص86.

¹⁰- محمد شمس عقاب: المرثية النبوية، ص20.

وهي سبعة أبيات

يا عَيْنَ قَائِكِي وَلَا تَسْأَمِي وَحَقَّ الْبُكَاءُ عَلَيَّ السَّيِّدِ!

وهي ستة أبيات

لَمَّا رَأَيْتُ نَبِيَّنَا مُتَجَدِّلاً ضَاقَّتْ عَلَيَّ بِعَرَضِهِنَّ الدُّورُ

وهي خمسة أبيات

أَجِدْكَ مَا لِعَيْنِكَ لَا تَتَأَمُّ كَأَنَّ جُفُونَهَا فِيهَا كِلَامٌ

وهي ستة عشر بيتاً¹¹.

وتحدّث الباحث عن عدد من الشعراء والشاعرات الراثين فاحصاً وموثقاً، فأكد مرثيتين لكعب

بن مالك:

يا عَيْنِي قَائِكِي بَدَمْعِ نَدَى لِحَيْرِ النَّبِيَّةِ وَالْمُضْطَفَى

وهي ثمانية أبيات.

وباكية حَرَى تَحَرَّقَ بِالْبِكا وتلطم منها خَدَّها والمَقْلدا

وهي تسعة أبيات.

كما ذكر قصائد لصحابة آخرين: علي بن أبي طالب وعمرو بن العاص؛ وأفرد أهل اليمن

وطائفة من العرب والصحابيات بفصول خاصة وثق فيها المرثي المنسوبة إليهم¹².

3. مرثي حسان بن ثابت:

حسان بن ثابت من المعمرين عاش ما يقارب مائة وعشرين سنة: ستون في الجاهلية وستون

في الإسلام؛ وهو ابن المنذر بن حرام بن زيد.... وأمّه هي الفريعة ابنة خالد بن قيس، ويكنى أبا الوليد

وأبا عبد الرحمن وهو "من بني النجار من قبيلة الخزرج وأنه يمان قحطاني وأنه يمّت برحم إلى آل

¹¹ - ينظر: محمد شمس عقاب: المرثي النبوية: توثيق مرثي أبي بكر، ص.ص 37-59.

¹² - ينظر: نفسه، ص.ص 111-369.

جفنة: الغساسنة ملوك الشام وإلى اللخمين ملوك العراق إذا أنهم جميعا من نسل عمرو بن عامر بن ماء السماء¹³.

وقد حوّل له هذا النسب مكانة رفيعة في المدينة -يثرب- وأن يفخر بنفسه ويقومه وأن يتباهى مادحا وأن يهجو قاذعا. وعرف عند إسلامه عند هجرة الرسول إليها، وبعد أن انبرى يردّ على المشركين وينتصر للإسلام والرسول والمسلمين جميعا بشاعر الرسول عليه الصلاة والسلام؛ وعلى هذا الأساس فإنّ له شعرا كثيرا في الرسول وفي الدعوة عموما، توزع على أغراض المديح والهجاء: هجاء الكفار، والرياء. ولعلّ أشهر قصائده: الهمزية التي تنبأ فيها بفتح مكة، والتي جمع فيها بين المديح والفخر فيما خصّ خطابه عن الإسلام والمسلمين والهجاء عند رده عن أبي سفيان. وهي القصيدة التي ضمّنها الرواة مقطعا جاهليا لحسان، قال:

عَفَّتْ ذَاتُ الْأَصَابِعِ فَالْجَوَاءِ إِلَى عَذْرَاءٍ مَنْزِلُهَا خَلَاءِ

وقد استمرت مقدّمته بين الغزل والخمر إلى قوله:

وَنَشْرِبُهَا فَتَنْزِكُنَا مُلُوكًا وَأُسْدًا مَا يُنْهِنُنَا اللِّقَاءِ

وبعدها انبرى إلى الردّ فقال مفتتحا:

عَدِمْنَا حَيَاتَنَا إِنْ لَمْ تَرَوْهَا تُشِيرُ النَّعَمَ مَوْعِدَهَا كِدَاءِ

إلى نهاية القصيدة:

وَحِلْفُ الْحَرِثِ ابْنِ أَبِي ضِرَارٍ وَحِلْفُ قُرَيْظَةَ مِنَّا بُرَاءِ¹⁴

أمّا عن مراثيه للنبي فقد ذكر له محمد شمس عقاب:

بَطِيْبَةٌ رَسَمَ لِلرَّسُولِ وَمَعَهُدُ مُنِيرٌ وَقَدْ تَعَفَوُ الرُّسُومُ وَتَهَمِدُ

وهي طويلة بلغت ستة وأربعين بيتا.

آلِيَتْ حَلْفَةَ بَرٍّ غَيْرِ نِي دَخَلِ مَنِّي أَلِيَّةَ بَرٍّ غَيْرِ إِفْنَادِ

¹³ - ينظر: شرح ديوان حسان بن ثابت، ضبطه عبد الرحمان البرقوقي، المطبعة الرحمانية، مصر، 1929،

المقدمة: ص.ص: أ-ض-م.

¹⁴ - نفسه، ص.ص. 1-9.

وهي ثمانية أبيات.

ما بال عينك لا تنام كأنما كحلت مآقيها بكحل الأرمد

وهي ثمانية عشر بيتا.

إن الرزية لا رزية مثلها ميت بطيبة مثله لم يفقد

وهي تسعة أبيات.

نَبِّ الْمَسَاكِينَ أَنْ الْخَيْرَ فَارْقَهُمْ مَعَ الرَّسُولِ تَوَلَّى عَنْهُمْ سَحْرًا

وهي ثمانية أبيات.

ذكر له بيتين:

يا لهف نفسي عليه حين ضمته بطن الضريح عليّ وابن عباس
مادامت بي الأرض حتى كدت أدخلها بعد النبي رسول الله والآسي
يا عين جودي بدمع منك أسبال ولا تملن من سخ وإعوال

وهي ثلاثة عشر بيتا¹⁵.

والذي يجب أن نشير إليه أمران: أما الأول: أن القصائد المذكورة أعلاه ليست كلها ثابتة النسبة لحسان بن ثابت رضي الله عنه ، وقد أسفرت دراسة محمد شمس عقاب في توثيق المراثي عن النتائج الآتية:

• الدالية الأولى:بطيبة رسم للرسول ومعهد

وبعد أن أورد شكّ الباحث إحسان النصّ في كتابه "حسان بن ثابت: حياته وشعره" وخشية الدكتور زكي مبارك من أن تكون منحولة لسلمبصحة نسبتها إلى حسان رضي الله عنه في كتابه "المدائح النبوية في الأدب العربي" ومخالفة محمد علي مكّي لهذا الرأي وإقراره إثباتها لحسان، أكد موقفه من ردّ النسبة واعتبار القصيدة منسوبة إليه:"والحقّ أنّ القصيدة وإن رواها أبو زيد الثقة؛ منحولة مكذوبة على حسان، وقد يروي الثقة عن غير الثقة. وكان من منّة الله عليّ أن بصّرني فعرفت أنّها مسروقة من شعر الكميت بن زيد الأسدي (60 هـ-126 هـ) من هاشميتين له؛ وهذا السارق يكون قد

¹⁵- ينظر: محمد شمس عقاب: المراثي النبوية، ص.ص. 65-79.

عاش في النصف الثاني بعد الكميت وقت أبي زيد، ولعلّ ابن حبيب عرف هذا فنحّاها عن الديوان الذي صنع¹⁶.

• **الداليتان:**

✓ ما بالُ عَيْنِكَ لا تَنَامُ كَأَنَّمَا

✓ إِنَّ الرِّزِيَّةَ لا رَزِيَّةَ مِثْلُهَا

وقد رأى أنّ القصيدتين هما قصيدة واحدة وعلّق: "وهما قصيدة واحدة للوزن والصياغة والمعاني والقافية؛ ولأنّ صاحبها وضاع واحد يسرق من شعر الكميت، وهو الذي وضع المرثية التي سلفت (بطيبة رسم) فهما وهي نسيج واحد مهلهل منقوص متشابه".

• **الدالية:**

✓ آيْتُ حَلْفَةَ بَرٍّ غَيْرِ ذِي دَخَلِ

فقال عنها: "فهذا الشعر ذو نسب معروف إلى حسّان منذ عهد الصحابة، وقد روي عن ذلك العهد رواية صحيحة سالمة وهو أمر نادر الوجود في رواية شعر ذلك الصدر"

• **اللامية:**

✓ يا عَيْنُ جُودِي بِدَمْعِ مِثْلِ أَسْبَالِ

وقد شك في نسبتها إليه أخذ برأي العدوي، فقال: "إنّ هذه القصيدة -كما قال العدوي- مصنوعة وخير الشواهد على صناعتها صياغتها الضعيفة الهيئة كقول صاحبها:

وَلَا أُزَكِّي عَلَى الرَّحْمَنِ ذَا بَشْرٍ لَكِنَّ عِلْمَكَ عِنْدَ الْوَاحِدِ الْعَالِي

ثمّ من ذا الذي يشير إل النبي العظيم ب"ذا" من غير حرف التنبيه كأنّه يقلل منه؟ إنّه ليس بصحابي".

• **الرّائية:**

✓ نَبِّ الْمَسَاكِينَ أَنَّ الْخَيْرَ فَارَقَهُمْ

¹⁶ - السابق، ص 86.

ولم يجزم الأمر فيها وبناءه على التوقف قال: "ولكني مع زعمي هذا لا أجزم برأي في أمر هذه القصيدة مادام "العدوي" نفسه تورع عن الجزم في أمرها برأي وخير وجهة إدخالها فيها هي وجهة التوقف في نسبتها إلى حسان والتوقف في نفيها عنه. والتوقف ليس عيبا بل العجلة العيب"¹⁷.
 وأمّا الأمر الثاني وهو أن الباحث بناء على تقصيه حقيقة نسبة المرثي إلى الشعراء أحصى جدولاً بيّن فيه عدد القصائد / المرثي الصحيحة والزائفة:

المرثي الزائفة	المرثي الصحيحة	
08	14	ما كان عشرة فأكثر
09	16	ما دون عشرة إلى سبعة
13	16	ما دون السبعة

وذكر أصحاب القصائد التي تجاوزت 10 أبيات، وهم:

عدد أبيات قصائدهم	الشعراء
24	سالم الغطفاني
19	أبو سفيان بن الحارث
18	مسروق بن ذي الحارث
17	مرّان بن عمير
16	عبد الله بن أنيس
14	سواد بن قارب
14	عبد الحرث بن أنس
13	أبو الهيثم بن التيهان
12	عبد الله بن سلمة
11	يزيد بن ذي المشعار
11	عمرو بن سالم
10	عدي بن الحاتم
10	صفية بنت عبد المطلب
10	صفية بنت عبد المطلب

¹⁷ - ينظر: المرجع السابق، ص.ص. 81-110.

المحاضرة السادسة: شعر النقائض

مدخل

1. العوامل المؤثرة في الشعر
2. الشعر الأموي بين التقليد والتجديد
3. شعر النقائض
4. خصائص النقائض
5. نموذج شعري من النقائض
6. حقيقة النقائض
7. قيمة النقائض

المحاضرة السادسة: شعر النقائض

مدخل:

بعد أن تعرضنا في المحاضرة السابقة إلى الأدب الإسلامي في زمنه الأول المُصطلح عليه: أدب صدر الإسلام، مُمثلاً في أشعار الصحابة في الفتوحات الإسلامية، وأشعار هذه المرحلة أحاطتها ظروف نشأة مميّزة ومغايرة لما عهده العربي في شبه الجزيرة؛ صار لزاماً علينا ونحن نتوجه إلى الكشف عن شعر النقائض باعتباره شعراً عربياً عرف إرهابات في الأدبين الجاهلي والإسلامي وردت في شكل: الهجاء القبلي (عند الجاهليين) والصراع الحربي بين المسلمين والكفار (عند المسلمين الأوائل)، وتطور واستقر علنظام تعارف عليه الشعراء والممثلون له؛ أن نعرّج على بعض خصوصيات الأدب الأموي.

يمتد العصر الأموي من تولى معاوية بن أبي سفيان الخلافة/ الحكم سنة 41هـ/661م إلى عام 132هـ/744م في عهد مروان بن محمد. اتسعت رقعة البلاد الإسلامية في عهد بني أمية فامتدت شرقاً إلى أطراف الصين ووصلت غرباً إلى جنوب فرنسا. وعلى الرغم من كثرة الاضطرابات والثورات فقد استطاع الخلفاء الأمويون إخماد نيران الفتن وإخفاض صوت كلّ مناهض للسياسة والإبقاء على الحكم عربياً أعرابياً - كما يصفه الجاحظ؛ فقد دأبوا على البعث بأبنائهم إلى البوادي الأعرابية حتى يأخذوا عن أهلها الشعر والأدب واللغة، فنشأوا محبّين للأدب والشعر متذوّقين لهما.

1. العوامل المؤثرة في الشعر:

لقد اهتم الخلفاء الأمويون بالأدب فازدهر في عهدهم محافظاً ومجدّداً وملبياً حاجيات الخلافة السياسية ومصوّراً الحياة العربية وهي تتباعد عن زمن النبوة وصدر الإسلام، وقد تأثر بعوامل متنوعة نذكرها اختصاراً في النقاط الآتية:

1.1. العوامل السياسية:

كان للنهج الذي سطرته الدولة الأموية لسياستها آثار مباشرة في حركة الشعر؛ حيث عمدت أولاً إلى تغيير نظام الحكم الإسلامي من الشورى إلى الوراثة، وعمدت من أجل الحفاظ على الاستقرار إلى إسكات المعارضين؛ خاصة أنّها نشأت في ظروف فتنة سياسية ابتدأت في عهد الخليفة الثالث: عثمان بن عفان - رضي الله عنه - واستمرت واشتدت إلى ما بعد مقتل علي - رضي الله عنه - وتنازل الحسن بن علي عن الخلافة لحساب معاوية بن أبي سفيان. وقد واكب تولى معاوية الحكم

انقسام الدولة وظهور أحزاب سياسية "تنافست... في اصطناع الشعراء واتخاذ الشعر سلاحاً قوياً لنشر دعوة الحزب وآرائه والإشادة بسياسته وإظهار تأييده ونصرته ومناهضة خصومه. فتوزع الشعراء على الأحزاب وأخذوا ينظمون شعرهم معبرين عن نظريات سياسية جديدة، وأفكار ومبادئ موروثة ومستحدثة، فأثروا في الشعر العربي من هذه النامية تأثيراً كبيراً؛ إذ وجهوه ناحية الحزبية والنشاط السياسي"¹. فكان لكلّ حزب سياسي شعراؤه المدافعون عنه:

(1) الحزب الأموي: وقد كان للأمويين سبق في إثارة الشعراء وتحريضهم على غيرهم، ومن

شعرائهم:

✓ الأخطل: (ت95هـ) وهو نصراني من قبيلة تغلب "وكان السبب في تقرّبه إلى بني أمية أن معاوية أراد أن يهجو الأنصار لأسباب... فاقترح ابنه يزيد على كعب بن جعيل... أن يهجوهم وكان مسلماً فأبى، وقال أدلك على غلام نصراني لا يبالي أن يهجوهم كأنّ لسانه ثور؟ قال: ومن هو؟ قال: الأخطل، فدعاه معاوية وأمره بهجائهم، فقال: على أن تمنعني. فقال: نعم..."².

✓ وذكر لهم جورجي زيدان مجموعة من الشعراء هم: أبو العباس الأعمى، أعشى ربيعة، نابغة بني شيبان، عدي بن الرقاع، أبو صخر الهذلي، عبد الله بن الزبير الأسدي (ليس هو ابن الزبير قائد حزب الزبيريين)، أبو قطفة وغيرهم كثير³.

(2) الزبيريون: ومن شعراءهم: ابن قيس الرقيات.

(3) الخوارج: عمران بن حطان، الطرماح.

(4) الشيعة: كثير عزة، الكميت (صاحب الهاشميات): الكميت بن زيد.

¹ - صلاح الدين الهادي: اتجاهات الشعر في العصر الأموي، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1، 1956، ص32.

² - جورجي زيدان: تاريخ آداب اللغة العربي، الجزء الأول، في سلسلة الأنيس، موفم للنشر، الجزائر، 1993، ص.ص. 441-442.

³ - نفسه، ص.ص. 461-471.

(5) شعراء ثورة ابن الأشعث: أعشى همدان⁴.

2.1. العوامل الاجتماعية:

كما كان للعوامل الاجتماعية آثارها البارزة في تطوّر الشعر ومحاولة مضاهاة الشعر الجاهلي؛ ذلك أنّ أهمّ عامل اجتماعي-سياسي كان مثيرا للشعر هو إحياء العصابات القبلية، وقد كان نتيجة لجلب القبائل العربية من الصحراء واستحداث أحياء لها في البصرة والكوفة؛ أحييت هذه الأحياء-والتي هي القبائل العربية الجاهلية- ثقافتها العدائية الجاهلية. كما كان الثراء الناتج عن الاتساع والفتوحات سببا رئيسا في الانفتاح على اللهو والمجون والابتعاد عن المبادئ التي سنّها الدين.

3.1. العوامل الثقافية العقلية:

ولم يغيب الجانب الثقافي المعرفي من شاشة المؤثرات فلم يعد العلم والمعرفة حبيس المساجد والحلقات ودروس الفقه واللغة فقد انفتح العرب على الثقافات الأجنبية وآدابها فنهلوا منها وترجموها وتأثروا بها وأثروا فيها⁵.

2. الشعر الأموي بين التقليد والتجديد:

هل القصيدة الأموية هي امتداد للقصيدة الجاهلية أم هي بنت القصيدة الجديدة؟ هو إشكال متشعب الطرح تناولته دراسات أدبية نقدية كثيرة وفصّلت في جوانبه المختلفة التي تندرج ضمن قضيتين اثنتين: تأثر القصيدة الأموية بأصول الشعر العربي في العصر الجاهلي من جهة، وتطورها في سياق الظروف التي زامنت نشأتها، من جهة ثانية. وقد أجمعت الدراسات أنّ آثار الشعر العربي القديم بارزة فيها ولا يمكن لأيّ كان أن يتجاهل ذلك، وقد كان لشوقي ضيف موقف واضح في هذا الأمر في المقدمة الثانية لكتابه "التطور والتجديد في الشعر الأموي" حين ردّ على من "ظنّ" بتعبير الكاتب أنّه ينكر هذا الامتداد وأن الصلة بين الأديبين منقطعة، فقال مجسدا ومبيّنا ظاهرة التأثير هذه: "وأنا لا أنكر هذه الصلة ولا أدفعها عن الشعر في العصر الأموي، بل أنا لا أنكرها ولا

⁴- ينظر: شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، العصر الإسلامي، دار المعارف، مصر، ط7، ص.ص.

346-380.

⁵- ينظر: في جملة هذه العوامل/ صلاح الدين الهادي: اتجاهات الشعر في العصر الأموي، ص.ص. 07-

أدفعها عن الشعر العربي في جميع عصوره التالية⁶. وبعد أن أكد قاعدته في منطلقه وهي عدم إنكار التأثير والامتداد فصل الأمر قائلاً: "فقد ظلت الصلة قائمة متينة بين عصوره وأقاليمه المختلفة وبين الجاهلية وحياة العرب البدوية القديمة؛ فهي تفرض نفسها على الشعر والشعراء، لا من حيث الصيغ والأخيلة والصور فحسب. بل من حيث الموضوعات والأغراض وذكر الأطلال والرسوم ووصف الإبل وحيوانات الصحراء ومسالكها ومنازلها"⁷. لقد أثبت القول أنّ اعتراف الشعر الأموي من الشعر الجاهلي عميق ومتنوع فقد مسّ جميع العناصر التي بموجبها يتشكّل النص الشعري متجسدة في الشكل والمضمون. فأما من حيث الشكل الخارجي فقد حافظ الشعراء على الشكل القديم من افتتاح بمقدمة فرحلة فخلوص إلى الغرض/ الموضوع المطروق؛ وأما من حيث البناء الداخلي فقد وظّف الأمويون تصويرات الجاهليين فأخذوا بعض تعابيرهم واستعاراتهم وأخيلتهم فنسجوا نسيجهم؛ وأما من حيث الموضوعات فقد كان أثر إحياء العصبية القبلية الأثر الواضح في ذلك -وقد سبقت الإشارة إليه-. ولا يعني هذا أن القصيدة الأموية لم تتميز وتحقق كيانها الذي نشأت فيه، بل إنّها مثّلت عصرها أصدق تمثيل، فقد كان الشعر آنذاك لا يزال مهيمنا وتصويراً حياً للشاعر وبيئته؛ وما العوامل التي ذكرنا سابقاً إلاّ مؤثرات في تجديده وتطويره بما هو ملائم لإنسان جديد: هو إنسان مؤمن بالله؛ ولسياق جديد هو ظرف الانفتاح على عهد الرفاهية والغنى والحضارات المختلفة والصراع القلبي في ثوبه الجديد.

3. شعر النقائض:

ولا يلبث الثوب الجديد للشعر الأموي أن يكتسي ألواناً مختلفة على مستوى الأغراض ومضامينها، لعلّ أبرزها تجلياً: الغزل والمديح والهجاء، نفرد وقتنا هذه لشعر تداخل فيه المديح والهجاء والافتخار، وهو شعر النقائض الذي يكاد يكون خصيصة أدبية أموية حيث تلازم ذكرهما في الدراسات الأدبية والنقدية كما تلازمت أسماء شعرائه الفحول: الأخطل والفرزدق والجرير تمثيلاً لها، وهي شعر لا تقوم القصيدة فيه بذاتها وإنّما تجذب إليها قصيدة أخرى قيلت في سياقها لتقوّض معانيها وتشابه شكلها والأمر في ذلك مستند إلى الدلالة المعجمية للكلمة الجذر: "نقض" وهي تدلّ في أصلها الصحيح على نكث الشيء -كما ورد عند أحمد بن فارس: "النون والقاف والضاد أصل صحيح يدلّ

⁶ - شوقي ضيف: التطور والتجديد في الشعر الأموي، دار المعارف، مصر، ط8، ص05.

⁷ - نفسه، الصفحة نفسها.

على نكت الشيء.... ونقضت الحبل والبناء.... والمناقضة في الشعر من هذا، كأنه يريد أن ينقض ما أَرَبَه صاحبه...⁸. وجاء عند ابن منظور "النقض إفساد ما أبرمت من عقد أو بناء.... والنقض ضد الإبرام. والنقض اسم البناء المنقوض إذا هدم؛ وفي حديث صوم التطوع: فناقضني وناقضته هي مفاعلة من نقض البناء وهو هدمه، أي ينقض قولي وأنقض قوله وأراد به المراجعة والمراد... والمناقضة في القول: أن يتكلم بما يتناقض معناه. والنقيضة في الشعر ما ينقض به.... وكذلك المناقضة في الشعر ينقض الشاعر الآخر ما قاله الأول. والنقيضة الاسم يجمع على النقائض"⁹، ولم يبتعد المعنى الاصطلاحي للنقائض عن الدلالات اللغوية السالفة الذكر، فقد أورد عبد النور جبور في معجمه الأدبي معنيين للنقيضة: معنى فلسفياً ومعنى أدبياً أتبعه بتعليق هام، قال: "أدبياً: قصيدة ينظمها شاعر يردّ فيها على ما قاله شاعر آخر ويفرض في هذا النوع من الشعر أن تكون النقيضة على وزن القصيدة الأصلية وقافيتها، وقد اشتهر هذا النوع في مختلف العصور الأدبية" ثم أضاف "كانت النقائض تتلى بشكل مسرحي في المربد - دار بالبصرة* - إذ ينهض الشاعر لينقض القصيدة التي تلبه فيها خصمه بقصيدة تشبهها وزناً وقافية"¹⁰.

1.3. شعراء النقائض:

اشتهر في شعر النقائض ثلاثة شعراء وهم الأخطل والفرزدق وجريير وثلاثتهم من الفحول؛ أشدّ ما كانت النقائض بين الفرزدق وجريير، وهم أشعر طبقات الإسلاميين.

✓ **الفرزدق (ت110هـ):** "لقب غلب عليه، وتفسيره: الرغيف الضخم الذي يجفّفه النساء للفتوت؛ وقيل: بل هو القطعة من العجين التي تبسط فيخبز منها الرغيف، وشبه وجهه بذلك، لأنّه كان غليظاً جهماً، واسمه همّام بن غالب بن صعصعة بن ناجية بن عقّال بن محمد بن سفيان بن مجاشع..."¹¹. قال عنه جورجى زيدان "ويعتقد علماء اللغة أن شعر الفرزدق فيه كثير من أساليب

⁸ - أحمد بن فارس: معجم مقاييس اللغة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 2008، ص 1007.

⁹ - ابن منظور: لسان العرب، المجلد الثامن، دار الحديث، القاهرة، 2003، ص 676.

* - والشائع ان المربد سوق بالبصرة كان بمثابة سوق عكاظ في مكة، كان نادياً للأدب.

¹⁰ - عبد النور جبور: المعجم الأدبي، دار العلم للملايين، بيروت، ط2، 1984، ص.ص. 284-285.

¹¹ - الأصفهاني: الأغاني، ج16، موفم للنشر، الجزائر، 1992م، ص7509.

العرب، وألفاظهم حتى قالوا: لولا شعر الفرزدق لذهب ثلث لغة العرب... وكان من أقرب شعراء ذلك العصر إلى الثبات في الرأي، فقد طلب منه يزيد بن عبد الملك بعد قتل يزيد بن المهلب من الشعراء هجاء يزيد المذكور فأبى الفرزدق وقال: امتدحت بني المهلب بمدائح ما امتدحت بمثلها أحدا، وإنما يقبح بمثلي أن يكذب نفسه على كبر السن فليعفني أمير المؤمنين. فأعفاه¹².

✓ **جرير (ت111هـ):** "جرير بن عطية بن الخَطَفِ والخطفي لقب، واسمه حذيفة بن بدر بن سلمة بن كليب بن يربوع بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم بن مر بن أد بن طابخة بن إلياس بن مضر بن نزار ويكنى أبا خرزة، ولقب الخطفي لقوله:

يُرْفَعَنَّ بِاللَّيْلِ إِذَا مَا أَسَدَفَا أَعْنَاقَ حِنَّانٍ وَهَامًا رُجَّفَا

وعنقا بعد الكلال خيطفا

ويروى خطفي¹³.

✓ **الأخطل (ت95هـ):** "هو غياث بن غوث بن الصلت بن الطارقة ويقال ابن سيحان بن عمرو... بن عمرو بن غنم بن تغلب، ويكنى أبا مالك... والأخطل لقب غلب عليه، ذكر هارون بن الزيات عن ابن النطاح عن ابن عبيدة أن السبب فيه أنه هجا رجلا من قومه فقال له: يا غلام، إنك لأخطل، فغلبت عليه... وكان نصرانيا من أهل الجزيرة"¹⁴. (والخطل: استرخاء واضطراب: استرخاء الأذن، والمنطق الفاسد: ابن فارس، ص304).

والذي يجب أن نشير إليه أن شعر النقائض لم يقتصر على الثلاثة المذكورين فالنقائض الأموية نوعان: نوع خاص قال فيه عدد من الشعراء المعروفين وغير المعروفين، ونوع خاص؛ وهو الذي كان وقفا على الثلاثي: الأخطل والفرزدق وجرير حيث جعلوه مقصدا شعريا وحلبة تباروا فيها فنيا.

ونذكر من الذين قالوا نقائض:

¹² - جورجى زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية، الجزء الأول، موفم للنشر، الجزائر، 1993، ص455، وينظر في أخباره مفصلة الأغاني: 7618-7509/16، مرجع مذكور.

¹³ - ينظر أخباره في الأغاني، الأصفهاني: الأغاني، 2582/6 وأخباره من 2582-2661.

¹⁴ - ينظر أخباره في الأغاني، 2892-2851/6.

- بين هدبة بن خشرم العذري وزيادة بن زيد بن مالك.
 - بين ابن الدمية عبيد الله الخشعي وبين امرأة من قومه تدعى أميمة.
 - بين قتادة بن معرب وبين أبي كلدة الجشعي¹⁵.
- وغيرهم كثير.

4. خصائص النقائض:

ينفرد شعر النقائض بجملة من الخصائص نذكر منها:

- 1- أنه يقوم على الهجاء والفخر: "وذلك أن يقول الشاعر قصيدة يهجو فيها شاعراً آخر ويسخر منه ومن قبيلته ويفخر بنفسه ورهطه وبما لهم من أمجاد في الجاهلية ومكانة في الإسلام، فيجيبه الشاعر بقصيدة -على وزنها وقافيتها في الأغلب- ناقضا كثيراً ممّا جاء به الشاعر الأول من معان وصور، مضيفاً إليها من جانبه مزيداً من الفخر والهجاء"¹⁶.
- 2- أنه شعر يقوم على الفحش: فقد تميّز بشدّة الهجاء وتجاوز عتبات الأخلاق المتعارف عليها في العصر، في تناول الأعراض والنساء ف"...المناقضة تحمل كلاً من الشاعرين على الغلو في هتك حرّامات الآخر، ونهش أعراضه والتشنيع بمخازيه، حقاً أو تخيلاً واختراعاً" وقد عرفت هذه الظاهرة نقداً عند الدارسين بحيث لم يستسيغوا أن يتجاوز الفحش في الكلام في العصر الإسلامي الفحش في العصر الجاهلي، أكمل أحمد الشايب تعليقه "حتى لا تعدّ هذه الصور خطوة جريئة وأمرًا غريباً في ظلّ الإسلام لم ترّ الجاهلية مثله أبداً...أمّا في هذه الفترة فكانت المناقضة البذيئة عنصراً هجائياً أصيلاً ولاسيما بين جرير والفرزدق".
- 3- أنه شعر فيه قدر من الطرافة والسخرية: قال عبد القادر القط عن هذا الجانب: "ولعلّ أطرف ما في هذه القصائد سخريتها وفكاهتها وبخاصة حين يتصل الأمر بالنساء، ولكنها تعدّ اليوم غليظة نابية لا مجال لتردادها"¹⁷.

¹⁵ - ينظر: أحمد الشايب: تاريخ النقائض في الشعر العربي، مكتبة النهضة المصرية، مصر، ط2، 1954، الفصل الخامس: في النقائض العامة.

¹⁶ - عبد القادر القط: في الشعر الإسلامي والأموي، دار النهضة العربية، بيروت، د.ط، 1987، ص352.

¹⁷ - أحمد الشايب، ص.ص. 411-412.

- 4- أنه شعر تكاد تكون معانيه داخله في أبواب: الأيام والأنساب والأحساب والدين والشعر والتماثل والحوادث الاجتماعية والمواقف السياسية¹⁸.
- 5- التأثر بالقرآن الكريم في إنشاء المعاني.
- 6- توظيف الكلمات الدالة على الهجاء والفحش فيه دلالة مباشرة صريحة وقد رافق هذه الحرفية "خيال خصب بيتكر الصور غير آبه بما يرتكب في سبيل ذلك من كذب وبهتان"¹⁹.
- 7- الميل إلى الاستقصاء.
- 8- الاعتماد على التكرار وترديد المعاني، وذلك لطول القصائد.
- 9- تداخل الهجاء والفخر في القصيدة الواحدة (وترد النقااض مستقلة في غرض دون الآخر).
- 10- الجزالة والقوة²⁰.

5. نموذج شعري من النقااض:

تقوم النقااض على عناصر أربعة هي:

- نقص المعاني.
 - وحدة الموضوع.
 - وحدة الوزن.
 - وحدة القافية.
- وفي القصيدتين فخر وهجاء وفي هاتين يفخر الفرزدق "كعاداته بعزة قبيلته ومجد آبائه وأجداده ويعير جريراً وقبيلته بضعف الشأن وقلة العدد، وجريير إلى جانب فخره وهجائه على هذا النحو يدور على معنى لا يكاد ينسأه في نقااضه هو أن بعض آباء الفرزدق كان قينا أي حداداً، مستغللتك الحقيقة ليولد منها كثيرا من الصور الساخرة الطريفة"²¹. وقد وردت القصيدتان في كتاب

¹⁸ - السابق، ص 257.

¹⁹ - نفسه، ص 417.

²⁰ - ينظر: في النقااض الأموية في تاريخ النقااض في الشعر العربي، مصدر منكور، ص.ص. 404-

²¹ - عبد القادر القط: في الشعر الإسلامي والأموي، ص 353.

النقائض - وهو أول كتاب ألف في هذا الفن - لأبي عبيدة معمر بن المثنى التيمي البصري
(ت209هـ) نقطف منه هذه الأبيات للشاعرين:

قال الفرزدق:

إِنَّ الَّذِي سَمَكَ السَّمَاءَ بَنَى لَنَا بَيْتاً دَعَائِمُهُ أَعَزُّ وَأَطْوَلُ
بَيْتاً بَنَاهُ لَنَا الْمَلِيكُ وَمَا بَنَى حَكْمُ السَّمَاءِ فَإِنَّهُ لَا يُنْقَلُ
بَيْتاً زُرَّارُهُ مُحْتَبٍ بِفِنَائِهِ وَمُجَاشِعٌ وَأَبُو الْفَوَارِسِ نَهْشَلُ
يَلِجُونَ بَيْتَ مُجَاشِعٍ وَإِذَا لِحْتَبُوا بَرَزُوا كَأَنَّهُمْ الْجِبَالُ الْمُتَلُّ
لَا يَحْتَبِي بِفِنَاءِ بَيْتِكَ مِثْلَهُمْ أَيْدَاءُ إِذَا عَدَّ الْفَعَالُ الْأَفْضَلُ
مِنْ عَرِهِمْ جَحَرَتْ كُليبٌ بَيْتِهَا زَرِباً كَأَنَّهُمْ لَدَيْهِ الثَّمَلُ
ضَرَبَتْ عَلَيْكَ الْعَنْكَبُوتُ بِنَسْجِهَا وَقَضَى عَلَيْكَ بِهِ الْكِتَابُ الْمُنْزَلُ
أَيُّنَ الَّذِينَ بِهِمْ تُسَامِي دَارِماً أَمْ مَنْ إِلَى سَلْفِي طُهَيْتَهُ تَجَعَلُ
يَمْشُونَ فِي حَلْقِ الْحَدِيدِ كَمَا مَشَتْ جُرْبُ الْجِمَالِ بِهَا الْكُحَيْلُ الْمُشْعَلُ
وَالْمَانِعُونَ إِذَا النِّسَاءُ تَرَادَفَتْ حَذَرَ السِّبَاءِ جِمَالِهَا لَا تُرْحَلُ²²

وأجابه جرير:

لِمَنْ الدِّيارُ كَأَنَّهَا لَمْ تُحَلِّ بَيْنَ الْكِنَاسِ وَبَيْنَ طَلْحِ الْأَعَزْلِ
وَلَقَدْ أَرَى بِكَ وَالْجَدِيدُ إِلَى بَلَى مَوْتَ الْهَوَى وَشَفَاءَ عَيْنِ الْمُجْتَلِي
أَعَدَدْتُ لِلشُّعْرَاءِ سُمّاً نَاقِعاً فَسَقَيْتُ آخِرَهُمْ بِكَاسِ الْأَوَّلِ
لَمَّا وَضَعْتُ عَلَى الْفَرَزْدَقِ مَيْسَمِي وَضَعَا التَّبَعِيثُ جَدَعْتُ أَنْفَ الْأَخْطَلِ
أَخْزَى الَّذِي سَمَكَ السَّمَاءَ مُجَاشِعاً وَبَنَى بِنَاءَكَ فِي الْحَضِيضِ الْأَسْفَلِ
بَيْتاً يُحِمُّمُ قَيْنُكُمْ بِفِنَائِهِ دَنَساً مَقَاعِدُهُ حَبِيبُ الْمَدْخَلِ
وَلَقَدْ بَنَيْتُ أَحْسَّ بَيْتِ يُبَيْتِي فَهَدَمْتُ بَيْتَكُمْ بِمِثْلِي يَنْبَلِ
إِنِّي بَنَى لِي فِي الْمَكَارِمِ أَوْلِي وَتَفَخْتُ كَيْرَكَ فِي الزَّمَانِ الْأَوَّلِ

²² - أبو عبيدة معمر بن المثنى: كتاب النقائض، نقائض جرير والفرزدق، الجزء الأول، وضع حواشيه خليل

عمران المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1988، ص.ص. 134-154 (104بيتاً).

أَعْيَتِكَ مَأْتَرُهُ الْقُيُونِ مُجَاشِعِ
فَإِنْظُرْ لَعَلَّكَ تَدَّعِي مِنْ نَهْشَلِ
وَأَمَدِحِ سَرَاةِ بَنِي فُقَيْمِ إِيَّاهُمْ
قَتَلُوا أَبَاكَ وَتَأْرَهُ لَمْ يُقْتَلِ²³

6. حقيقة النقائض:

إنّ السؤال الذي يتبادر إلى ذهن قارئ النقائض متعلّق بحقيّة هذه النقائض بمعنى هل فعلا كان التوتر بين هؤلاء الشعراء إلى هذه الدّرجة من الصراع الذي نتج عنه بذاءة في الكلام وقبح في الأعراض وتشميت بالأنساب وغير ذلك من التقييمات الأخلاقية السلبية التي عرفتها النقائض، إن إثارتنا لهذا السؤال تجد سندها في التعريف الاصطلاحي الذي أوردناه في مستهلّ درسنا والقول بأنّها كانت تتلى بشكل مسرحي في "المربد". والإشارة إلى المسرحية في هذا السياق قد تكون مرتبطة بما ورد في الدراسات التي تناولت إشكال التمثيل؛ بمعنى أنّ هذا الهجاء المثالب بين الشعراء إنما كان من باب المزاح والمناظرات الفكرية والمباريات الأدبية، وقد استندوا في ذلك أن العلاقة بين جرير والفرزدق لم تكن بهذا الشكل خاصة أنّ جريرا رثى الفرزدق؛ وقد ورد في تناول هذا الإشكال أربعة آراء؛ هي:

- 1) رفض رأي التمثيل/ في محمد الكفراوي: الشعر العربي بين الجمود والتطور.
- 2) قبول رأي التمثيل/ في عبد القادر القط: في الشعر الإسلامي والأموي.
- 3) لا نفي ولا إثبات/ في أحمد الشايب: تاريخ النقائض.
- 4) أن المسألة فيها (النقائض) كانت متطورة²⁴/ شوقي ضيف: التطور والتجديد.

7. قيمة النقائض:

وقد عدّ الدّراسون للنقائض قيما كثيرة منها:

- من حيث فوائدها اللغوية.
- من حيث مكانتها الأدبية والسياسية والاجتماعية.
- من حيث تصويرها للعصر²⁵.

²³- نفسه، 155/1-169 (62 بيتا).

²⁴- إحسان بن صادق اللواتي، فاطمة كريمي تركي: "فن النقائض نظرة في المفهوم والممارسة" في مجلة سرّ من رأى جامعة سامراء، مج16، ع62، السنة الخامسة عشر، آذار 2020، ص590.

²⁵- ينظر: أحمد الشايب: تاريخ النقائض، ص.ص. 445-465.



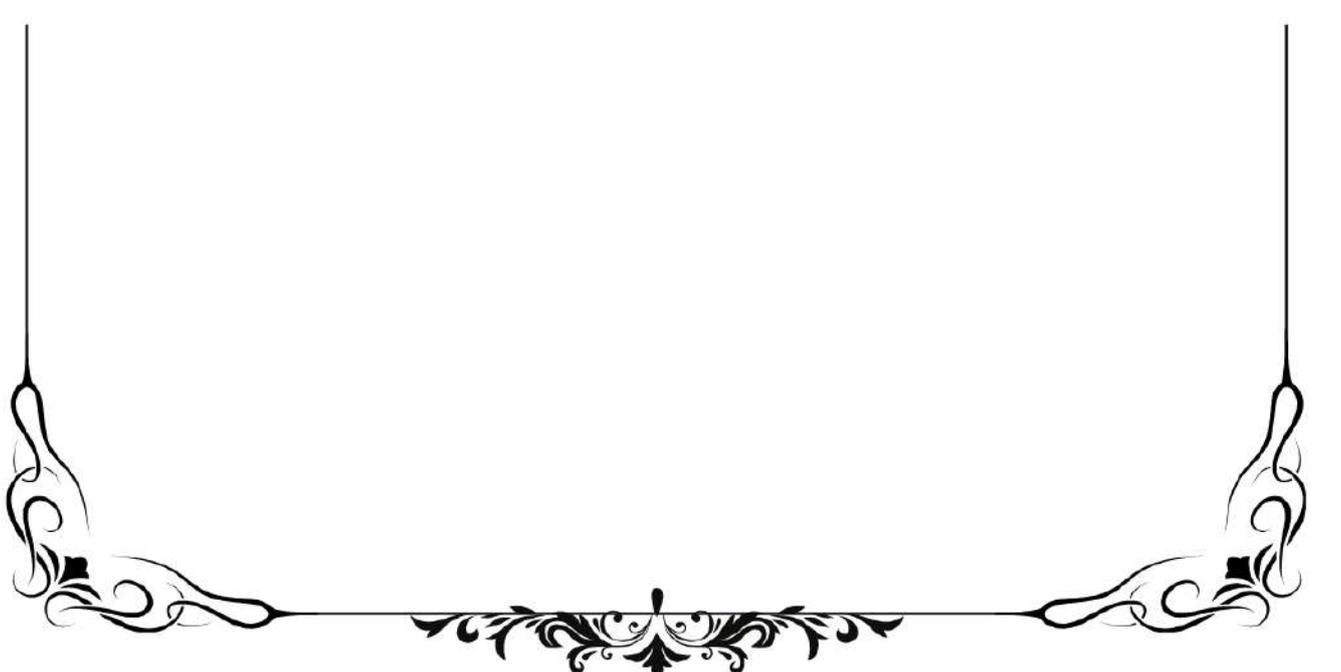
المحاضرة السابعة:
الغزل العذري والغزل العمري

مدخل: الغزل والنسيب والتشبيب

1. الغزل بين الجاهلية والإسلام (العصر الأموي)

2. الاتجاه العذري

3. الغزل العمري: الغزل الحسي



المحاضرة السابعة:

الغزل العذري والغزل العمري

مدخل: الغزل والنسيب والتشبيب

يأتي حديثنا عن الغزل في الشعر العربي القديم محدداً في نوعيه: العذري والعمري تنمّة لحديثنا عن تطوّر الشعر العربي القيد في عهد بني أمية، ذلك أن توصيف غرض الغزل بهذين الوصفين إنّما هو استحداث أموي بحكم انتشارها عند الشعراء آنذاك، كما سنبينه في العناصر التي سنعرض لها. ويتطلب تناولنا لشعر الغزل الإشارة إلى استدعاء مفردة الغزل مفردتي النسيب والتشبيب، وقد قال ابن الرشيقي إن "النسيب" و"التغزل" و"التشبيب" بمعنى واحد، وإن كانت المعاجم العربية تفرّق بينهما، ف:

1-التشبيب: دلالة الأصل فيه -شَبّ- نماء الشيء وقوته في حدارة تعنّيه وكذلك شببت الحرب إذا أوقدتها، وشببت النار، والشباب مشتق من ذلك-وهو خلاف الشيب، وهو الفتاء والحدائثة. وتشبيب الشعر ترقيق أوله بذكر النساء، وهو من تشبيب النار وتأريثها، وشبّب بالمرأة: قال فيها الغزل والنسيب - هو يشبّب بها أي ينسب بها. والتشبيب: النسيب بالنساء...وتشبيب الشعر: ترقيقه بذكر النساء¹.

2- النسيب: والأصل فيه اتصال الشيء بالشيء - والنسيب في الشعر إلى المرأة كأنّه ذكر يتصل بها²؛ وهو رقيق الشعر في النساء، فنسب بالنساء شَبّب بهنّ في الشعر وتغزل³.

3- الغَزَل: وهو :

- حديث الفتيان والفتيات.

- اللهو مع النساء.

- ومغازلة النساء: محادثتهن ومرادوتهن.

¹- ينظر: (1)- أحمد بن فارس: معجم مقاييس اللغة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 2008، ص 500.

(2)- ابن منظور: لسان العرب، المجلد الخامس، دار الحديث، القاهرة، 2003، ص 11.

²- أحمد بن فارس، ص 988.

³- ابن منظور: 530/8.

- والتغزل: تكلف الغزل.⁴

وبناء على هذه الدلالات اللغوية فإن التقاطع بين هذه الألفاظ قوي والمدار فيه:

- الابتداء: القوة والشباب.

- الاتصال.

- الحديث والمرادة.

وقد تألفت هذه المعاني لتحديد شعر الغزل بأنه شعر المرأة، وقد فسّر قدامة بن جعفر ذلك فقال عن تداخل الغزل والنسيب: "إن النسيب ذكر خلق النساء وأخلاقهن وتصرف أحوال الهوى به معهن، وقد يذهب على قوم أيضا موضع الفرق بين النسيب والغزل، والفرق بينهما إن الغزل هو المعنى الذي إذا اعتقده الإنسان في الصبوة إلى النساء نسب بهنّ من أجله فكأنّ النسيب ذكر الغزل، والغزل المعنى نفسه. والغزل إنّما هو التصابي والاستهتار بمودات النساء..."⁵. أمّا ابن الرشيقي فقد فسّر اشتقاق التشبيب لهذا الغرض بأمرين: أن يكون لذكر الشبيبة: الشباب وأصله الارتفاع. أن يكون من الجلاء: قال «شبّ الخمار وجه الجارية، إذا جلاه ووصفه ما تحته من محاسنه؛ فكأن هذا الشاعر قد أبرز هذه الجارية في صفته إيّاها وجلاها للعيون»⁶.

1. الغزل بين الجاهلية والإسلام (العصر الأموي):

1.1. الجاهلي:

تميز الشعر العربي قبل الإسلام بسمة الغنائية الدالة على الجانب الوجداني فيه، فقد كان للموقع الجغرافي وما تبعه من ظروف آثار في فرض نظام حياة قائم على الحلّ والترحال؛ انعكس على الجوانب النفسية للأفراد وعلاقتهم بالمحيط وتعلّقهم به، فسّن الشعراء لأنفسهم ذكرى المنازل

⁴ - السابق: 620/6، والغزل ثلاثة معاني، ينظر في تألفها: حسان أبو رحاب: الغزل عند العرب، مطبعة

مصر-شركة مساهمة مصرية، القاهرة، ط1، 1947.

⁵ - قدامة بن جعفر: نقد الشعر، تحقيق وتعليق محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت،

ص134.

⁶ - ابن الرشيقي القيرواني: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ج2، دار الطلائع، القاهرة، ط1، 2006،

ص110. ينظر في: ظبط الفروق بين المصطلحات: تهميش رقم 1 ص102 في كتاب الحياة الأدبية-عصر بنو أمية، لمحمد عبد المنعم خفاجي، مرجع مذكور.

والأحبة؛ فجاءت ابتداءاتهم مطلية غزلية جامعة بين المرأة والمكان والماضي، ومن هذا الجانب كان الشاعر الجاهلي مولعا بذكر المرأة، فأكثر من ذكر النساء فتعددت أسماء المحبوبات -سواء كنّ حقيقة أم خيالاً-. وبموجب هذه الكثرة علّق شكري فيصّل معتبراً الشعر الجاهلي كلّه قطعة ذهبية ذات صفحتين: وجه منها نقشت عليه العواطف والانفعالات من جرّاء الحبّ وصلا وهجرا، وجمع الوجه الثاني كلّ أغراض الشعر الأخرى⁷.

وبموجب هذه الكثرة أثّرت إشكالات نقدية وأدبية تناولته نلخصها في النقاط الآتية:

- هل هو تقليد أدبي قال فيه الشاعر إتباعا
 - أم أنّه جاء تعبيراً صادقا عن مشاعر الذات المحبّة
 - هل القصد منه استمالة السامع لأجل العطاء خاصة
- وغير هذه المسائل كثير خاض فيها النقد العربي وكثرت الأقوال والرؤى في مناقشتها ممّا لا يسعنا ذكره هنا.

واللافت للنظر أن الغزل في الشعر الجاهلي طرق موضوعين:

- ذكرى الحبيبة في الوقوف على الأطلال وفي مشاهد الترحال وما خلفه البين والفرق فيه من لوعة وألم وحزن؛
 - وصف المحاسن الجسدية والجرأة على تصوير العلاقات في شكل إباحي.
- واتخذ الموضوعان شكل اتجاهين شعريين كبيرين هما: الغزل العفيف والغزل الحسي⁸.
- (1) **الغزل الحسي:** وهو كما يشير إليه وصفه قائم على الحس، والمرأة فيه موضوع خارج وجدان الشاعر واقعة تحت حسّه البصري ورغبته فيها باعتبار جسدا مثيرا للوصف؛ فهي موضوع جمالي شعري/مادي: مستثمر شعرا وواقعا. وقد انقسم هذا النوع إلى صنفين: فاحش وغير فاحش؛ أمّا غير الفاحش فقد استقر على وصف مواطن الجمال في المرأة؛ على نحو ما جاء عند الحادرة (قطبة بن أوس بن محصن بن جرول... من غطفان. والحادرة أو الحويدرة: الضخم)، قال واصفا:

⁷- شكري فيصّل: تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام من امرئ القيس إلى ابن أبي ربيعة، مطبعة جامعة دمشق، 1959، ص03.

⁸- يوسف حسين بكار: اتجاهات الغزل في القرن الثاني الهجري، دار المعارف، مصر، د.ت، ص14.

بَكَرَتْ سُمَيَّةُ غُدْوَةً فَتَمَّتَّحَ وَغَدَّتْ غُدُوَ مُفَارِقٍ لَمْ يَرْجِعْ
 وَتَرَوَّدَتْ عَيْنِي غَدَاةً لَقِيْتُهَا بِلَوَى عُنَيْرَةً نَظْرَةً لَمْ تَنْفَعِ
 وَتَصَدَّقْتُ حَتَّى اسْتَبْتَكِ بِوَاضِحٍ صَلَّتِ كَمُنْتَصِبِ الْغَزَالِ الْأَتْلَعِ
 وَبِمُقَلَّتِي حَوْرَاءَ تَحْسُبُ طَرْفَهَا وَسِنَانَ حُرَّةٍ مُسْتَهْلٍ الْأَدْمُعِ

و أما الفاحش فقد تجاوز الوصف الخارجي إلى الإفحاش في سرد العلاقات والتصويرات الإباحية متجاوزا بذلك الأخلاقيات المتعارف عليها في مجتمع بدوي مثل المجتمع العربي، وما ساعد على ظهوره والقول فيه بعض العوامل:

- وجود دور للعبث واللهو واللبغاء .
- كثرة القيان ودوره في نشر الابتذال.

- تأثر الشعراء بالبيئات التي كانوا يرحلون إليها -مثل الأعشى-

ومن ممثلي هذا الاتجاه: امرؤ القيس والأعشى.⁹

(2) الغزل العفيف: وقد نحا ممثلو هذا الاتجاه منحى مغايرا للأول، فقد كانت عواطفهم

المتأججة مصدر إلهامهم الشعري، وعلى قلة هذا النوع من الغزل، فقد جاء:

- صادق العواطف ملتهب المشاعر.
- فيه يأس وقنوط.
- فيه حرمان وألم وشكوى.¹⁰

2.1. الأموي:

لم يكن شعر الغزل ديدن الشعراء في صدر الإسلام فتراجع الغزل بنوعيه فاحش وعفيف، فقد انشغل الشعراء بالدُّود عن الدعوة إلى الله، وترتب على ذلك وجوب تهذيب السلوك والقول بما هو موافق لأسس هذه الدعوة، ولكن بعد انتهاء عصر الراشدين وإخماد نار الفتنة بين الخوارج والزيبريين والأمويين واستقرّ الحكم لبني أمية وأثمرت الفتوحات وامتألت خزائن الدولة فأعدقت الأموال، واستقرّ

⁹- السابق، ص15.

¹⁰- نفسه، ص19.

الأمن، عندها أحسّ الناس الفراغ فأحيوا الغزل كما أحيوا الهجاء في شكله الأموي: النقائض واستحدثوا لهم أساليب فنّ.

عرف الغزل في العصر الأموي شيوعاً واسعاً وتطوّراً سريعاً، فضلاً عن الاتجاهين السابقين فقد ظهر نوعان أشكلا على الدارسين: الغزل التقليدي وغزل لم يستقر الباحثون على اسم له فورد في مسميات هي:

- الغزل الهجائي: عند طه حسين، نشأ في العهد الأموي على يد عبيد الله بن قيس الرقيات.

- الغزل الكيدي: عند الحوفي، موجود من الجاهلية.

- الغزل السياسي: عند شكري فيصل: أصحابه فرع من مدرسة عمر بن أبي ربيعة انصرفوا

عن السياسة كرها.¹¹

وعلى هذا الأساس رأى حسين بكار أنّ أهمّ اتجاهات الغزل في العهد الأموي هي: الاتجاه الحسي والاتجاه العفيف والاتجاه التقليدي.

ولمّا كان موضوعنا خاصاً بالاتجاهين الحسي والعفيف فإنّنا نقتصر في هذا السياق على ذكر المقصود من الغزل التقليدي دونهما، وهو كما حدّده حسين بكار: "...لا يعدو أن يكون صورة مكرّرة عن الغزل القديم عند كثير من الشعراء، من مثل الأخطل والفرزدق وجربير والرّاعي النميري وغيرهم ممن انحصر غزلهم في مقدّمات القصائد، فوقفوا على الأطلال وديار الأحبة وصفوها ودعوا إلى تحية أهلها ومخاطبتهم؛ وأكثروا من ترداد الأسماء المعروفة للنساء والأمكنة، كما أكثروا من ذكر العذال والوشاة والرقباء، وشكوا من نقض العهود وإخلاف المواعيد، وتألّموا من المماطلة والتسوية وحنا إلى أيام الشباب وذمّوا الشيب لأتّه مدعاة لصدود النساء"¹².

2. الاتجاه العذري:

1.2. التسمية والوصف:

مؤدّ تسميته ووصفه بالعذري إلى أصل نشأته وذيوعه في قبيلة بني عذرة؛ وعليه فإنّ التسمية والوصف متأتّيان من باب النسبة، وقبيلة بني عذرة إحدى القبائل العربية من بني قضاة تنزل في

¹¹ - السابق، ص.ص. 20-21.

¹² - نفسه، ص.25.

وادي القرى شمال الحجاز، "اشتهر شبابها بالحبّ البريء الصادق، والهوى العفيف المضني، والموت في سبيل المحبوب. حتى قيل لرجل منهم: "ما بال العشق يقتلكم يا بني عذرة؟ فقال: لأنّ فينا جمالا وعفة"¹³.

ومن هذا المنطلق التصق هذا الوصف في الحبّ والتعبير عنه شعراً على مجموعة من الشعراء مثلوا التيار نفسه (كان رائدهم جميل بن معمر المشهور بجميل بثينة): "يروى أن سائلاً سأل رجلاً من هذه القبيلة ممّن أنت: قال: من قوم إذا عشقوا ماتوا؛ ويروى أيضاً أن سائلاً سأل عروة بن حزام العذري صاحب عفراء: أصحيح ما يروى عنكم من أنكم أرقّ الناس قلوباً؟ فأجابه نعم ! والله لقد تركت ثلاثين شاباً قد خامرهم الموت ومالهم من داء إلاّ الحبّ"¹⁴. وسواء صدقت هذه الروايات أم كانت نسيج خيال الرواة فإنّ الغزل العذري هو الغزل العفيف الطاهر المتسامي عن الحسيّاتورغباتها المادية، ولمّا كان هذا هو جوهره جاء: صادق العاطفة، عفيف القول، إنساني المعاني.

"قد عرف بعضهم بعض، وتناشد بعضهم أشعار بعض، وانصرفوا انصرافاً يكاد يكون تاماً عمّا كان المجتمع العربي يضطرب به من أحداث كبرى وصراعات عنيفة في ميدان السياسة أو غير ميدان السياسة، كما انصرفوا -غالباً- عمّا اعتاد غيرهم من الشعراء أن يلتفتوا إليه من تجارب في الوصف أو الرحلة أو المدح أو الرثاء، وداروا جميعاً في فلك تجارب واحدة تقريباً هي تجارب العشق المقترن باللوعة والإخفاق والحرمان، فتشابهت تجاربهم في إطارها العام مع بعض الاختلاف في التفاصيل والبدائيات والنهايات"¹⁵.

2.2. المفهوم والنشأة:

يمثّل الغزل العذري باعتباره مفهوماً أدبياً شعرياً نوعاً واحداً من أنواع الغرض العام: الغزل/النسيب الذي يكاد يكون أكثر غرضاً فيه العرب، لما فيه من رقّة إحساس وسهولة لفظ؛ والعذري منه أشدّ رقّة وأسهل قولاً وأقوى تأثيراً. ولمّا كان هذا النوع من الشعر مفرط الذاتية فإنّ تعاريفه الواصفة

¹³ - محمد عبد المنعم خفاجي: الحياة الأدبية - عصر بني أمية - دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط2، 1973، ص123.

¹⁴ - شوقي: تاريخ الأدب العربي، العصر الإسلامي، دار المعارف، مصر، ط7، د.ت، ص359.

¹⁵ - صلاح الدين الهادي: اتجاهات الشعر في العصر الأموي، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1، 1986، ص427.

انبتت على أسلوب أدبي في محاولتها محاصرة مفهومه وضبطه؛ وعليه فقد اخترنا قولاً طويلاً لإجلاء المفهوم والمقصود منه، وهو الصورة التي وردت عليها أشعار العذريين:

"الغزل العذري ضرب من الغزل مشبوب العاطفة، لا ينبعث عن مجرد الشعور بالتعاطف والحب بين رجل وامرأة وإنما يقوم أساساً على نوع من العشق عفيف. والعشق كما يقولون: ملك قاهر، مسالكة لطيفة، ومذاهبه غامضة، وأحكامه جائرة، ملك الأبدان وأرواحها والقلوب وخواطرها والعيون ونواظرها والعقول وآراؤها، وأعطى عنان طاعتها، وقوى تصرفها. وهو بهذا أشبه بقوى خفية، لا يوقف على كنهه، ويدق على العقول إدراكه، هو كما يقول الشاعر:

ونارُ الهوى تخفى، وفي القلب فعلها
كفعل الذي جادت به كف قاذح
وإنما يعرف العشق بأثاره، حيث يعظم سلطانه على القلب، ثم يتغشى على سائر الأعضاء، فيبدي الرعدة في الأطراف والصفرة في الأبدان والجلجلة في الكلام والضعف في الرأي. والعفيف منه ينحل الجسم، ويسقم النفس وقد يفضي إلى ذهاب العقل، يجده مرور الزمن، ولا تقسده ولا تغيره إساءة المحبوب على الدوام وفي آثار هذا الضرب من العشق يقول قيس بن ذريح:

وَلِلْحَبِّ آيَاتٌ تُبَيِّنُ لِلْقَتَى
شُحوباً وَتَعْرِى مِنْ يَدَيْهِ الْأَشَاحِمُ

ويقول مجنون ليلى:

إن جننت فهاتوا من جننت به
إن كان يشفي جنوني لا تلوموني "

والعشق بعمامة يختلف باختلاف الأمزجة، وتباين الطباع، منه ما هو سريع التعلق والزوال، ومنه بطيء التعلق والزوال، ومنه سريع التعلق بطيء الزوال. ومنه ما هو على العكس، وهو على كل حال ليس موكولاً إلى رأي فيملكه ولا إلى عقل فيدركه¹⁶.

كشف القول عن مقومين أساسيين من مقومات الغزل العذري وقد ميّزه عن خطابات الغزل الأخرى وسما لنا بتحديد هويته وعليه فإنه:

- شعر عاطفي يقوم على عشق عفيف (وقد وضح المقصود بالعشق والعفة).

¹⁶ - السابق، ص.ص. 425-426.

- تظهر آثار العشق في جسد العاشق/ الشاعر وأبرزها: الذهاب بالعقل كما هو أمر قيس بن الملوّح وقيس بن ذريح.

3.2. نشأة الغزل العذري:

يطرح الغزل العذري بتسميته هذه إشكال النشأة، فانقسمت المواقف منه بين رأيين متباعدين:

(1) الرأي الأول: يرى أصحاب هذا الرأي أن الغزل ذري هو ابن البيئة الإسلامية وقد كان أثر الإسلام واضحا فيه، ومن الذين تبناوا هذا الرأي طه حسين وتبعه في هذا الرأي عدد من الدراسين نذكر منهم شكري فيصل الذي صرح أن نشأة هذا النوع من الغزل محددة تاريخيا بعصر بني أمية قال: "والأمر مع ذلك يبدو بسيطا، فهذا الغزل العذري يجب أن يكون أثرا لتربية جيل جديد تربية صادقة صارمة، هذا من نحو، ويجب أن يكون أثرا لنوع من الحياة الاجتماعية تعرف الاستقرار وتساعد عليه من نحو آخر - وكلا هذين الأمرين لم يتوفرا معا إلا في عصر بني أمية"¹⁷.

(2) الرأي الثاني: في حين عارض باحثون هذا الرأي وفنّدوه واعتبروه امتداداً للشعر العفيف، فنقتصر على نقل رأي محمد عبد العزيز الكفراوي الذي رفض بقوة أن يكون هذا الغزل ثمرة إسلامية وذلك لاعتبارات ذكرها، قال: "والغزل المسمى بالعذري أو العفيف مفترى عليه أيضا أو على الإسلام فيه، ويشق علينا أن نرانا مضطرين إلى مخالفة رأي بعض أساتذتنا حوله، حيث ذهب إلى أن هذا النوع من الغزل كان نتيجة من نتائج التقوى والزهد والتصوف والمثل الأعلى في الحياة الخلقية وغير ذلك من الأمور التي جاء بها الإسلام، ولست أرى مبررا لمثل هذه الدعوى"¹⁸.

4.2. أعلامه:

مثل هذا الاتجاه مجموعة من الشعراء نذكر منهم من الذين لزم ذكرهم أسماء محبوباتهم: جميل بثينة، مجنون ليلي، مجنون بني عامر، قيس لبنى، كثير عزة، عروة وغفران، ونذكر ممن سواهم: توبة بن الحمير صاحب ليلي الأخيلية؛ نصيب بن رباح؛ الصمة بن عبد الله، طفيل القشري وغيرهم، وقد ذكرهم صاحب الأغاني مفصّلا أخبارهم ولا يسعنا في هذا المقام أن نتحدث عنهم

¹⁷ - شكري فيصل: تطوّر الغزل بين الجاهلية والإسلام، ص 235.

¹⁸ - الكفراوي: الشعر العربي بين الجحود والتطور، ص 59.

جميعهم، فنقتصر على من كان له صيت في تمثيل هذا الاتجاه، وقد روت كتب الأدب أن هؤلاء الشعراء "قد عرف بعضهم بعضاً، وتناشد بعضهم أشعار بعض، وانصرفوا انصرافاً يكاد يكون تاماً عما كان المجتمع العربي يضطرب من أحداث كبرى وصراعات عنيفة في ميدان السياسة، كما انصرفوا غالباً -عماً اعتاد عليه غيرهم من الشعراء أن يلتفتوا إليه من تجارب في الوصف أو الرحلة أو المدح أو الرثاء وداروا جميعاً في فلك تجارب واحدة تقريباً هي تجارب العشق المقترن باللوعة والإخفاق والحرمان، فتشابهت تجاربهم في إطارها العام مع بعض الاختلاف في التفاصيل والبدائيات والنهايات"¹⁹.

1- جميل بثينة (ت82هـ):

وهو الرائد الأوّل لهذا الاتجاه في العصر الأموي وهو جميل بن عبد الله بن معمر، منعدرة وعرف بجميل بثينة، وبثينة ابنة عمّه علقها صغيراً ولم يرها حتى شبّت ومن أوّل ما قاله فيها:

وَأَوَّلُ مَا قَادَ الْمَوَدَّةَ بَيْنَنَا بُوَادِي بَغِيضٍ يَا بُثَيْنَ سَبَابُ
وَقُلْنَا لَهَا قَوْلًا فَجَاءَتْ بِمِثْلِهِ لِكُلِّ كَلَامٍ يَا بُثَيْنَ جَوَابُ

أورد بطرس البستاني في تقديمه للديوان قصة التعلق الواردة في هذين البيتين قال: "قيل إنّ جميلاً أقبل يوماً بإبله حتى أوردها واديا يقال له "بغيض" فأضجع وأرسل إبله مصعدة، وأهل بثينة بذيل الوادي، فأقبلت بثينة وجارة له وارتدت فمرتاً على فصال لجميل بروك، فضربت بهن بثينة، وكانت حينئذ جويرية لم تدرك، فسبها جميل فسبته، فملح إليه سبابها وأحبها"²⁰ وقد قصر شعره عليها، نورد بعضه مقتطفاً من ديوانه:

قال:

لقد أورتُ قلبي وكان مصححاً بثينةً صدغا يوم طار رداؤها
إذ حطرت من نكر بثينة خطرةً عصتني شؤون العين فانهلّ ماؤها
فإن لم أزرها عادني الشوق والهوى وعاود قلبي من بثينة داؤها

¹⁹ - صلاح الدين الهادي: اتجاهات الشعر في العصر الأموي، ص427.

²⁰ - جميل بن معمر: الديوان، تقديم بطرس البستاني، دار صادر بيروت، د.ت، ص24.

وكيف بنفس أنت هيجت سقمها
ويمنع منها يا بئين شفاؤها
وقال أيضا:

وَمَا أَنْسَ مِنَ الْأَشْيَاءِ لَا أَنْسَ قَوْلَهَا
وَلَا قَوْلَهَا لَوْلَا الْعُيُونُ الَّتِي تَرَى
خَلِيلِيَّ مَا أَلْقَى مِنَ الْوَجْدِ بَاطِنٌ
أَلَا قَدْ أَرَى وَاللَّهِ أَنْ رَبِّ عُبْرَةٍ
إِذَا قُلْتُ مَا بِي يَا بُنَيَّةُ قَاتِلِي
وَإِنْ قُلْتُ رُدِّي بَعْضَ عَقْلِي أَحْسَ بِهِ
فَلَا أَنَا مَرْدُودٌ بِمَا جِئْتُ طَالِبًا
جَزَّتْكَ الْجَوَازِي يَا بُنَيَّةَ سَلَامَةً
قُولُونَ جَاهِدِ يَا جَمِيلُ بَغْزَوَةَ
لِكُلِّ حَدِيثٍ بَيْنَهُنَّ بَشَاشَةٌ
وَقَدْ قُرَيْتَ نَضْوِي أَمَصَرَ تُرِيدُ
لُرُرْتُكَ فَأَعْذُرْنِي فَدَتَكَ جُدُودُ
وَدَمَعِي بِمَا أَخْفَى الْعِدَاءَ شَهِيدُ
إِذَا الدَّارَ شَطَّتْ بَيْنَنَا سَتْرِي
مِنَ الْحَبِّ قَالَتْ ثَابِتٌ وَيَزِيدُ
تَوَلَّتْ وَقَالَتْ ذَاكَ مِنْكَ بَعِيدُ
وَلَا حُبُّهَا فِيمَا يَبِيدُ يَبِيدُ
إِذَا مَا خَلِيلٍ بَانَ وَهُوَ حَمِيدُ
وَأَيَّ جِهَادٍ غَيْرُهُنَّ أُرِيدُ
وَكُلُّ قَتِيلٍ عِنْدَهُنَّ شَهِيدُ

مميزات شعره:

ميّز شعر جميل بن معمر ميزات:

- أهمّ ميزة هي استقلال الغزل بقصائد خاصة وهو ما جعل له وحدة موضوعية بخلاف القصيدة القديمة.
 - غلبة المعاني القطرية على شعره تبرز صدقه ومن الموضوعات التي احتوت هذه المعاني:
العفة والطهر، شكوى الحرمان وصدّ الحبيبة.
 - توافر التنعيم الموسيقي.
 - حرارة العاطفة وصدقها.²¹
- وهي خصائص مشتركة بين ممثلي هذا الاتجاه.

²¹- ينظر في تفصيلها: زكريا عبد المجيد النوتي: الأدب الأموي تاريخه وقضاياه، مطبعة الحسين الإسلامية، مصر، ط1، 1992، ص.ص. 178-180.

3. الغزل العمري: الغزل الحسي

1.3. التسمية والنشأة:

تأتي تسميته نسبة إلى عمر بن أبي ربيعة باعتباره رائداً فيه. ومثله مثل الغزل العذري يعرف إشكال النشأة بين السير على منوال النموذج الجاهلي وبين الابتداع الإسلامي، فانقسمت الآراء فيه نفس التقسيمين المذكورين سابقاً. كما يأتي دالاً على الغزل الحسي الذي تميّز بالفحش والمجون والجرأة على التصريح بالاستهتار بالأخلاق الإسلامية؛ فتحرّر أصحابه من قيد القيم السائدة آنذاك.

2.3. عمر بن أبي ربيعة:

وردت أخبار الشاعر في الأغاني مفصلة فبلغت 146 صفحة من الحجم الصغير - في نسخة موفم التي اعتمدها - وهو ما يدلّ على لا يسعنا ذكره: قال: "هو عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة واسم أبي ربيعة حذيفة بن المغيرة عبد الله بن عمر بن مخزوم.... ويكنى عمر بن أبي ربيعة "أبا الخطاب". وكان أبو ربيعة جدّه يسمّى "ذا الرّمحين" سمّي بذلك لطوله.... وأمّ عمر بن أبي ربيعة أمّ ولد يقال لها "مجدّ" سببت بحضر موت، ويقال من حمير. أبو معلم ومحمد بن سلام: هي من حمير ومن هناك أتاه الغزل، يقال: غزل يمانى ودلّ حجازي.... ولد يوم قتل عمر بن الخطاب* لم يكن ذكر قبله في الشعر قال صاحب الأغاني: "كانت العرب تقرّ لقريش بالتقدم في كلّ شيء عليها إلا الشعر فإنّها كانت لا تقرّ لها به حتى كان عمر بن أبي ربيعة، فأقرّت لها الشعراء بالشعر أيضاً ولم تنازعه شيئاً" ومما كان دليلاً على توجّهه الماجن في الشعر قول الأصفهاني: "قال إسحاق وأبو المقوم الأنصاري: ما عصى الله بشيء كما عصى بشعر عمر بن أبي ربيعة".²²

وقد أشار شكري فيصل إلى مجموعة من ملامح حياة الشاعر كانت له آثار مباشرة في تقييم

شعره وتوصيفه بالغزل الحسي، وهي:

- التخصص والانقطاع للتصابي

- استثمار موسم الحجّ لمقابلة النساء ومغازلتهم.

* - ولد في 644م، توفي في 93هـ/71م.

²² - أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني 1/55-201.

- الانصراف إلى الطبقة الراقية من النساء .
- حظوته عند النساء بخاصة وشغفهن بغزله فيهن .
- رجولته الضعيفة .
- الأسمار والأحاديث التي شيع أنّها كثرت في مكّة في عصره.²³

وقد كانت هذه الملامح إشارات قرآنية للدارسين تناولوا عالم الشاعر من خلالها فلم يفصلوا بينها وبين شعره وما يمكن أن يكون عليه من تخييل دون أن يكون ممارسة حياتية واقعة فعلا، ولا يمكننا الجزم بكلّ هذه الإشارات، ذلك أن المجتمع المكّي (نسبة إلى مكّة المكرمة) الذي نشأ فيه؛ وإن كان قد اغتنى وتحضّر وربّما اختلط بجنسيات من الجوّاري والخدم بما جلبته الفتوحات لم يكن لتشيع الأخلاقيات الماجنة لمبادئ الإسلام المسرودة قصص غرامية في شعره.

وقبل أن يصبح هذا النوع متصفا باسم عمر شاع في الأوساط المختلفة بمسميات هي:

- (1) الغزل الحسيّ: وذلك لأنّ المرأة فيه موضوع موصوف وصفا حسيا خارجيا وقد جلبت له هذه التسمية جملة من الأوصاف: فهو غزل حسي ماجن وفاحش وإباحي وصريح لما فيه من هتك للحرّات وجرأة على التصريح بالمحرّمات خاصة أنّه كان سوقا للمغنيين والمغنيّات.
- (2) الغزل الحضري: مقابلة له بغزل أهل البادية (العفيف/ العذري) ويقترن بهذه التسمية وصفه بالحجازي نسبة إلى حجاز.

(3) الغزل اللاهي: وقد نفى صلاح الدين الهادي أن يكون الغزل الحسيّ في العصر الإسلامي ويقصد الأموي مشابها للغزل الجاهلي من حيث الإباحية والفحش والمجون الواردة مثلا عند امرئ القيس والأعشى والمنخل اليشكري، وقد أسّس لرفضه فكرة التشابه من مبدأ أن الحجاز ومكّة خاصة هي مبعث الرسالة وكان لا يزال فيها الصحابة الكرام وأبنائهم قال: يكاد يخلو الغزل الحجازي اللاهي من المجاهرة بالفحش والإلحاح على المعاني المكشوفة، والانحراف إلى العبارات الفاضحة ومن كان لشعرائه أن يجروا على هذه المجاهرة أو الكشف فأقليمهم منبع الدعوة الإسلامية وموطنها الأوّل²⁴.

²³ - شكري فيصل: الغزل بين الجاهلية والإسلام، ص.ص. 301 وما بعدها.

²⁴ - صلاح الدين الهادي: اتجاهات الشعر في العصر الأموي، ص.412.

3.3. مميزات الغزل العمري:

(1) التغزل بالمرأة الحضرية: أهمّ ميزة فارقة بين الغزل العمري والغزل الجاهلي أنّ موضوعه هي المرأة الحضرية التي أتيحت لها بعض نسمات الحرّية تحت تأثير الحياة الجديدة -مع الفتوح- وقد سجل المفارقة بين المرأتين فهي مترفة منعمة تخدمها جوار:

وَلَقَدْ قَالَتْ لَجَارَاتِ لَهَا كَالْمَا يَلْعَبْنَ فِي حُجْرَتِهَا
حُذْنٌ عَنِّي الظِّلَّ لَا يَتَّبِعُنِي وَمَصَّتْ تَسْعَى إِلَى قُبَّتِهَا²⁵

(2) صورة المعشوق لا العاشق: وهي صورة طغت على عمر بن أبي ربيعة حتى أصبحت أهمّ ميزة يعرف بها. فقد حوّل اتجاه الغزل العربي من صورة الشاعر العاشق إلى صورة المعشوق وهو بذلك "يعبّر عن تطوّر جديد في الحياة العربية فقبله لم تكن نعرف شاعرا يصبح شخصه موضوع الغزل في غزله، إنّما شخص المرأة هو الموضوع المعروف للغزل. وبعبارة أخرى كانت المرأة قبل غزل ابن أبي ربيعة هي المعشوقة، أمّا في غزله فقد تحوّلت إلى عاشقة، كما تحوّل عمر نفسه من عاشق إلى معشوق"²⁶. قال:

نَقُولُ وَعَيْنُهَا تُدْرِي دُمُوعاً لَهَا نَسَقٌ عَلَى الخَدَّيْنِ تَجْرِي
أَلَسْتُ أَقَرَّ مَنْ يَمْشِي لِعَيْنِي وَأَنْتِ الهمُّ فِي الدُّنْيَا وَذِكْرِي
أَمَا لَكَ حَاجَةٌ فِيمَا لَدَيْنَا تَكُنْ لَكَ عِنْدَنَا حَقًّا فَأَدْرِي
أَمِنْ سَخَطٍ عَلَيَّ صَدَدْتِ عَنِّي حَمَلْتَ جِنَارَتِي وَشَهَدْتَ قَبْرِي
أَشْهَرًا كُلَّهُ إِلَّا ثَلَاثًا أَقَمْتُ عَلَى مُصَارَمَتِي وَهَجْرِي²⁷

(3) توظيف القصة: وهي ميزة أخرى لافتة في شعره، فليس شعره تعبيراً على الوله والاشتياق والألم وما شابهه، إنّما هو قصص مغامرات حيّة نابضة بالحركة والحوار والوصف اللافت

²⁵- شوقي ضيف: التطوّر والتجديد في الشعر الأموي، ص224.

²⁶- نفسه، ص229.

²⁷- ديوان عمر بن أبي ربيعة: قدّم له ووضح هوامشه وفهارسه فايز محمد، دار الكتاب العربي، بيروت،

ط2، 1996، ص152.

للنظر، فلا تكاد تخلو قصائده من حسّ قصصي قوامه الحوار سواء كان هو عنصر فعال فيه أم كان حديث الفتيات عنه ولعلّ فاتحة الديوان أبرز دليل على هذه الميزة في شعره؛ قال:

حَدَّثَ حَدِيثَ فَتَاةٍ حَيٍّ مَرَّةً بِالْجِزَعِ بَيْنَ أَدَاخِرِ وَحَرَاءِ
قَالَتْ لِجَارَتِهَا عِشَاءً إِذْ رَأَتْ نُرَّةَ الْمَكَانِ وَغَيْبَةَ الْأَعْدَاءِ
فِي رَوْضَةٍ يَمَّمْنَهَا مَوْلِيَّةٍ مَيْثَاءَ رَابِيَةِ بُعِيدِ سَمَاءِ
فِي ظِلِّ دَانِيَةِ الْغُصُونِ وَرَيْقَةٍ نَبَّتَتْ بِأَبْطَحِ طَيِّبِ الشَّرِيَاءِ
وَكَأَنَّ رَيْقَتَهَا صَبِيرُ غَمَامَةٍ بَرَدَتْ عَلَى صَحْوِ بُعِيدِ ضَحَاءِ
لَيْتَ الْمُغِيرِيِّ الْعَشِيَّةَ أَسْعَفَتْ دَارًا بِهِ لِتَقَارِبِ الْأَهْوَاءِ²⁸

(4) الرسائل: ولما كان عمر هو موضوع شعر وهو مطلوب في الأحياء الكثيرة فقد لجأت المرأة إلى مراسلته ولا تياس من ذلك حتى تحقق أمنيتها فيه وإن كان صاداً لها متمنعا عنها، قال:

مَا بَالُ قَلْبِكَ عَادَهُ أَطْرَابُهُ وَلِدَمْعِ عَيْنِكَ مُخْضِلًا تَسْكَابُهُ
ذَكَرَى تَذَكَّرَهَا الرِّبَابُ وَهَمُّهُ حَتَّى يُغَيَّبَ فِي التُّرَابِ رِبَابُهُ
قَالَتْ لِنَائِلَةَ إِذْ هَبِي قَوْلِي لَهُ إِنْ كَانَ أَجْمَعَ رِحْلَةَ أَصْحَابُهُ
فَلْيَبِقْ بَعْدَهُمْ لَدَيْنَا لَيْلَةٌ فَلَهُ عَلَيَّ بِأَنْ يُجَادَ ثَوَابُهُ
قُلْتُ إِذْ هَبِي قَوْلِي لَهَا قَدْ طَالَ مَا حُبِسْتُ لَدَيْكَ عَلَى الْكَلَالِ رِكَابُهُ
بِتْنَا بِأَنْعَمِ لَيْلَةٍ وَأَلَدَّهَا لِلنَّفْسِ مَا سَتَرَ الصَّبَاحَ حِجَابُهُ²⁹

(5) اقتصار ديوانه على الغزل. نختتم وقفنا مع عمر بن أبي ربيعة بأشهر قصيدة له وهي الرائية التي روى لها صاحب الأغاني قصة مع ابن عباس قال: "بيننا ابن عباس في المسجد الحرام وعنده نافع بن الأزرق وناس من الخوارج يسألونه إذا أقبل عمر بن أبي ربيعة في ثوبين موردين أو ممصرين حتى دخل وجلس، فأقبل عليه ابن عباس فقال أنشدنا فأنشده:

²⁸ - الديوان، ص 23.

²⁹ - نفسه، ص 55.

أَمِنْ آلِ نَعْمٍ أَنْتَ غَادٍ فَمُبَكِّرٌ غَدَاةً غَدٍ أُمِّ رَائِحٍ فَمُهَجِّرٌ
حتى أتى على آخرها فاقبل عليه نافع بن الأزرق، فقال: الله يا ابن العباس ! إنا نضرب إليك
أكباد الإبل من أقاصي البلاد نسأل عن الحلال والحرام فتتناقل عنا ويأتيك مترف من مترفي قريش
وينشدك.

رَأَتْ رَجُلًا أَمَّا إِذَا الشَّمْسُ عَارَضَتْ فَيَضْحَى وَأَمَّا بِالْعَشِيِّ فَيَخْصِرُ
فقال: ليس كهذا قال، قال: فكيف قال؟ فقال: قال:

رَأَتْ رَجُلًا أَمَّا إِذَا الشَّمْسُ عَارَضَتْ فَيَضْحَى وَأَمَّا بِالْعَشِيِّ فَيَخْصِرُ
فقال: مار أراك إلا قد كنت حفظت البيت، قال: أجل، وإن شئت أن أنشدك القصيدة أنشدتك
إياها، قال: فإني أشاء، فأنشده القصيدة حتى أتى على آخرها³⁰.

وهي قصيدة تبلغ من الأبيات خمسة وسبعين بيتا منها:

أَمِنْ آلِ نَعْمٍ أَنْتَ غَادٍ فَمُبَكِّرٌ غَدَاةً غَدٍ أُمِّ رَائِحٍ فَمُهَجِّرٌ
لِحَاجَةِ نَفْسٍ لَمْ تُقَلِّ فِي جَوَابِهَا فَتُبَلِّغُ عَذْرًا وَالْمَقَالَةَ تُعْذِرُ
تَهَيِّمُ إِلَى نَعْمٍ فَلَا الشَّمْلُ جَامِعٌ وَلَا الْحَبْلُ مَوْصُولٌ وَلَا الْقَلْبُ مُقْصِرُ
وَلَا قُرْبُ نَعْمٍ إِنْ دَنَّتْ لَكَ نَافِعٌ وَلَا نَائِيهَا يُسْلِي وَلَا أَنْتَ تَصْبِرُ
وَأُخْرَى أَنْتَ مِنْ دُونِ نَعْمٍ وَمِثْلُهَا نَهَى ذَا النُّهَى لَوْ تَرَعَوِي أَوْ تُقَكِّرُ
إِذَا زُرْتُ نَعْمًا لَمْ يَزَلْ ذُو قَرَابَةِ لَهَا كَلَّمَا لِأَقْيَبِهَا يَنْتَمِرُ
عَزِيْزٌ عَلَيْهِ أَنْ أَلَمَّ بِبَيْتِهَا يُسِرُّ لِي الشَّحَاءَ وَالْبُغْضَ مُظْهَرُ
أَلِكْنِي إِلَيْهَا بِالسَّلَامِ فَإِنَّهُ يُشَهِّرُ إِلَيَّ بِهَا وَيُنَكِّرُ
بِأَيَّةٍ مَا قَالَتْ غَدَاةً لَقَيْتُهَا بِمَدْفَعِ أَكْنَانٍ أَهَذَا الْمُشَهَّرُ
قَفِي فَإِنْظُرِي أَسْمَاءَ هَلْ تَعْرِفِيئَهُ أَهَذَا الْمُغَيْرِيُّ الَّذِي كَانَ يُذَكِّرُ
أَهَذَا الَّذِي أَطْرَبْتِ نَعْتًا فَلَمْ أَكُنْ وَعَعِيْشِكَ أَنْسَاهُ إِلَى يَوْمِ أَقْبِرُ
فَقَالَتْ نَعْمَ لَا شَكَّ غَيْرَ لَوْنُهُ سُرَى اللَّيْلِ يُحْيِي نَصَّهُ وَالتَّهَجُّرُ³¹

³⁰ - الأصفهاني: الأغاني، 1/64-65.

³¹ - الديوان، ص123-124.

المحاضرة الثامنة:

شعر الزهد والتصوّف نصوص من المشرق والمغرب: أبو
العتاهية، ابن الفارض.

1. شعر الزهد: نموذج أبي العتاهية

توطئة

1. تيار الزهد في الأدب العربي

2. أبو العتاهية (130هـ-211هـ)

3. العوامل المؤثرة في زهده

4. حقيقة زهد أبي العتاهية

5. الموضوعات والخصائص

II. شعر التصوّف

1. التسمية

2. ابن الفارض: (576هـ/632هـ)

I. شعر الزهد: نموذج أبي العتاهية.

توطئة:

لقد كان للفتوحات الإسلامية آثارها البليغة في انفتاح البلاد العربية عن أمصار أجنبية جلبوا منها الجواري والغلمان مختلفي الأجناس والديانات وقد كان هذا سببا من أسباب ذبوع اللّهُو والمجون في أوساط المجتمع العربي المسلم، خاصة لدى الطبقات الغنيّة التي كادت تستأثر في الموارد المالية المنثالة من الفتوح. وسبق أن أشرنا إلى مخلفات هذا الثراء في درس سابق، وقد تبين أن الاستقرار والرفاهية كان لهما دور كبير في نشأة تيار شعري بالغ في الاستهتار، وقد زادت الأمور تعقدا عندما صرّح الشعوبيون بدعوتهم وساعدوا العباسيين إلى الوصول إلى سدة الحكم، وتسَلّلت قيم اجتماعية وثقافية مغامرة للقيم الإسلامية العربية؛ تسَلّلت إلى الحياة العربية، فكثرت دور اللّهُو والغناء ونوادي الأدب وقد كانت هذه العوامل -وغيرها- محفزة لظهور تيارات أدبيّة مختلفة تلوّنت بألوان الفكر الجديد ومراميه الثقافية والاجتماعية، استطاع الأدب العربي أن يجلي واقعا وحقيقتها من خلال استحداث فنون أدبية مواكبة لروح نمط الحياة ابتداء من القرن الثاني الهجري، أو تطويع الفنون القديمة حتى تستوعب الحياة الجديدة وتتشكل في قالبها، فظهرت اتجاهات أدبية كبرى هيمنت نذكر منها:

- تيار الشعوبية: وقد مثله المخضرم: بشار بن برد.

- تيار اللّهُو والمجون: وقد مثله أبو نواس.

- تيار الزهد: ومثله أبو نواس.

- فتعايشت هذه التيارات وتداخل بعضها في جدال وصراعات آلت بالبعض إلى قفص الاتهام بالزندقة -كما هو الأمر مع بشار بن برد وشيخي التصوف الحلاج وابن عربي وربّما طالب عمر بن الفارض- في العهد الأيوبي في مصر. وانتهت ببعض إلى الإعدام، وآلت بالاتجاه الآخر إلى التراجع وإعلان التوبة في أخريات أيامه -كما هو شأن أبي نواس-، في وقت تَوَسَّط الموقع آخرون بين تأرجح بين اللّهُو والمجون والزهد، كما هو شأن أبي العتاهية.

1. تيار الزهد في الأدب العربي:

لم يكن تيارا الزهد والتصوّف وليدي العصور المتأخّرة من حركة الشعر العربي في امتدادها الإبداعية عبر المراحل التاريخية المختلفة؛ سواء اعتبرناها تيارا واحداً وارداً بدرجتين متفاوتتين، من الانغلاق على الذات والانفتاح على عوالم جؤانية غير مرئية للناس العاديين؛ أم اعتبرنا كلّ واحد منهما

منهجاً فكرياً وسلوكياً وعقيدة جلاّه معتقدوه شعراً وسرداً وفلسفة. ولما كان الظاهر منهما أنهما سلوكان قائمان على تصوّر محدّد للحياة والموت/ الفناء وما بعده؛ والجسد والروح؛ فإنّ من الدارسين من لم ينكر وجود مثل هذا النمط من الحياة والتوجه قبل الإسلام، واعتقد أنّ الممارسات النصرانية واليهودية وكذلك بعض ما تبقي من الحنيفية التي كانت سائدة في شبه جزيرة العرب. صور تتدرج ضمن الزهد... وقد عكس الشعر الجاهلي ذلك بما ورد فيه من "تأمل في الكون وحياة الناس واعتبار بما مضى، وخضوع لسلطان القدر والموت، ولكن بأراء سطحية قوامها الشعور والاختبار"¹. وقد ساق لذلك أشعاراً يستدلّ بها على نظريته هذه، فنقل عن بعض الشعراء أقوالهم:

* أمية بن أبي الصلت، قال:

وحالات دنيا لا تدوم لأهلها فبينا الفتى فيها مهيبٌ مُسَوِّدٌ

إذا انقلبت عنه وزال نعيمها وأصبح من ترب القبور يوسِّدٌ

* زهير بن أبي سلمى، قال:

ألا لا أرى بعد الحوادثِ باقياً ولا خالداً إلاّ الجبالَ الرواسيا

* عديّ بن زيد، قال:

قد تبيّنت في الخُطوبِ التي قبلي فما بعدها من النّومِ باقي

* لبيد، قال:

ألا كلّ شيءٍ ما خلا الله باطلةً وكلُّ نعيمٍ لا محالةً زائلٌ²

أمّا بعد مجيء الإسلام وتحول العرب إلى التوحيد والإيمان باليوم الآخر، وأنّ الموت إنّما هو عتبة نحو حياة أخرى أبدية، فقد زهد الناس في الحياة بمفهوم آخر نابع من القرآن الكريم والسنة النبوية، عاشوا به وعليه في العهد الأوّل من الدعوة متفاوتين في درجة إتيانه، فقد كان نموذج الأعلی الرسول صلى الله عليه وسلم يتبعه في سنته الخلفاء والراشدون، وبفعل تغيّر الحياة وحدث الاضطرابات وكثرة الأموال انشغل الناس عن الزهد في الحياة وأقبلوا عليها مترفين؛ وبقيت ثلّة قليلة

¹ - جورج غريب: أبو العتاهية في زهدياته، دار الثقافة، بيروت، ط1، 1985، ص25.

² - نفسه، ص.ص. 24-25.

على عهد الأوائل نذكر منهم الحسن البصري الذي رفع لواء تيار الزهد والتصوف في العصر الإسلامي لما تهيأ له من علم صحيح بؤاه بأن يكون مدرسة تخرج منها مفكرو الإسلام "فالزهاد يعتبرونه إمامهم، ويرى فيه الصوفية مؤسسا لمذهبهم، وكذلك المعتزلة وغيرهم من علماء الكلام أرباب المذاهب والملل والنحل"³. وعلى هذا الأساس فقد كان الحسن البصري نموذجاً يحتذى به في الزهد والتصوف المستقيمين المستمدين من أصول الشريعة الإسلامية.

ولما تفاقمت الفتن السياسية بين الأحزاب الناشئة المعارضة لحكم بني أمية اختار جمع من الناس عدم المشاركة في هذه الابتلاءات ففروا إلى الانغلاق "وربما كان لكثرة الحروب... أثر في ذلك، وكأن قوما انصرفوا على الفتن، خشية على أنفسهم من التورط في الإثم إلى النسك والعبادة، كما انصرف إلى ذلك كثيرون ممن لم يستطيعوا الانتصار على الأمويين، فتركوهم وديناهم، ومضوا يتعبدون"⁴.

ومن الزهاد الذين ورد ذكرهم في الآثار الأدبية:

1- عروة بن أذينة (ت130هـ) 747م: وهو من محدثي وفقهاء المدينة، صور في شعره مبدأ التوكل باعتباره المبدأ العام للزهاد الذين اعتقدوا أن الكد والجهد في سبيل الرزق يبطل هذا الاعتقاد، قال:

لَقَدْ عَلِمْتُ وَمَا الْإِسْرَافُ مِنْ خُلُقِي أَنَّ الَّذِي هُوَ رِزْقِي سَوْفَ يَأْتِينِي
أَسْعَى لَهُ فَيُعْنِينِي تَطَلُّبُهُ وَلَوْ قَعِدْتُ أَتَانِي لَا يُعْنِينِي
خِيَمِي كَرِيمٌ وَنَفْسِي لَا تَحْدِثُنِي أَنَّ الْإِلَهَ بِلَا رِزْقٍ يَخْلِينِي

2- عبد الله بن عبد الأعلى: وقد شك شوقي ضيف في أن تكون مصادر تزهد إسلامية "كان يستمد في زهده من منابع بعيدة عن الإسلام" ص372، فقد اتهم بسوء العقيدة، نقل له:

يَا وَيْحَ هَذِي الْأَرْضِ مَا تَصْنَعُ أَكُلَّ حَيٍّ فَوْقَهَا تَصْرَعُ
تَزْرَعُهُمْ حَتَّى إِذَا مَا أَتَوْا أَشَدَّهُمْ تَحْضُدُ مَا تَزْرَعُ

³- توفيق بن عامر: دراسات في الزهد والتصوف، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس، 1981، ص09.

⁴- شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، العصر الإسلامي، دار المعارف، مصر، ط07، دت، ص370.

3- المسكين الدرامي: وكان متخلّفاً بأخلاق مثالية، قال عنه صاحب خزّانة الأدب: "إنّ له قصيدة ذكر فيها طائفة من الشعراء ناسبا قبر كلّ واحد منهم إلى بلده ومسقط رأسه، متخذاً من ذلك العبرة ومصغراً أمر الدنيا ومهوّناً من شأنها"، ومن شعره:

ولست إذا ما سرّني الدهر ضاحكا
ولا خاشعاً ما عشت من حادث الدهر
أعف لدى عسري وأبدي تجملا
ولا خير فيمن لا يعفّ لدى العسر
وإني لأستحيي إذا كنت معسراً
صديقي وإخواني بأن يعلموا فقري
ومن يفتقر يعلم مكان صديقه
ومن يحيى لا يعدم بلاء من الدهر

غير أن الذين مثلوا هذا الاتجاه في هذا العصر اثنان:

(1) أبو الأسود الدؤلي. (2) سابق البربري.⁵

وواصل هذا التيار امتداده مسطراً طريقه بين شعاب الأغراض الشعرية العربية حتّى استوى فنّاً مستقلاً تقال فيه القصائد الطوال، بل يكاد يتفرّغ له شاعر؛ كما تفرّغ عمر بن أبي ربيعة والعذريون للغزل؛ وكما استقلت الخمر بقصيدة أحادية الموضوع في الشعر العباسي -على يد أبي نواس- كذلك استقلت قصيدة الزهد بالوحدة الموضوعية؛ وقد تزامن الشاعران وتداخل معهما الاتجاهان: الماجن والزاهد وذلك بجملة من العوامل التي نشأ فيها؛ نقصر على بعض صورها الاجتماعية تتمثّل من خلالها الخلفيات التي أثرت هذين الغرضين الشعريين، المجون والزهد:

- * كثرة الجوّاري والغلمان.
- * مجالس الشرب والغناء.
- * نشوء حركة زهدية مضادة لتترف العصر.
- * التأنق في الفنون الحضريّة.
- * انتشار المدارس والعلوم.⁶

⁵- ينظر في: زهد هؤلاء المذكورين، شوقي ضيف: العصر الإسلامي، ص.ص. 369-376.

⁶- ينظر في تفصيل هذه العناصر: أنيس المقدسي: أمراء الشعر العربي في العصر.

2. أبو العتاهية (130هـ-211هـ):

و"العتاهية" لقب غلب عليه والرواية في تلقيه به أنّ الخليفة المهدي قال له يوماً: "أنت إنسان متحذلق معته، فاستوت له من ذلك كنية غلبت عليه دون اسمه وكنيته، وسارت له في الناس. قال، ويقال الرجل المتحذلق: عتاهية، كما يقال للرجل الطويل: شناحية، ويقال: أبو العتاهية بإسقاط الألف واللام.... وكني بأبي العتاهية أن كان يحبّ الشهرة والمجون والتعته...."⁷.

وردت أخباره في الأغاني فيما تجاوز مائتي صفحة*، نذكر في سياقنا هذا اسمه وبعض خصائص شعره في الزهد؛ قال: "...اسمه إسماعيل بن القاسم بن سويد بن كيسان، مولى عنزة؛ وكنيته أبو اسحاق وأمّه أمّ زيد بن زياد المحاربي مولى بني زهرة.... منشؤه بالكوفة، وكان في أول أمره يتحنّث ويحمل زاملة المخنثين، ثمّ كان يبيع الفخار بالكوفة، ثمّ قال الشعر فبرع فيه وتقدّم"⁸.

أمّا عن أهمّ ميزات شعره، فهي:

- * على مستوى الألفاظ: سهل الألفاظ، كثير الافتتان، قليل التكلف، ساقطها كثير لديه.
- * على مستوى المعاني: كان غزير البحر، لظيفة المعاني، أكثر شعره في الزهد والأمثال.
- * مذهبه: نسبه إلى الفلاسفة الذين لا يؤمنون بالبعث ذلك أن شعره اقتصر على ذكر الموت والفناء دون ذكر النشور والمعاد.

* أخلاقه: كان بخيلاً، يقال إنّه رافق المخنثين والمجان في صغره، ثمّ تاب عن ذلك⁹.

3. العوامل المؤثرة في زهده:

تجمع الدراسات-متأثرة بما ورد في الأغاني وغيره من الكتب العربية القديمة- أنّ أبا العتاهية مارس نمطين حياتيين متناقضين في حياته؛ فقد ابتدأ حياته ماجناً عابثاً مسرفاً في التهتك إلى درجة التعته-كما أسلفنا ذكره- مصادقاً الشواذ والمخنثين. ثمّ تحوّل عنهم، وانصرف وهو يشرف على الخمسين من عمره إلى التوبة في 181هـ، فلبس الصوف وهجر المنادمة والتغزل. وقد أثارت هذه

⁷- الأصفهاني: الأغاني، الجزء الثالث، موفم للنشر، الجزائر، 1992، ص1080.

*- ص.ص. 1079-1192.

⁸- نفسه، ص1079.

⁹- نفسه، ص 1080.

الانتقالة كثيرا من التساؤلات في حقيقة زهده خاصة أنه "لا أثر لنظر نقدي في الكون أو لنزعة فلسفية في الدين" كما قال أنيس مقدسي عنه (ص151). شكك الدارسون في هذا الزهد على الرغم من توفر جملة من المؤشرات الموضوعية والذاتية الباعثة على التوجه إلى التزهد التي تمثل لنا الشاعر -من خلالها- مصورا للبيئة التي أنتجته متأثرا بها "إذ لم يستطع الشاعر التخلص من نفسه عند حديثه عن مجتمعه، بل إنه كثيرا ما حدثنا عنه من زوايا منظاره النفسي، ولعل السبب في ذلك أن أبا العتاهية يمثل في حد ذاته صورة لهذا المجتمع، فهو إنسان العصر الممثل له بآماله وآلامه والشخصية التي طبعت خصائصها بميسم البيئة التي أفرزتها"¹⁰.

1.3. العوامل الاجتماعية: 11

تنوّعت -في العصر العباسي الأول: القرن الثاني الهجري- المظاهر الاجتماعية الناتجة عن تغيير الحياة-وقد سبق لنا أن عددنا قسما منها- ونود أن نشير هنا إلى تلك العوامل ذات التأثير الوجداني في نفسية أبي العتاهية التي عمّقت فيه الإحساس بالآخرين وأثرت تجربته في الزهد:

- 1) الشعور بالظلم الاجتماعي: وهو شعور جماعي تشاركت فيه فئات مجتمعية من ذوي النسب المغمور، عاشت في زمن هيمنت فيه القبلية العربية في ثوب جديد.
- 2) خبرته لحياة العوام وامتداده لمهن شعبية: صناعة الفخار، تحجيم (الحجامة) الناس-من غير خبرة- قبل أن يتصل بالبلاط العباسي ويغدق عليه.
- 3) تجربته حياة الندماء والمترفين في القصور: وهو ما سمح له بالوعي بحقيقة المفارقة بين حياة العوام وحياة السادة وتكالب هؤلاء على الحكم والمال؛ وسوء توزيع الثروات بين مختلف الفئات الاجتماعية، وقد فجّرت هذه التجربة لديه:

- ثورته على الهياكل السياسية: قال في قصيدة بعث بها إلى هارون الرشيد بعد أن أمر

بحبسه لأنه امتنع عن حضور مجلس شراب:

أما وَاللهِ إِنَّ الظُّلْمَ لَوْمٌ ولكنَّ المُسيءُ هُوَ الظُّلْمُ
إلى دَيَانِ يَوْمِ الدينِ نَمُضي وَعِنْدَ اللهِ تَجْتَمِعُ الحُصُومُ

¹⁰- توفيق بن عامر: دراسات في الزهد والتصوف، ص36.

¹¹- ينظر: توفيق بن عامر: دراسات في الزهد والتصوف، ص.ص. 36، 53.

سَتَعَلَّمُ فِي الْحِسَابِ إِذَا التَّقِينَا غَدًا عِنْدَ الْإِلَهِ مِنَ الْمَلُومِ
سَيَنْقَطِعُ التَّرْوُحُ عَنِ الْإِنْسَانِ مِنَ الدُّنْيَا وَتَنْقَطِعُ الْعُمُومُ
تَلُومٌ عَلَى السَّفَاهِ وَأَنْتَ فِيهِ أَجَلٌ سَفَاهَةٌ مِمَّنْ تَلُومُ¹²

- **ثورته على الهياكل الاجتماعية والاقتصادية:** "ومنطق الزهد في هذه التجربة هو نقمة على نظام اجتماعي معين وثورة استعمل فيها الشاعر أنواعا من التعبير ووسائل التهديد والوعيد، وكانت أبلغ وسيلة استعملها في التعبير عن كل ذلك هي الموت بأوسع معانيه وشتى صورته"

2.3. العوامل الذاتية:

إن تجربة الزهد خاصة تقوم على بواعث ذاتية بالدرجة الأولى ومن جملة البواعث الذاتية عند أبي العتاهية نذكر:

- حالته النفسية واستعداده الفطري: التعبير عن عقد كانت لديه.
 - تأثره بتهتك معاصريه وتماديهم في أسباب الترف.
 - فشله في حبّه لفتاة من جوارى المهدي: عُتْبَةُ؛ وكذلك فشله في حبّه لسعدى: النائحة.
 - ميله إلى الطريقة الزهدية في الشعر.¹³
- وقد تناولت الدراسات هذه المسائل بالدراسة والتحليل، ونود أن نربط هنا بين العنصر الأخير "ميله إلى الطريقة الزهدية في الشعر" وبين حقيقة زهده.

4. حقيقة زهد أبي العتاهية:

- هو إشكال خاض فيه كثيرون ممن شككوا في صدق منحاه الزهدي وذلك لاعتبارات:
- سيرته في صباه.
 - حرصه على جمع المال.
 - اتهامه بالزندقة.

¹²- أبو العتاهية: الديوان، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1986، ص.ص. 395-399.

¹³- ينظر في تفصيل هذه العناصر: أنيس المقدسي: أمراء الشعر في العصر العباسي، ص.ص. 152-

في الوقت الذي رأى فيه آخرون أنّ الزهد عند أبي العتاهية مسلك فني محض، نقل أنيس المقدسي: "عن ابن منظور عن أبي مخلد الطائي: "جاءني أبو العتاهية فقال لي: إنّ أبا النّوأس لا يخالفك، وقد أحببت أن تسأله ألا يقول في الزهد شيئاً، فإني قد تركت له المديح والهجاء والخمر والرقيق وما فيه الشعراء، وللزهد شوقي"¹⁴.

فإذا صحّت هذه القصة فإنّ الزهد عند أبي العتاهية ليس سلوكاً دينياً يتبرّع عنه عدد من السلوكات والأخلاقيات الدالة عليه، وإنّما هو منهج شعري انتظم شعره فيه، قد يدخل فيما يطلق عليه -الالتزام في الشعر- وإن كنا لا ننفي أن أثر العوامل التي ذكرنا سابقاً ظاهر في شعره.

وعلى الرغم من هذين الرأيين في شعره فقد فسّرت ظاهرتيه تفسيراً آخر قائماً على رصد مرحلة تحوّله من التعتة إلى التزهد باعتبارها مرحلة انتقاليو مأساوية "وهي مرحلة من مراحل تجربته الزهدية وهي مرحلة تأرجح وتناقض واضطراب في الشعور والسلوك، وهي فترة انتقالية في نظرنا... ومهما يكن الأمر فإنّ هذه المأساة في تجربته الزهدية هي التي دعت معاصريه إلى الشك في زهده، وبعبارة أخرى إن مجموعة التناقضات التي بيّناها هي التي سمحت بتطرّق الطعن إليها لكنها في نظرنا أحوال صادقة تجعل تجربته حيّة وعميقة وإنسانية فلم يكن أبو العتاهية زائف الزهد، ولا كان زاهداً مثالياً، وإنّما زهد زهداً بشرياً إنسانياً واقعياً، فلم يُراء بزهده، ولم يخادع كما اتّهمه البعض قديماً وحديثاً"¹⁵.

5. الموضوعات والخصائص:

1.5. موضوعات شعره:

تناول أبو العتاهية موضوعات كثيرة ومتنوّعة ومرّد هذا التنوع والكثرة اتجاه، ذلك أن القول في الزهد لا شك له موضوعات متعلقة كلّها بالحياة أو الموت وما يمكن أن يفرزه من معان، فقال الشاعر ساخطاً على الحياة ناقماً عليها، كما قال في الموت وقال واعظاً وواصفاً القبور، نذكر بعض أشعاره فيما تطرّق إليه:

¹⁴ - أنيس المقدسي: أمراء الشعر في العصر العباسي، ص 153.

¹⁵ - توفيق بن عامر: دراسات في الزهد والتصوف، ص 34.

(1) الإيمان بالله:

هو الموضوع الأساس الذي هيمن في الديوان وتفتقت نظرة الشاعر إلى الحياة والموت من خلاله، ليس فقط من جهة الزهد في الدنيا والإقبال على الآخرة وإنما في كل شيء خاصة في علاقة الإنسان بربه: الله، فقال في ضرورة الالتجاء إلى الله وضبط السلوك:

أَرَاكَ امْرَأً تَرْجُو مِنَ اللَّهِ عَفْوَهُ وَأَنْتَ عَلَى مَا لَا يُحِبُّ مُقِيمٌ

وقال:

أَلَيْسَ اللَّهُ مِنْ كُلِّ قَرِيبًا بَلَى مِنْ حَيْثُ مَا نُودِي أَجَابَا
وَلَمْ تَرَ سَائِلًا لِلَّهِ أَكْدَى وَلَمْ تَرَ رَاجِيًا لِلَّهِ خَابَا
رَأَيْتُ الرُّوحَ جَدَّبَ العَيْشِ لَمَّا عَرَفْتُ العَيْشَ مَخْضًا وَاحْتِلَابَا
وَأَسْتَبِغَالِبِ الشَّهَوَاتِ حَتَّى نُعَدَّ لَهُنَّ صَبْرًا وَاحْتِسَابَا
فَكُلُّ مُصِيبَةٍ عَظُمَتْ وَجَلَّتْ تَخِفُّ إِذَا رَجَوْتَ لَهَا ثَوَابًا¹⁶

وقد تعددت الموضوعات التي اندرجت تحت هذا الموضوع العام.

(2) الزهد والتمسكن:

لَقَدْ طَالَ يَا دُنْيَا إِلَيْكَ رُكُونِي وَدَامَ لُزُومِي ضِلَّتِي وَفُتُونِي
وَطَالَ إِخَائِي فَيْكَ قَوْمًا أَرَاهُمُ وَكُلُّهُمْ مُسْتَأْتِرٌ بِكَ دُونِي
وَكُلُّهُمْ عَنِّي قَلِيلٌ غِنَاؤُهُ إِذَا غَلِقَتْ فِي الهَالِكِينَ رُهُونِي
فَيَا رَبِّ إِنَّ النَّاسَ لَا يُنْصِفُونَنِي وَكَيْفَ وَلَوْ أَنْصَفْتُهُمْ ظَلَمُونِي¹⁷

(3) الموت:

وورد فيها مقطوعات كثيرة: ولعل أبرزها قصيدته في وصف القبور:

مَنْ أَحْسَسَ لِي أَهْلَ القُبُورِ وَمَنْ رَأَى مَنْ أَحْسَسُ لِي بَيْنَ أَطْبَاقِ الثَّرَى
مَنْ أَحْسَسَ لِي مَنْ كُنْتُ أَلْفُهُ وَيَأْ لَفْنِي فَقَدْ أَنْكَرْتُ بُعْدَ المُلْتَقَى
مَنْ أَحْسَسَهُ لِي إِذْ يُعَالِجُ غُصَّةً مُتَشَاغِلًا بِعِلَاجِهَا عَمَّنْ دَعَا

¹⁶ - الديوان: ص33.

¹⁷ - الديوان، ص415.

مَنْ أَحْسَهُ لِي فَوْقَ ظَهْرِ سَرِيرِهِ يَمْشِي بِهِ نَفْرًا إِلَى بَيْتِ الْبَلِي
يَا أَيُّهَا الْحَيُّ الَّذِي هُوَ مَيِّتٌ أَفَنَيْتُ عُمْرَكَ بِالتَّعَلُّلِ وَالْمُنْدَى¹⁸

(4) الدنيا:

وهو موضوع مثل سابقه تتفرّع منه موضوعات كثيرة توضح نظرة الشاعر إليها، قال:
أَلَا كُلُّ مَا هُوَ آتٍ قَرِيبٌ وَلِلْأَرْضِ مِنْ كُلِّ حَيٍّ نَصِيبٌ
وَلِلنَّاسِ حُبٌّ لَطَوِيلِ الْبَقَا فِيهَا وَلِلْمَوْتِ فِيهِمْ دَبِيبٌ
أَرَى الْمَرَّةَ تُعْجِبُهُ نَفْسُهُ فَأَعْجَبَ وَالْأَمْرُ عِنْدِي عَجِيبٌ¹⁹

ومن الموضوعات التي تطرّق إليها أيضا:

الآخرة، النفس، الحكمة، نقد المجتمع، الشباب.

- الخصائص الفنية لشعر الزهد:

ذكرنا في بداية المحاضرة بعض خصائص أبي العتاهية كما قدّمها الأصبهاني نضيف إليها

ملامح فنية أخرى نجدها في شعر الزهد بصفة عامة:

- استقلالية الموضوع والدخول مباشرة في القصيدة.

- لغة شعر الزهد: هي لغة تخاطب الإنسان البسيط ولذلك فقد أتت لغته بسيطة في الكلمات

والعبارات حتى يفهمها الجميع.

- الليونة: ويقصد بها الصياغة التي تبتعد عن جزالة الشعر العربي القديم، وقد تميّزت لغة

أبي العتاهية بهذا الملمح وهو ما جعل بعض القدامى يصف شعر أبي العتاهية بالخنث، والتفكك،

وهي ظاهرة تسمى "الإلفة في لغة الشعر الزهدي فهي تجعل الشاعر قريبا من نفوس الناس".

- عدم الخضوع لنظام الشعر العربي القديم كما سنّه السابقون.

- الخروج من بعض الأوزان الشعرية المعهودة.²⁰

¹⁸- الديوان ص26.

¹⁹- الديوان، ص50.

²⁰- ينظر: علي نجيب عطوي: الشعر في العصر العباسي: مظاهره وأهم اتجاهاته مؤسسة عز الدين

للطباعة والنشر، بيروت، 1993م، ص.ص. 224-229.

II. شعر التصوّف:

1. التسمية:

شاع في الأذهان أنّ التّصوّف إنّما هو من لبس الصوف فاعتقد كثير منا أنّ الصوفية هم من لبس الصوف واعتزل الناس وهام في الأرض، غير أنّ المصطلح يحمل افتراضات أخرى في دلالاته، وليس الصوف هو أحدها، فالصوفية أن يكون "الصوفي": منسوباً إلى: (1) صوفة (2) أو إلى الصوف (3) أو مشتقاً من الصفاء (4) إلى كلمة سوفيا اليونانية.²¹

(1) النسبة إلى صوفة: صوفة هم قوم جاهليون انقطعوا إلى الله وسكنوا الكعبة، ينتسبون إلى صوفة واسمه الغوث بن مرّ.

(2) النسبة إلى الصوف: ورأى زكي مبارك أنّ النسبة إلى صوف قريبة من الصحة إذا كان لباس الصوف غالباً على المتقدّمين من الصوفية "لكونه أقرب إلى الخمول والتواضع والزهد"، وقدم نماذج مختلفة ومتباعدة في التاريخ الإسلامي دالة على أنّ لباس الصوف يأتي دلالة على خشونة الزهد وعلامة على الزهد ولكنه مشروط بالصفاء ولا يغني عنه، ونقلوا عن الجنيد: "إذا رأيت الصوفي - يعني بظاهره - فأعلم أنّ باطنه خراب.

(3) النسبة إلى الصفاء: ويرفض زكي مبارك أنّ تكون الكلمة نسبة إلى الصفاء: "وليس هذا الغرض إلّا حذقة من بعض الصوفية الذين عبّر أبو الفتح البستي عن غرورهم حين قال:

تتأزّع النَّاسُ فِي الصُّوفِيِّ وَاخْتَلَفُوا قَدَمًا وَظَنُّوهُ مُشْتَقًّا مِنَ الصُّوفِ
وَلَسْتُ أَمْنَحُ هَذَا الْإِسْمَ غَيْرَ فِتْيٍ صَافِي فَصُوفِي حَتَّى لُقِّبَ الصُّوفِي²²

(4) النسبة إلى سوفيا اليونانية: قالت به جماعة: أبو الريحان البيروني، فون هامر (مستشرق)، عبد العزيز الإسلامبولي، محمد لطفي جمعة. و"سوفيا" بمعنى الكلمة، ومنها فيلسوف أي محبّ الحكمة، وقد ردّ الكاتب هذا الرأي وحاجج لذلك بحجج مختلفة.

²¹ - زكي مبارك: التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق - نسخة صادرة عن مؤسسة هنداوي، ص 53.

²² - نفسه، ص.ص. 55-67.

2. ابن الفارض: (576هـ/632هـ)

هو حموي الأصل - من الشام - قدم والده إلى مصر وبقي فيها، كان ذا مكانة عند الحكام وكان يكتب الفارض للنساء وعلى الرجال لذا لقب بالفارض، وابن الفارض هو أبو القاسم أبو حفص عمر بن علي بن مرشد معروف ب: عمر بن الفارض ولد بمصر وعاش فيها وارتحل إلى مكة ثم عاد إلى مصر. نشأ مولعا بالعبادة والتقوى؛ "وقد ظهر فيه منذ شبابه ميل إلى التدين والتلذذ بالتجرد الروحي على طريقة المتصوفين.... ويظهر أنه كان في جبل المقطم مكان خاص يعرف بوادي المستضعفين يختلف إليه المتجردون، فحبب إلى ابن الفارض الخلاء فيه فتزهد وتجرد وكان يأوي إلى ذلك المكان أحيانا"²³.

تداخلت في تشكيل شخصيته بيئات ثلاث: الشام والحجاز ومصر، فتميز ب:

• أنه شخص سريع التأثر شديد، خاصة بما كان موضوعا للجمال، يتصل درجة تأثره إلى الانفعال العصبي الذي تترجمه الرقصات الوجدانية إلى "كان يقوم بها، وهي ما يطلق عليه السكرات أو النوبات"²⁴.

• ميله إلى الخلوة والنقش: قال في ذلك:

وأبعَدني عن أربعي بُعْدُ أربَعِ شبابي وعقلي وارتياحي وصحّتي
فلي بعدَ أوطاني سكونٌ إلى الفلا وبالوَحش أنسي إذ من الإنس وَحشتي

• كرم سجيته وحسن عشرته: وقد اتفقت الروايات الواردة عنه أنه كان طيب الخلق حسن

المعاشرة للناس، يميّزه سمو الأخلاق من رقة وإيناس وكرم وترفع عن الدنيويات.²⁵

²³ - أنيس المقدسي: أمراء الشعر في العصر العباسي، ص.ص. 439-440.

²⁴ - نفسه، ص 442.

²⁵ - نفسه، ص 444.

المحاضرة التاسعة:

شعر الحماسة: نصوص أبي تمام البحتري / البيهقي

توطئة

1. الحماسة بين الدلالة المعجمية والغرض الشعري
2. الحماسات الشعرية
3. الحماسة بين أبي تمام والبحتري

المحاضرة التاسعة:

شعر الحماسة: نصوص أبي تمام البحتري/ البياسي

توطئة:

شعر الحماسة خطاب تحفيزي الغرض منه بث روح الحماس وإثارة الاندفاع والحث على الفعل، وهو من هذا المنطلق يختلف عن جملة النصوص الشعرية التي وقفنا عندها في المحاضرات السابقة؛ ليست الحماسة خطابا ذاتيا ينغلق فيه الشاعر على ذاته أو يخصه على محبوبته؛ إنه خطاب منفتح على كتلة من المتلقين؛ المقصد الأساس من مخاطبتهم إقناعهم بالقضية التي يدافع عنها الشاعر وبناء على هذا فقد اختلف باختلاف رسائله زمانا ومكانا وموضوعا.

1. الحماسة بين الدلالة المعجمية والغرض الشعري:

أصل الحماسة الثلاثي حمس: الحاء والميم والسين؛ وهو أصل واحد يدل على الشدة فالأحمس الشجاع والحمس والحماسة: الشجاعة والشدة.... ويقال تحمس الرجل: تعاصى وألحمس قريش؛ لأنهم كانوا يحمسون في دينهم، أي يتشددون. وقال بعضهم: الحمسة الحرمة، وإنما سموا حمسا لنزولهم بالحرم...¹. وأضاف ابن منظور الحماسة: المنع والمحاربة، والحميس: التنور.... يقال له الوطيس والحميس² وهو كذلك. من شدة التهاب ناره فالحماسة هي الشدة والشجاعة والمنع والمحاربة وهو ما يجعل منها مفهوما دالا على القوة والصرامة والاندفاع مما لا سبيل معه إلى الليونة والخفض والرقّة وغيرها من سمات الضعف والاستعطاف.

واعتبارا لهذه الدلالات فإنّ شعر الحماسة يستدعيه غرضا الفخر والمديح بالدرجة الأولى - وربما تجاوزتهما إلى أغراض أخرى- لأنّ الفعل التحفيزي الذي ينضوي خلفه قائم على تحريك المشاعر الجماعية أو الفردية، وحتى يتحقق المقصد من ذلك وجب استحضار المحامد والمفاخر التي تمتاز من خلالها القبائل والعشائر والأمم؛ والتعويل عليها في بثّ العزيمة والإقدام. ولعلّ النموذج الأرقى في هذا السياق معلقة عمرو بن كلثوم؛ قوامها الحماس القبلي وتنشيط الذاكرة والاعتزاز بالانتماء والقوة والسلطة التي تعتز بها قبيلة تغلب وتفاخر بها العرب جميعا.

¹ - احمد بن فارس: معجم مقاييس اللغة، دار إحياء التراث العربي، 2008، ص264.

² - ابن منظور: لسان العرب، الجزء الثاني، دار الحديث، القاهرة، 2003، ص592.

وحتى تكون العلاقة واضحة في استيعاب علاقة الحماسة بالشعر نشير إلى أنها ليست غرضاً أصيلاً في الشعر العربي القديم حدّده النقاد القدامى؛ وهي واردة في باب المختارات الشعرية التي تناول فيها الشعراء الحرب والشجاعة، وعلى هذا الأساس فتعريفها في الاصطلاح الأدبي ليس بعيداً عن الدلالة اللغوية لها: شعر الحرب والشجاعة. وهي -أدق- أسلوب استلهمه الشعراء لأجل تمرير موضوعات فخرهم أو مدحهم أو هجائهم أو رثائهم؛ وهي أسلوب استلهمه الشعراء لأجل تمرير موضوعات فخرهم أو مدحهم أو هجائهم أو رثائهم؛ وهي أسلوب مقصود لذاته، الغاية منه إحداث الأثر حتى يثمر القول أفعالا. وعليه فأكثر ما ارتبطت به هي سياقات القتال والحرب والعزة والأنفة والتمجيد.

2. الحماسات الشعرية:

فضلا عن حماسة أبي تمام فقد عرفت الثقافة العربية الأدبية التأليف في المصنفات الشعرية/المختارات؛ فقد اشتهرت مجموعات منها رائدة في هذا المجال:

- 1- المعلقات: وهي مجموعة قصائد جاهلية-سبقت لنا وقفة معها.
- 2- المفضليات: وهي مجموعة شعرية جمعها المفضل الضبي (ت175هـ)، أملت على محمد بن أبي جعفر المنصور (وهو الخليفة المهدي)؛ عددها مائة وثلاثون قصيدة (على اختلاف بين الرواة في عددها)، ضمت شعراء جاهليين ومخضرمين وإسلاميين.
- 3- الأصمعيات: وهي كما يدل عليها اسمها مجموعة شعرية انتقاها الأصمعي، تضم اثنتين وتسعين قصيدة.
- 4- جمهرة أشعار العرب: وهي مختارات شعرية لأبي زيد القرشي، تعرف اختصاراً بكتاب "الجمهرة"، ضمّنها سبع مجموعات شعرية منتقاة من الشعرين الجاهلي والإسلامي؛ وهي:
 - 1) المعلقات، 2) المجهرات، 3) المنتقيات، 4) المذهبات، 5) أصحاب المراثي، 6) أصحاب المشوبات*، 7) أصحاب الملحقات³. وهو من رجال الأدب في القرن الثالث ومطلع القرن الرابع.

*- المشوبات: سميت كذلك ربّما لأنه قد شابها الكفر والإسلام.

³- مصطفى الشعبة: مناهج التأليف عند العرب- قسم الأدب-، دار العلم للملايين، بيروت، ط6، 1991،

كانت هذه المؤلفات الأدبية بداية لانفتاح التأليف تحت عنوانه أخرى هي الحماسة تختلف عن الاختيارات السابقة من حيث قصر عنوانها على باب شعري معيّن، "فلما جمع أبو تمام اختياراته جعل كلّ مجموعة تشترك في غرض بعينه تحت العنوان الذي قيلت فيه: وهي الحماسة، المراثي، الأدب، النسب، الهجاء، الأضياف، المديح، السير والنعاس، الصفات المُلح، مذمة النساء، ولما لم يجد أبو تمام اسما بعينه صالحا لأن يكون عنوانا لكتاب يضم كلّ هذه الأغراض من الاختيارات فقد اختار اسم المجموعة الأولى وهي الحماسة وجعلها عنوانا للكتاب كلّه من قبيل تسمية الكلّ باسم الجزء، ومن ثمّ أصبح اسم الكتاب الحماسة"⁴. لقد سنّ أبو تمام حبيب بن أوس الطائي (18هـ؛ 192-230هـ؛ 231هـ/804م، 845م) الكتابة في مجال الحماسات باعتبارها مجموع أبواب شعرية عمل على تصنيفها أدباء كلّ وفق منظوره الخاص، وقد ذاع صيت جملة منها؛ وهي:

(1) حماسة أبي تمام:

تدور حماسة أبي تمام على عدّة أبواب: الرثاء والنسب والهجاء غير أن الحماسة وهي أوّل باب في الكتاب-كما أسلفنا ذكره قبل قليل- وهي أطول الأبواب. واللافت أن الكتاب لم يخل دون وجود أغراض أخرى نافست شعر الحرب والشدة. "قالديوان ليس مختصا بأشعار الحماسة فقط، وإنما جمع فيه أبو تمام المراثي والأدب والنسب والهجاء والأضياف، والمديح، والسير والمُلح ومذمة النساء"⁵. فقد ورد في الديوان مجموعة أبيات غرض الغزل واضح فيها، قال:

هَوَايَ مَعَ الرِّكْبِ الْيَمَانِينَ مَصْعَدٌ جَنِيْبٌ، وَجِثْمَانِي بِمَكَّةَ مُوْتَقٌ
عَجِبْتُ لِمَسْرَاهَا وَأَنْتِي تَخَلَّصْتُ إِلَيَّ وَبَابِ السَّجْنِ دُونِي مُعْلَقٌ
أَلَمْتُ فَحِيْتُ ثُمَّ قَامَتِ فَوَدَّعْتُ فَلَمَّا تَوَلَّتْ كَادَتِ النَّفْسُ تَرْهَقُ
فَلَا تَحْسَبِي أَنْتِي تَخَشَعْتُ بَعْدَكُمْ لَشَيْءٍ وَلَا أَنْتِي مِنَ الْمَوْتِ أَفْرُقُ
وَلَا أَنْ نَفْسِي يَزْدَهِيهَا وَعَيْدَكُمْ وَلَا أَنْتِي بِالْمَشِيِّ فِي الْقَيْدِ أُخْرَقُ
وَلَكِنْ عَرَّتْنِي مِنْ هَوَاكِ صَبَاةٌ كَمَا كُنْتَ أَلْقَى مِنْكَ إِذْ أَنَا مُطْلَقٌ⁶

⁴ - السابق: ص 487.

⁵ - أبو علي أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي: شرح ديوان الحماسة لأبي تمام، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2003، ص3.

⁶ - نفسه، 44-40/1.

وقد تناول شارح الديوان الأبيات بالشرح والتعقيب، غير الذي يهمننا من الأمر هو تفسيره لإتيان أبي تمام في باب الحماسة بهذا الشعر الغزلي، قال مفسراً: "هذه الأبيات ضمّنها هذا الباب لما اشتملت عليه من حسن صبره على البلاء وقلة ذعره من الموت والفناء، واستهانته بوعيد المتوعد وحذقه برسّفان (مشي المقيد) المقيد"⁷. وكما هو واضح من هذا التفسير فغنّ تضمين هذه الأبيات في دائرة الحماسة مردود إلى دلالتها عمّا هو مرتبط منها من تحمل شدة. وفضلاً عن الغزل فقد ورد فيها:

- الفرار من الحرب.

- هجر الأقارب وهجاء هذا النوع منهم.

- فراق الأهل والجيران.⁸

(2) البحتري: أبو عبادة الوليد بن عبيد الله (2005هـ-284هـ/822م-898م)

جاء في مقدّمة الديوان: "تعدّ حماسة البحتري مصدراً مهماً من مصادر التراث الأدبي عند العرب، مما اشتملت عليه من مادة شعرية نادرة لم تتوافر إلّا فيها، وما حشد فيها من أسماء شعراء لم نعرف كثيراً منهم إلّا من خلالها، وبالمنهج الذي اتّبعه البحتري في الاختيار والتبويب الذي انفرد به بين أصحاب الاختيارات الشعرية"⁹، وهي من حيث الترتيب الزمني لظهور تأليف الاختيارات الشعرية تأتي الخامسة بعد: المعلقات والمفضليات والأصمعيات وحماسة أبي تمام والثانية في تخصيص المجموعات باسم الحماسة. واللافت في حماسة البحتري أنّه لم يورد باباً من أبواب الكتاب معنوناً بالحماسة وإن كانت السبعة والعشرون باب الأولى قد خضع الانتقاء فيها على إيراد معاني الشجاعة والشدة والمنع والمحاربة والهيّاج والغضب والقوّة والجرأة والصبر والاحتمال وإثارة النخوة والإباء¹⁰.

⁷- السابق، 40/1.

⁸- شعبان محمد غالي: كتب الحماسة وقيمها الأدبية والنقدية في التراث العربي: دراسة موضوعية وفنيّة، أطروحة مقدّمة لنيل شهادة الإجازة الدقيقة الدكتوراه في الأدب العربي، جامعة الفاتح، ليبيا، 2008-2009، ص.ص. 15-16.

⁹- البحتري: الحماسة، تح: محمد إبراهيم حور، أحمد محمد عبيد، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، المجمع الثقافي، ط1، 2007، ص9.

¹⁰- شعبان أحمد غالي: كتب الحماسة وقيمها الأدبية والنقدية، ص17.

وخالف البحتري أبا تمام في إلحاق أشعار: الأضياف والمديح والسير ومذمة الناس.... وذلك لاعتقاده أن هذه الأشعار خارجة عن إطار مفهوم الحماسة الشعرية، غير أنه:

1- ضمّنها (يعني حماسته) أشعارا قد توهم بأنّها بعيدة عن الحماسة وهي:

- أشعار في موضوعات الفرار من المعركة.

- الاعتذار من الفرار.

- الإقرار بالفرار.

- الفرار على الأرجل.

- الفرار على الخيل.¹¹

و التساؤل الذي أورده الباحث شعبان أحمد غالي "فكيف يعتذر الفارس من الفرار أو يقرّ به، أو يكون فراره حسنا؟ وهل من الحماسة أن يفرّ الفارس من المعركة؟"¹². ولتعليل ذلك نقل الباحث أشعاراً واردة في الحماسة من أبيات يقرّ فيها أصحابها بالفرار، في الباب الثامن عشر تحت عنوان: فيما قيل بالإقرار بالفرار¹³، قال عمرو بن معدي كرب:

ولقد أجمع رجليّ بها حدّر الموت وإني لفرور
ولقد أعطفها كارهة حين للنفس من الموت هريز
كلّ ما ذلك منّي خلّق وبكلّ أنا في الرّوع جدير¹⁴

قال الباحث فهو يفرّ عندما لا يكون لصموده أثر على تغيير مجون المعركة، وعندما يكون موته رخيصاً أي بلا فائدة يجنيها قومه وعشيرته، ولكنه يعطفها كارهة وهي تهرب من الموت، ويصمد بكلّ قوّة في حال غير تلك الحال. ولهذا فهو يفتخر بأنّ هذا هو خلقه لأن فراره ممتزج بثباته وأنّه جدير بهذا الخلق في الحالتين¹⁵.

2- كما ضمّنها أشعارا توحى بتناقضها مع معاني الحماسة، وهي ما ورد في:

¹¹- السابق، ص18.

¹²- نفسه، ص18.

¹³- الديوان: ص.ص. 112-113.

¹⁴- نفسه، ص112.

¹⁵- شعبان أحمد غالي: كتب الحماسة وقيمتها الأدبية والنقدية، ص19.

- باب "فيما قيل فيمن تتهم مودته ولا يوثق بإخائه" الباب الواحد والثلاثون.
- باب "فيما قيل في قطع من اعتراض في وده" الباب الرابع والثلاثون.
- باب "فيما قيل فيمن إذا استغنى جفا إخوانه وتباعد منهم وإذا افتقر دنا إليهم ووصلهم" الباب الثامن والأربعون.

واللافت أن معاني هذه الأبواب ومحاورها الدلالية كلّها تصب في معاني الحماسة من تمدح للمكارم وذمّ لعيوب الأخلاق.

(3) حماسة الزوزني* (ت413هـ):

تأتي حماسة الزوزني في القرن الخامس تحت عنوان: "حماسة الظرفاء من أشعار المحدثين والقدماء"، وسار في انتقائها على اعتبار معنى واسع للحماسة شأن أبي تمام في استدعاء غير أغراض الحرب والشدة والسلاح وغيرها من "مثل المديح والفخر والهجاء والكبر والشيب والحكمة والأدب، ومعان أخرى جزئية مثل الفرار وذلّ الغريب وحبّ البنات والولد والعطف عليهما وعداوة بن العم...¹⁶". وقد أراد أن تكون حماسته مماثلة لحماسة أبي تمام ضمّ عشرة أبواب سعى فيها لأن يكون معلماً للناشئة الذين لم ترتق بعد كفاءتهم الأدبية إلى أبي تمام، فقال في مقدّمته: "شحن-أدام الله عزك- أبو تمام الطائي رحمه الله كتاب الحماسة بأشعار أفاض معظمها غرائب، وتحتها من معانيها عقارب . وأهل زماننا في السهل القريب أرغب، لأنه من الإفهام أقرب. فجمعت من كتابي هذا من مختار الشعر ومنقاه ما يقرب من أبياته كتابه، في أبواب عددها كعدد أبوابه. ليكون للمبتدئ تخريجا، وإلى كتاب الحماسة تدريجا، فإنّ الأدب درجات... والفضل للسابق المبتدئ وإن اجتهد التابع المقتدي. وسميته كتاب حماسة الظرفاء من أشعار المحدثين والقدماء...¹⁷".

*- هو أبو محمد عبد الله بن محمد العبد لكانى الزوزني، توفي 314هـ. ينظر في ترجمته أبو محمد عبد الله بن محمد العبد لكانى الزوزني: حماسة الظرفاء من أشعار المحدثين والقدماء، الجزء الأول، تح: محمد جبار المعبيد، منشورات وزارة الإعلام، العراق، 1973، نسخة الكترونية.

¹⁶- نفسه، ص20.

¹⁷- الزوزني: حماسة الظرفاء، 15/1.

4) الحماسة الشجرية لابن الشجري*:

ويبدو أن صاحبه ضاهى به حماسة أبي تمام¹⁸، جاءت في تسعة أبواب شبيهة بأبواب أبي

تمام، وهي:

- 1- باب الشدة والشجاعة.
- 2- باب اللوم والعتاب.
- 3- باب المراثي.
- 4- باب المديح.
- 5- باب الهجاء.
- 6 باب الأدب.
- 7- باب النسب.
- 8- باب الصفات والتشبيهات.
- 9- باب الملح.¹⁹

وهو ما يبيّن المعنى الواسع للحماسة الذي بنى عليه المؤلف انتقاءاته، خاصة أنه لم يعمد إلى تسمية باب الأول صريحاً بلفظ الحماسة وعدل عنها إلى الشرح والتفسير: "الشدة والشجاعة"، وقد شابته حماسي أبي تمام والبحري "فهي أقرب من حيث التبويب إلى حماسة أبي تمام منها إلى البحري، وهي من حيث التفصيل أقرب إلى حماسة البحري منها إلى أبي تمام، هذا فضلاً عن تغييرات في المنهج وتفاصيل في العرض"²⁰. والذي نود أن نشير إليه هو بعض الاختلافات التي ميّزت الحماسة الشجرية عن كتب الحماسات الأخرى:

*- هبة الله بن علي بن حمزة العلوي الحسني المتوفى سنة 542هـ، يصل نسبه إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه- ينظر في ترجمته: الحماسة الشجرية، لابن الشجري القسم الأول، تح: عبد المعين الملوحى وأسماء الحمصي، منشورات وزارة الثقافة، العراق، 1970، نسخة الكترونية.

¹⁸- ابن الشجري: الحماسة: ص: ي-هـ.

¹⁹- نفسه، الصفحة نفسها.

²⁰- مصطفى الشكعة: مناهج التأليف عند العلماء العرب، ص518.

من حيث الشعر والشعراء :

- اهتمامه بالشعراء المحدثين وبعض الأمويين.
- ذكره لشعراء القرنين الخامس والسادس: عصره.
- ذكر الشاعرات العربيات خاصة في باب الرثاء.
- اعتماده بعض القصص يتمثل بطلها بنوع من الشعر.

من حيث الملامح العامة:

- باب الحماسة لديه ليس هو أطول أبواب الكتاب: أطول باب هو باب الصفات.
- فرّع أبوابه تفرّعا فنيا مثلما ما ورد في بابي النسب والصفات والتشبيهات.
- قصر باب المُلح.²¹

5) الحماسة المغربية: لأبي العباس أحمد بن عبد السلام الجراوي التادلي*:

وهي الحماسة المسماة: الحماسة المغربية: مختصر كتاب صفوة الأدب ونخبة ديوان العرب، ونوضح هنا أن تسمية الكتاب بالمختصر إنّما هي متأتية من طلب الاختصار الذي قدّمه الخليفة الموحد أبو يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن لما أعجب بالكتاب واستطوله فظهر الالتزام بأمر الخليفة في تسمية الكتاب بالمختصر. وأبواب الكتاب هي:

- 1- المدح: قسم فيه مخصص لمدح الرسول صلى الله عليه وسلم وقسم للسائر من الممدوحين.
- 2- الفخر.
- 3- المراثي.
- 4- النسب.
- 5- الأوصاف.
- 6- الأمثال والحكم.

²¹- السابق، ص.ص. 522-528.

*- ولد الجراوي: توفي في 609هـ، ينظر في ترجمة كتابه: الحماسة المغربي، مختصر كتاب صفوة الأدب ونخبة ديوان العرب، الجزء الأول، تح: محمد رضوان الداية، دار الفكر لعربي المعاصر، لبنان/ دار الفكر، سوريا، ط1، 1991.

7- المُلح.

8- ذمّ النقائض.

9- الزهد والمواعظ.²²

ود شهد لحماسة الجرّاوي بالجودة فهي في المغرب صفو الحماسة الكبرى (حماسة أبي تمام في المشرق)، قال عنه ابن خلكان: "وكان -أي الخليفة يعقوب- محسنا محبًا للعلماء، مقرّبًا للأدباء، مصغيا إلى المدح مثيبا عليه؛ وله ألف أبو العباس أحمد بن عبد السلام الجرّاوي كتابه الذي سمّاه "صفوة الأدب وديوان العرب" في مختار الشعر، وهو مجموع مليح أحسن في اختياره كلّ الإحسان"²³. وقال ابن الأثير في التكملة: "وَأَلَّفَ-الجرّاوي- للسلطان كتبًا في معنى الحماسة لحبيب سمّاه: صفوة الأدب ونخبة كلام العرب أخذها الناس عنه"²⁴.

ويأتي كتاب مختصر صفوة الأدب ونخبة ديوان العرب نموذجًا على التأليف في الحماسات في المغرب والأندلس حيث كان لهم أثر في هذا النوع من الكتابات الذي سنّه أهل المشرق، نذكر منهم:

- أبا عامر محمد بن يحيى بن خليفة بن ينيق الشاطبي الأندلسي (ت547هـ).

- أبا الحجاج يوسف بن محمد بن إبراهيم الأنصاري البياسي الأندلسي (ت652ع) عرفت حماسته بالحماسة المغربية والحماسة البياسية.

6) الحماسة البياسية: وهي المذكورة أعلاه.

وهي على أكثر الأقوال مفقودة ورد في مقال في مجلة عالم الكتاب ما ماده أنّ ما تبقى من هذه الحماسة قليل جدًّا، استطاعت الباحثة من خلاله أن تتبيّن أنّه:

- من الخطأ إطلاق اسم الحماسة التونسية عليها، حيث تذكر أنّ صاحب كتاب أبو العباس الجرّاوي "حسن الشبيهي" حاول إطلاق اسم الحماسة التونسية على حماسة البياسي، وذلك اعتبارًا لتصنيفها في تونس؛

- من الخطأ إطلاق اسم الحماسة المغربية عليها.

²²- الجرّاوي: الحماسة المغربية: 22/1.

²³- نفسه، ص6/1.

²⁴- نفسه، 6/1.

- الخط بين حماستي الجزاوي والبياسي

وقد أوردت الباحثة بعض ما بقي منها، نقطف منه بعض قوله في المقدمة: "قال الشيخ الفقيه الحافظ أبو الحجاج يوسف بن محمد بن إبراهيم البياسي الأنصاري وفقه الله، الحمد لله الذي عمّ بجوده ونواله وشمل بإحسانه وأفضاله وصلى الله علي سيدنا محمد وآله: أمّا بعد، فإنّي قد كنت في أواني حدائتي وزمان شببتي ذا ولوع بالأدب ومحبة في كلام العرب، ولم أزل متتبعاً لمعانيه ومفتشاً عن قواعده ومبانيه، إلّا أن حصلت لي في جملة منه لا يسع الطالب المجتهد جهلها ولا يصلح بالنظر في هذا العلم إلّا أن يكون عنده مثلها. وحملتني المحبة في ذلك العلم والولوع به على أن جمعت مما اخترته واستحسنته من أشعار العرب: جاهليها ومخزرميها وإسلاميها ومولدها، ومن أشعار المحدثين من أهل المشرق والأندلس وغيرهم ما تحسن به المحاضرة وتجمل عليه المناظرة. ثمّ إنّي رأيت أنّ بقاءها دون أن تدخل تحت قانون يجمعها، وديوان يؤلفها، مؤذن بذهابها ومؤدٍ إلى فسادها. فرأيت أنّ أضمّ مختارها وأجمع مستحسنها، تحت أبواب تقيد نافرها وتضمّ نادرها. ونظرت في ذلك فلم أجد أقرب تبويب ولا أحسن ترتيب ممّا بوبه ورتبه أبو تمام حبيب بن أوس رحمه الله تعالى في كتابه المعروف بكتاب الحماسة"²⁵.

(7) حماسات أخرى:

- والذي نشير إليه أن تأليف في هذا النوع من الكتابات كثير وتأصل بعد ابتداعه على يد أبي تمام، فنذكر من الحماسات الأخرى:

- 1- الحماسة البصرية: لأبي الفرج البصري (ت659هـ).
- 2- حماسة العبيدي في القرن الثامن الهجري (التذكرة السعدية).
- 3- حماسة القرشي (ت1299هـ).²⁶

²⁵ - ينظر: نجاه المريني: "الحماسة البياسية لأبي الحجاج البياسي" في مجلة عالم الكتب عن دار النشر والتأليف بالرياض، مج: 14، ع: 2، رمضان - شوال 1414هـ/مارس - أبريل 1993، ص.ص. 163-177.

²⁶ - شعبان أحمد غالي/ كتب الحماسة وقيمتها الأدبية والنقدية، ص.ص. 24-29.

3. الحماسة بين أبي تمام والبحتري:

1.3. سياقات التأليف:

تنقل كتب تاريخ الأدب السياقات التي أسهمت في استحداث تأليف المختارات الحماسية على يد أبي تمام بين القرنين الثاني والثالث الهجريين، جاء في مقدمة شرح الديوان أنّ السبب المباشر في تأليف الكتاب هو وقوع الشاعر حبيب صديقه أبي الوفاء بن سلمة في حمذان وذلك أنه كان زائراً له فسقط ثلج كثير منعه من الرجوع إلى بيته، فضاقت ذرعا من المكوث دون تنقل وترحال، فوضع صديقه مكتبته بين يديه "وطلب منه أن يوطن النفس عن الإقامة فالثلج لن ينحسر إلا بعد زمن"²⁷. ولا تسعفنا هذه الرواية في تبين العامل الجوهرى من تأليف الحماسة إذ جرت العادة آنذاك أن يؤلف الكتاب بأوامر من الحكام والأمراء وأن يهدوا لهم مؤلفاتهم. والذي نلمسه من هذه الرواية أن أبا تمام إنما أنشأ حماسته بدافع ذاتي لم يخضع فيه لأمر أمر، فلا غرابة أن يأتي الكتاب على ذوقه وثقافته الخاصة، ومحفوظة الثرى لديوان العرب، وربما تجاوز شاعريته في شعره، فقد اشتهر بين الناس أنه في الحماسة أشعر منه في إبداعه. فلم يكن يهتم مثلا في إيراد الأبيات المختارة بشهرة صاحبه وإنما حكم تذوقه لها، "ولأنه شاعر ذواقة مرهف العقل والحس كان يعرف كيف يستخرج من القصيدة أروع ما فيها، فإذا اصطدم حسه بلفظة قلقة استبدل بها غيرها حتى يستوفي الكلام عناصر الحسن اللائقة به"²⁸.

أما تأليف كتاب الحماسة للبحتري فإن أول ما يلفت نظرنا فيه هو التصدير المفصل للعنوان: "اختاره من أشعار العرب للفتح بن خاقان معارضة لكتاب الحماسة الذي ألفه أبو تمام حبيب بن أوس -رحمهما الله وعفا عنهما"، ولعل في هذا توجيها أنّ البحتري كان مقيدا في اختياراته من جانبين: مراعاة ذوق الفتح بن خاقان أولا؛ والبناء والسير على ما أسسه أبو تمام؛ غير أن الأمر مختلف عن ذلك فيما تعلق بالجزء الثاني من هذا التصور، وإن كان البحتري قد اعترف لأبي تمام بالأستاذية. وعلى الرغم من ذلك فقد اختلفا في الأسلوب والمنهج من حيث إبداعهما الشعري بحيث مثل أبو تمام

²⁷ -المرزوقي : شرح ديوان الحماسة، 3/1.

²⁸ -عز الدين إسماعيل: المصادر الأدبية واللغوية في التراث العربي، الناشر مكتبة غريب، د.ت، ص93.

اتجاهها تجديديا ومثل البحري اتجاهها تقليديا محافظا. أمّا فيما يخصّ الحماستين فقد التقيا في الفكرة واختلفا في المنهج؛ فكأنّهما لم يجمع بينهما إلاّ العنوان.

2.3. الأبواب:

نميّز فارقا كبيرا بين الحماستين من حيث عدد الأبواب، ففي الوقت الذي لم تتجاوز أبواب أبي تمام الأحد عشر بابا، وصلت أبواب البحري إلى مائة باب وأربع وسبعين باب (174) مصدرّة بعبارة "فيما قيل"، يمكن إعادة توزيعها كالاتي:

- باب الحماسة: 27 بابا الأولى.

- باب الشيب والشباب: الأبواب من 116 إلى 122.

- باب الرثاء: الباب 174.

- باب الأدب: ويشمل بقية الأبواب.²⁹

والتي لا يمكن أن تأتي على ذكرها هنا، أمّا أبواب أبي تمام فهي:

1- باب الحماسة.

2- باب المرثية.

3- باب الأدب.

4- باب النسب.

5- باب الهجاء.

6- باب الأضياف.

7- باب المدح.

8- باب الصفات.

9- باب السير والنّعاس.

10- باب الملح.

²⁹ - أحمد صالح محمد النهمي: الخصائص الأسلوبية في شعر الحماسة بين أبي تمام والبحري - شعر الحرب والفخر نموذجا - أطروحة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في البلاغة والنقد، جامعة أم القرى، 1434هـ/2013م، ص28.

11- باب مَدْمَة النساء .

وقد أحصى محققا حماسة البحترى عددا من الاختلافات بين الحماستين، أورداها في المقدمة،

هي:

✓ قيام حماسة أبي تمام على الأغراض الشعرية في مقابل قيام حماسة البحترى على المعاني الشعرية.

✓ الإجمال عند أبي تمام والتفصيل عند البحترى.

✓ "كشف البحترى عن قدرة فائقة في تقصي المعاني الشعرية والتمييز بينهما".

✓ تغنت القصيدة الواحدة لأجل تسهيل البحترى للقارئ الحصول على المعنى الذي يريده.

✓ خلوّ حماسة البحترى من معانٍ كثيرة كالغزل واللهو.

✓ انفراد حماسة البحترى بأشعار لم ترد عند أبي تمام.

✓ عدد الشعراء فيها 630 شاعراً، كثير منهم لم يردوا في غيرها.³⁰

3.3. الاختيارات الشعرية:

على أساس من اختلاف مذهبي الشاعرين في تعاطي الشعر، كيف أثر المذهب في عملية الانتقال.

- تشابه الانتقاء: على الرغم من الاختلاف فقد تشابهت بعض انتقاءاتهما:

انتقى أبو تمام في حماسية الحارث بن هشام القرشي:

اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَرَكْتُ قِتَالَهُمْ حَتَّىٰ عَلُوا فِرْسِي بِأَشَقَّرِ مُرِيدِ

وَعَرَفْتُ أَنِّي إِنْ أُقَاتِلَ وَاحِدًا أُقْتَلُ وَلَا يَضُرُّ عَدُوِّي مَشْهَدِي

فَصَدَدْتُ عَنْهُمْ وَالْأَحِبَّةَ فِيهِمْ طَمَعًا لَهُمْ بِعِقَابِ يَوْمِ سَرْمَدِ

تتكرّر هذه الحماسية عند البحترى في الباب السابع عشر دون زيادة أو نقصان.³¹

وقد تميّزت على الرغم من التشابه بكثير من الاختلافات في عوامل الانتقاء: فقد قام انتقاء

أبي تمام على:

³⁰ - البحترى: الحماسة، ص.ص. 6-7.

³¹ - أحمد صالح النهمي: الخصائص الأسلوبية، ص272.

- الجودة الفنية.
- عدم الاقتصار على المشهورين من الشعراء.
- الامتداد الزمني لعصور الشعراء.
- الإكثار من شعر الطائيين.
- تصنيف الاختيارات حسب الموضوع.
- ترتيب الحماسيات بطريقة يغلب عليها التناسق والتلاحم.
- عدم النسبة وإغفال المناسبة.
- انتقاء مقطوعات أو عدة أبيات من قصيدة.
- التوسع في مفهوم الباب.
- تصرف أبي تمام في تغيير بعض ألفاظ الأبيات المتخيرة.³²
- أما الانتقاء عند البحتري فقد تمّ على أساس:
- ترتيب الاختيارات حسب المعنى الشعري.
- تقنيت القصيدة الواحدة وتوزيع أجزائها على أكثر من باب.
- الإكثار من عدد الأبواب.
- الاقتصار على الشعر القديم.
- تغليب القيمة الأخلاقية على القيمة الفنية.

³² - السابق، ص.ص. 274-286.

المحاورة العاخرة:

الشعر الساسي في المشرق والمغرب:

الفتوحات - الخوارج - الشيعة - السجون - رثاء المدن.

توطئة

1. الشعر الساسي المفهوم والممارسات

2. الشعر الساسي الأموي

3. شعر السجون

4. رثاء المدن

المحاضرة العاشرة:

الشعر السياسي في المشرق والمغرب

الفتوحات - الخوارج - الشيعة - السجون - رثاء المدن.

توطئة:

عاش العربي: سلاحه لسانه قبل سيفه، ينتصر به لنفسه ولحليفه؛ يردّبه طعنات أعدائه. فنشأ لا يفتر عن القول ولا يتوانى عن إبداء الرأي. والقول الشائع إنّ الشاعر هو لسان القبيلة هو دليل قويّ أن للشعراء مسافات يقفون عندها للتعبير عن غيرهم وقد انصهروا فيهم؛ وأنّ لهم مواقف يتخذونها في الأمور الجليّة، ومنه كانت أشعارهم في الدفاع عن المواقع السياسية التي يحتلونها مناصرة / أو معارضة. وبقولنا هذا نؤكد أن الشعر والسياسة توأم؛ وباعتبار الشعر رسالة موجهة تحقّق أغراضاً مختلفة.

1. الشعر السياسي المفهوم والممارسات:

يتضح ممّا سبق أنّ مفهوم الشعر السياسي مرتبط بالمقصود من السياسة في المجال الأدبي خاصة، وقد عرّفها سعيد علوش في معجم مصطلحات النقد الأدبي المعاصر، نقّبتس من تعريفه بعض النقاط تكون لنا ضوابط في رؤيتنا، جاء في المعجم: "السياسة فضاء اجتماعي لمواجهة الآراء ومصالح المواطن. والسياسة فنّ حكم وتدبير شؤون. من ثمّ فالمجال الأدبي لا يمكنه التفكير خارج المفهومين، لأنه فضاء اندماج مدني للمواطنين في الحياة الاجتماعية، لسماحه بالإلمام باللغة والخطابات والمعارف والتمثيلات، ولأنّه يمنح وسيلة إبداع وتسليّة من جهة. ومن جهة أخرى يمكنه أن يكون موجة رأي ومصالح. فالمكانة والرسالة المنوطتان به تعودان إلى اختياراته السياسية"¹.

فالمتعلّق بين الشعر والسياسة هو الفضاء التشاركي بين الشعراء والقضايا التدبيرية لأجل التوجيه؛ وعليه يحقق الشعر وظيفته في التعبير عن الآراء وإجلاء الصراعات والاختلافات في عظام الأمور فتتجلّى آثارها في الواقع من خلال إلزام الشاعر بحمل قضاياها السياسية إلى شعره. باعتبار

¹ - سعيد علوش: معجم مصطلحات النقد الأدبي المعاصر - فرنسي-عربي: مرا: كيان أحمد، حازم يحيى، حسن الطالب، دار الكتاب الجديد المتحدة، ليبيا، ط.1، 2019، ص496.

الشعر السياسي "هو الفنّ من الكلام الذي يتصل بنظام الدولة الداخلي أو بنفوذها الخارجي ومكانتها بين الدول.... فمن حيث أنّه فنّ رفيع تراه يتناول هذه الأشياء نفسها بطريقته الفنيّة التصويرية الشعورية بحيث لا يلتزم البراهين المنسقة ولا الجدل التّام العناصر، ولا التفصيل العريض، وحسبه أن يوجز القول مكثفياً بأهمّ عناصره معتمداً على نباهة القارئ الذي يدرك المحذوف، ثمّ يعنى بالنامية الخيالية يتخذ منها صوراً ثلاثم غايته من الإجلال أو الاحتقار، وربما اتخذ منها براهين خطابية لقصد التأثير"². وعليه فإنّه على الشعر السياسي أن يتجاوز الحرفية والواقعية الجافة إلى التخيل الشعري.

وانطلاقاً من المقدمات التي أسلفنا يمكن أن نعيّن نظرتنا للشعر السياسي في الأدب العربي القديم، حيث مارس الشاعر نوعاً من الالتزام بانتمائه إلى القبيلة والزمها له بوجود الذود عنها ظالمة أو مظلومة، وكانت هذه أولى إرهابات الأدب السياسي، ذلك أن العصبية القبلية قد تكون أقوى دلالة من الحزب السياسي. وبعد العصبية القبلية تحوّل الشعر إلى وظيفة دينية محضة مثلت توجّهه نحو الدفاع عن الدعوة الإسلامية، وهو مسار مخالف للأول ظلت عليه الحركة الشعرية العربية في عصر صدر الإسلام، تمثّل في شعر الفتوحات خاصة. وعرف الشعر العربي الفقرة في الأغراض والفتنات في الفتنة الإسلامية الكبرى بعد مقتل عثمان رضي الله عنه، ثمّ بعد تولي علي بن أبي طالب الخلافة وقتله وتفتت الصراعات السياسية والنزاعات حول من هو الأحقّ بكرسي الخلافة.

2. الشعر السياسي الأموي:

بعد الاضطرابات التي عمّت حياة الخلافة الإسلامية والانشقاقات التي ميّزت الأجواء السياسية بعد مقتل علي بن أبي طالب رضي الله عنه- وانتقال الحكم إلى بني أمية إثر تنازل الحسن بن علي رضي الله عنهما- لمعاوية بن أبي سفيان تقادياً لإراقة دماء المسلمين؛ لم يكن في مقدور الأمويين إخماد نار الفتن وإسكات الأصوات المناهضة لهم المطالبة بإرجاع مقاليد الخلافة إلى من هم أحقّ بها، فأسفرت الأحزاب عن توجهاتها وخرج كل حزب ينافح عنه شعراؤه.

² - أحمد الشايب: تاريخ الشعر السياسي إلى منتصف القرن الثاني، مكتبة النهضة المصرية، مصر، د.ت،

1- الحزب الأموي:

وهو الحزب الأول باعتبارها متحكما في زمام الدولة يتزعمه معاوية بدهائه السياسي ومقولته المشهورة "لو أن بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت، كنت إذا شذوها أرضيتها وإذا أرخوها شددتها". استطاع الحزب أن يتصدى لجميع الفرق وإن لم يسكتها- فاستقر في الحكم ما يقارب قرنا من الزمن: 41هـ-132هـ. على نظام الحكم الوراثي. ومن شعرائه:

- مسكين الدارمي: قد دفعه معاوية لأن يومئ إلى استخلاف يزيد ابنه بعد فقال:

ألا لَيْتَ شعري ما يقول ابنُ عامر ومروان أم ماذا يقول سَعِيدُ
بني خلفاء الله مهلا فانما يبوءها الرحمن حيث يريدُ
إذا المنبر العربي خلاه ربه فان أمير المؤمنين يزيدُ
على الطائر الميمون والجد صاعد لكل أناس طائر وجودُ
فلا زلت على الناس كعباً ولا تنزل وفود تسامها إليك وفودُ
ولا زال بيت الملك فوقك عالياً تشيد أطناب له وعمودُ
قال معاوية بعد سماعه الأبيات: "تنظر فيما قلت يا مسكين ونستخير له"³.

- الأخطل: وقد حرضوه على الانتقاص من الأنصار استغلالاً منهم لديانته الكتابية: كان نصرانيا، قال فيهم:

دَهَبَتْ قُرَيْشٌ بِالْمَكَارِمِ كُلِّهَا وَاللُّؤْمُ تَحْتَ عَمَائِمِ الْأَنْصَارِ⁴
كان مادحا حريصا على أن يستفيد من البيت الأموي هو وقبيلته، قال يحذر بني أمية من أنصار الزبير المنهزمين بأنه مازال فيهم مكر وخداع وكيد⁵:

³- زكريا عبد المجيد النوتي: الأدب الأموي تاريخه وقضاياها، مطبعة الحسين الإسلامية، مصر، د.ت، ص.ص. 12-13.

⁴- محمد عبد المنعم خفاجي: الحياة الأدبية، عصر بني أمية، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط2، 1973م، ص.92.

⁵- نفسه، ص.94.

يا بني أُمِّيَّةَ قَدْ نَاضَلْتُ دُونَكُمْ أبنَاءَ قَوْمٍ هُمُ آوُوا وَهُمْ نَصَرُوا
أَفَحَمْتُ عَنْكُمْ بَنِي النَّجَارِ قَدْ عَلِمْتُ عليا مَعَدِّ وَكَانُوا طَالَمَا هَدَرُوا
حَتَّى اسْتَكَانُوا وَهُمْ مِنِّي عَلَى مَضْضِ وَالْقَوْلُ يَنْفَعُ مَا لَا تَنْفَعُ الْإِبْرُ
بَنِي أُمِّيَّةَ إِنِّي نَاصِحٌ لَكُمْ فَلَا يَبْيِئُنَّ فِيكُمْ أَمِنًا زُفْرُ
وَقَدْ نُصِرْتُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِنَا لَمَّا أَتَاكَ بِبَطْنِ الْغَوَطَةِ الْخَبْرُ

والأخطل من رواد الشعر السياسي في الأدب العربي تكفل بهجاء الأنصار على يد يزيد بن معاوية انتصارا لقريش بني أمية عليهم، وكانت له حظوة عند خلفاء بني أمية فدافع عنهم ومدحهم طمعا فيهم ودفاعا عن قبيلته تغلب (كانت تدين بالنصرانية قبل الإسلام).

ومن شعرائهم أيضا جرير والفرزدق، وقد سبقت الإشارة إليهما في النقائض. والغالب على شعر الحزب الأموي أنه جاء "خليطا من المديح والهجاء والحديث عن العصبية القبلية في الجاهلية والإسلام، من فخر بالأنساب والآباء والأجداد وحديث عن الأيام والوقائع واعتزاز بالنصر ومعايرة بالهزيمة، في إطار من التغني بأمجاد الأمويين وولاتهم وقوادهم وسؤال لعطاياهم وشكر جزيل لتلك العطايا"⁶.

2- حزب الخوارج:

وهي الفئة التي خرجت عن علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- حين قبل التحكيم بينه وبين معاوية لتولي أمر المسلمين، وهم يرون أن الحق في الخلافة ليس مقتصرًا على من انتسب إلى قريش بل هو حق كل المسلمين، وفي ذلك قال شاعرهم عمران بن حطان:

فَنَحْنُ بَنُو الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ رَبُّنَا وَأُولَى عِبَادِ اللَّهِ بِاللَّهِ مَنْ شَكَرَ

جاء شعرهم صادق التصوير لمذهبهم السياسي وذلك لاحتفاظهم بطابعهم البدوي وفضلا عن

هذه السمة تميّز ب:

- إحلاء قوة العقيدة.

- التأثر ببلاغة القرآن.

⁶ عبد القادر القط: في الشعر الإسلامي والأموي، دار النهضة العربية، بيروت، 1987، ص 307.

- الشعراء هم أنفسهم قادة في الحزب.
- الإخلاص لفرق الشعر السياسي دون غيره من الأغراض فلم يتحولوا إلى أغراض أخرى يرتزقون بها كما فعل ذلك كثير من شعراء الأحزاب الأخرى.
- ذوبان الجنسيات والأعراق في المذهب الديني.
- لم يكن شعراء حزب الخوارج من فحول الشعراء، فلم يتركوا دواوين، أمّا الطرماح فديوانه مزيج من الأغراض وليس وفقا على الحزب الخارجي.

- تميز بأسلوب خطابي تقريرى.⁷

ومن جملة خواصه الفنية ذكر أحمد الشايب:

- أنه جديد الموضوع.
- ابتعد عن التقليد الأدبي السائد آنذاك في هيكله القصيدة العربية.
- شعر ورد في شكل مقطوعات وقد سمحت له هذه الميزة بالتحكم في الموضوع والمعاني،
- قد يستثنى منهم عمرو بن الحصين الذي بقي على تطويل القصائد.

- تشابه أشعارهم.⁸

ونذكر من شعراء هذا الحزب:

- عمران بن حطان.
- الطرماح بن حكيم الطائي.
- قطري بن الفجاءة.
- عمرو بن الحصين.

3- حزب الشيعة/ الهاشميون/ العلويون:

والشيعة هم الطائفة التي ترى أن الحق في الخلافة لعلي رضي الله عنه قبل أبي بكر وذلك لمكانة علي وقربته من الرسول صلى الله عليه وسلم- "وأساس التشيع يدور حول الخليفة من يكون،

⁷- أحمد الشايب: تاريخ الشعر السياسي إلى القرن الثاني، ص.ص. 142-144.

⁸- نفسه، ص.ص. 145-146.

وعند رجاله أنّ علياً أحقّ بخلافة الرسول، ثمّ بنوه من بعده بطريقة التسلسل الوراثي، ولاحقّ فيها لغير العلويين.... وهذا يخالف رأي الأمويين.... ويخالف رأي الزبيريين.... ويخالف رأي الخوارج⁹. وأشهر شعراء هذا الحزب: "الكميت" وديوانه الهاشميات اقتصر فيه على الانتصار لهم حباً فيهم لا رياء فيه، وقد خلال من الجدل السياسي لقوة العاطفة فيه¹⁰. ومن أشهر قصائده بائيته التي مطلعها:

طَرِبْتُ وما شَوْقاً إلى البِيضِ أَطْرَبُ وَلَا لَعِباً مِنِّي أَدُو الشَّيْبِ يَلْعَبُ
ولم يُلهِنِي دَارٌ وَلَا رَسْمٌ مَنزِلِ ولم يَتَطَرَّبَنِي بَنَانٌ مُحَضَّبُ
وَلَا أَنَا مِمَّنْ تِرْجُزُ الطَّيْرُ هَمُّهُ أَصَاحَ غُرَابٌ أَمْ تَعَرَّضَ تَعَلَّبُ
وَلَا السَّانِحَاتُ النَّبَارِحَاتُ عَشِيَّةً أَمَرَ سَلِيمُ الْقَرْنِ أَمْ مَرَّ أَعْصَبُ
وَلَكِنِ إِلَى أَهْلِ الْفَضَائِلِ وَالنُّهَى وَخَيْرِ بَنِي حَوَاءَ وَالْخَيْرِ يُطَلَّبُ
إِلَى النَّقْرِ البِيضِ الَّذِينَ بِحُبِّهِمْ إِلَى اللَّهِ فِيمَا نَابَنِي أَتَقَرَّبُ¹¹
وقد اتسم شعره بالنزعة الخطابية تجلّت في المظاهر الآتية¹²:

(1) في بناء القصيدة: حيث يقوم نصه على إثارة فضول السامع مستدعياً الجانب الوجداني فيه على عادة الخطباء، ليخرج بعده إلى إثارة موضوعه.
(2) في الإيقاع والتكوين والصور: وقد اعتمد الشاعر أسلوب التكرار في أشكال مختلفة له، والظاهرة لديه قوّة الدلالة من حيث كونها ظاهرة أسلوبية خطابية تحقق أغراضاً إقناعية سياسية حزبية قال:

إِلَى الْهَاشِمِيِّينَ النَّبَهَائِلِ إِنَّهُمْ لَخَائِفِنَا الرَّاجِي مَلَأْدٌ وَمُوئِلُ
إِلَى أَيِّ عَدَلٍ أَمْ لَأَيَّةِ سِيرَةٍ سِوَاهُمْ يُؤْمُ الظَّاعِنُ الْمَتَرِحِلُ
فَإِنَّهُمْ لِلنَّاسِ فِيمَا يُؤُوبُهُمْ غُيُوثٌ حَيّاً يَنْفِي بِهِ الْمَحْلُ مُمِحِلُ

⁹ - السابق، ص 156.

¹⁰ - عبد القادر القط: في الشعر الإسلامي والأموي، ص 278.

¹¹ - ديوان الكميّ بن زيد الأسدي، جمع وشرح وتحقيق محمد نبيل طريفي، دار صادر، بيروت، ط 1، 2000، ص.ص. 512-515.

¹² - عبد القادر القط: في الشعر الإسلامي والأموي، ص 279 وما بعدها.

وَأَتَّهُمْ لِلنَّاسِ فِيمَا يُؤُوبُهُمْ أَكْفُ نَدَى تُجْدِي عَلَيْهِمْ وَتُفْضِلُ
وَأَتَّهُمْ لِلنَّاسِ فِيمَا يُؤُوبُهُمْ عَرَى ثَقَّة حَيْثِ اسْتَقْلُوا وَحَلَلُوا
وَأَتَّهُمْ لِلنَّاسِ فِيمَا يُؤُوبُهُمْ مَصَابِيحُ تَهْدِي مِنْ ضَلَالٍ وَمَنْزِلٌ¹³

(3) التقسيم: حيث يسعى الشاعر إلى إيراد كثير من "الجزئيات في صورته الشعرية داخل إطار البيت الواحد"، قال:

إِذَا أَدَلَّمْتَ ظِلْمَاءَ أُمْرِينَ حَنْدَسَ فَبَدْرٍ لَهَا فِيهَا مَضِيءٌ وَكَوْكَبٌ
وَلَا حَمُولٌ غَدَتِ وَلَا دَمْنَى لَوَيْسِي 2

نضيف إلى هذه السمات ملمحا فنياً عاماً تميّزت به "الهاشميات" إذ أنّها "قصائد لا تبتدئ ببكاء الأطلال والديار على عادة القصائد القديمة، إنّما تبتدئ بحبّ أهل البيت الهاشمي والنسيب بهم.... وقصف رحلته في الصحراء ولكنّه يأتي بها في آخر القصيدة، كأنّه يريد ألاّ يشغله عن مديح بني هاشم، وهي ليست مدائح بالمعنى المعروف؛ وإنّما هي دفاع عن البيت الهاشمي، وتقرير لما يراه إمامه زيد في صورة حماسية رائعة"¹⁴. أمّا عن مجمل صفات شعرهم فقد تميّز بـ:

- الجمع بين الاحتجاج والتصوير.
 - خروج هذا الشعر إلى فنون غير السياسية مثل المديح والثناء.
 - التنوع في الأسلوب بين الهادئ والصاخب.
 - تمثيل المذهب السياسي الذي يدعو إليه.¹⁵
- ومن شعرائهم: الكميّ، كثير عزة، أيمن بن خريم الأسدي.

¹³ - الديوان: ص.ص. 606-609.

¹⁴ - شوقي ضيف: التطور والتجديد في الشعر الأموي، دار المعارف، مصر، ط8، ص273.

¹⁵ - أحمد الشايب: تاريخ الشعر السياسي إلى نهاية القرن الثاني، ص.ص. 162-164.

4- الزبيريون:

تعود نسبة هذا الحزب إلى عبد الله بن الزبير بن العوام أحد الصحابة الكرام، وهو من قرابة الرسول صلى الله عليه وسلم*. وقد تولى الدفاع عن هذا الحزب ومثّل رؤاه عبید الله بن قيس الرقيات، وقد جاء شعره "في معظمه مقطوعات وقصائد قصيرة تغلب عليها أو على مقدماتها نزعة عاطفية تشبه ما نراه عند العذريين أحيانا وعند عمر بن أبي ربيعة أحيانا أخرى، وشعره السياسي يبدو متأثرا بتلك النزعة العاطفية، بعيدا عن الأساليب الخطابية الجهرية"¹⁶ ومن أشعاره يمدح مصعباً ابن الزبير:

أَقْفَرَتْ بَعْدَ عَبْدِ شَمْسٍ كِدَاءُ فَكُدَيْيَ فَالرُّكْنَ فَالْبَطْحَاءُ
فَمِنِّي فَالْحِمَارُ مِنْ عَبْدِ شَمْسٍ مُقْفَرَاتٍ فَبَلَدِخَ فَحِرَاءُ
حَبْدًا الْعَيْشُ حِينَ قَوْمِي جَمِيعَ لَمْ تَقْرَقِ أُمُورَهَا الْأَهْوَاءُ
قَبْلَ أَنْ تَطْمَعَ الْقَبَائِلُ فِي مَلِكِ قُرَيْشٍ وَتَشْتَمَّ الْأَعْدَاءُ
أَيُّهَا الْمُشْتَهَى فَنَاءَ قُرَيْشٍ بِنِدِّ اللَّهِ عُمَرُهَا وَالْفَنَاءُ
إِنَّمَا مُصْعَبٌ شِهَابٌ مِنْ اللَّيْلِ تَجَلَّتْ عَنْ وَجْهِهِ الظُّلْمَاءُ
مُلْكُهُ مُلْكُ قُوَّةٍ لَيْسَ فِيهِ جَبْرُوتٌ وَلَا بِهِ كِبْرِيَاءُ¹⁷

3. شعر السجون:

أدت الانشقاقات السياسية التي أشرنا إلى بعضها في الصفحات السابقة وسقوط الخلافة الإسلامية مشرقا ومغربا إلى امتلاء السجون بأصوات المعارضة تعبيرا عن مواقف سياسية أو تصويرا لنوع من التجارب جديد على الشعراء وجدوا فيها متنفسا عن حالات الضيق التي يحيونها في فضاء خال من مقومات الحياة العادية جعلوا منه عوالم تستوعب أحاسيسهم ومشاعرهم.

ولم يكن شعر السجون وليد العصور المتأخرة أو قصرا على إقليم الأندلس وقد اشتهر به، وإنما رافق الشاعر العربي منذ العصور الأولى، حيث صور بعضهم مكوثهم في الحبس لسبب من

*- إحدى جداته صفية بنت عبد المطلب عمّة النبي (ص) والثانية خديجة بنت خويلد زوجه عليه الصلاة والسلام، وأمه أسماء بنت أبي بكر أخت عائشة زوج النبي (ص).

¹⁶ - عبد القادر القط: الشعر الإسلامي والأموي، ص 365.

¹⁷ - أحمد الشايب: تاريخ الشعر السياسي، ص 179.

الأسباب مثل عدي بن زيد العبادي الجاهلي أو الحطيئة لما سجنه عمر بن الخطاب ردعا له عن إيذاء المسلمين بشعره، وغيرها من الحالات. واتخذ هذا الشعر بعض المكانة بعد تدهور الأوضاع السياسية في الخلافة الإسلامية، وانقلاب حال الشعراء من حال إلى آخر، تمثل لهذه الظاهرة بـ:

1- الأدب العباسي:

- أبو الفراس الحمداني (ت320هـ-357هـ) الروميات:

هو أبو فراس الحارث بن أبي العلاء سعيد بن حمدون الحمداني، ابن عمّ سيف الدولة. كان من المشهورين بالفروسية والشعر. خرج مع سيف الدولة في معاركه التي حارب فيها الروم فأُسر في إحداهما وهو جريح في فخذه، فحمل إلى القسطنطينية وسجن فيها أربع سنوات، ونظم وهو في السجن قصائد امتازت بالفرقة والحنين إلى الوطن وعرفت بالقصائد الروميات، ثم أطلق سراحه وعاد إلى وطنه¹⁸. وتذكر الكتب في تاريخ الأدب أن افتدائه من الأسر قد طال وهو ما زاد في عمق أساه في السجن.

قصائد الروميات: هي مجموعة من القصائد قالها الشاعر وهو في سجن الروم تميّزت بخصوصيات المكان الذي احتواها والنفس المقهورة التي عانت الانتقال من حياة العزّ والغنى والملك إلى حياة الدّل والهوان في أيدي العدو. قال عند موت أمّه وهو في السجن:

أيا أمّ الأسيرِ سَقَاكِ غَيْثٌ بِكْرِهِ مِنْكِ ما لَقِيَّ الأَسِيرُ
أيا أمّ الأسيرِ سَقَاكِ غَيْثٌ تَحَيَّرَ لِأَيْقِيمِ وَلا يَسِيرُ
إِذَا ابْنُكَ سَارَ فِي بَرٍّ وَبَحْرٍ فَمَنْ يَدْعُو لَهُ أَوْ يَسْتَجِيرُ
حَرَامٌ أَنْ يَبِيَّتَ قَرِيرَ عَيْنٍ وَوَلَوْمْ أَنْ يُلْمَ بِهِ السُّرُورُ
وَقَدْ نُقِتِ الرِّزَايَا وَالْمَنَايَا وَلا وَوَلَدَ لَدَيْكَ وَلا عَشِيْرُ¹⁹

ومن أجود ما قال: قاله وقد بلغه أنّ الروم قالت: ما أسرنا أحداً لم نسلب سلاحه غير أبي

فراس:

¹⁸ - جورج زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية، الجزء الثاني، موفم للنشر، الجزائر، 1993، ص441.

¹⁹ - ديوان أبي فراس الحمداني، الجزء الثاني، جمعه سامي الدهان، بيروت، 1944، ص217.

أَرَاكَ عَصِيَّ الدَّمْعِ شِيمَتُكَ الصَّبْرُ
 بَلَى أَنَا مُشْتَاقٌ وَعِنْدِي لَوْعَةٌ
 إِذَا اللَّيْلُ أَضْوَانِي بَسَطَتْ يَدَ الْهَوَى
 تَكَادُ تُضِيءُ النَّارَ بَيْنَ جَوَانِحِي
 مُعَلَّتِي بِالْوَصْلِ وَالْمَوْتُ دُونَهُ
 حَفِظْتُ وَضَّيْعَتِ الْمَوَدَّةِ بَيْنَنَا
 وَمَا هَذِهِ الْأَيَّامُ إِلَّا صَحَائِفٌ
 2- الأدب الأندلسي:

ساعدت الفتن الداخلية على مرّ عصور الحكم الإسلامي في الأندلس على اضطهاد بعض الأديباء والزّج بهم في السجون وهم كثير²¹، تناولت الدراسات أخبارهم وأشعارهم، نذكر منهم:
 - ابن زيدون:

ذكرت أسباب كثيرة في أسباب سجنه فمنهم من ردها إلى أغراض سياسية كان قد خطط لها ومنهم من ردها إلى أسباب اجتماعية متعلقة بالإرث²². قال مستعظفا وهو في السجن:
 لَا يُهْنِيءُ الشَّامِتَ الْمُرْتَاخَ خَاطِرُهُ
 هَلِ الرِّيَاحُ بِنَجْمِ الْأَرْضِ عَاصِفَةٌ
 أَنِّي مُعْنَى الْأَمَانِي ضَائِعُ الْخَطَرِ
 إِنْ طَالَ فِي السِّجْنِ إِيْدَاعِي فَلَا عَجَبٌ
 قَدْ يُوَدِّعُ الْجَفْنَ حُدَّ الصَّارِمِ الذِّكْرِ
 وَإِنْ يُثَبِّطُ أَبَا الْحَزْمِ الرِّضَى قَدْرٌ
 عَنْ كَشْفِ ضُرِّي فَلَا عَتَبَ عَلَى الْقَدْرِ

²⁰- الديوان: 210/2.

²¹- ينظر في عرض مجموعة منهم: إبراهيمي فوزية: شعر السجون في الأندلس، رسالة ماجستير جامعة بن يوسف بن خدة (الجزائر 02)، 2004-2005، ص.ص. 68-80.

²²- صلاح خالص: أشبيلية في القرن الخامس الهجري: دراسة أدبية تاريخية، نشوء دولة بني عباد في اشبيلية وتطور الحياة الأدبية فيها، دار الثقافة بيروت، 1981، ص.ص. 173-185، وينظر في محاكمته: ديوان ابن زيدون ورسائله، تحقيق وشرح علي عبد العظيم، نهضة مصر، للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، دبت، ص.ص. 40-44.

ما لِلذُّنُوبِ الَّتِي جَانِي كِبَائِرِهَا غَيْرِي يُحْمَلُنِي أَوْزَارَهَا وَرَزِي
مَنْ لَمْ أَزَلْ مِنْ تَأْنِيهِ عَلَى ثِقَةٍ وَلَمْ أَبِتْ مِنْ تَجَنُّبِهِ عَلَى حَذَرِ
الكَاطِمِ الغَيْظِ يَنَسَابُ الضَّمِيرُ لَهُ لَوْلَا الأَنَاءُ سَقَاهُ مِنْ دَمِ هَدَرِ
ذُو الشِّيمَةِ الرَّسَلِ إِنْ هِجَتِ حَفِيزَتُهُ وَالجَانِبِ السَّهْلِ وَالْمُسْتَعْتَبِ النِّيْدَرِ²³

4. رثاء المدن:

عرف للشاعر العربي الرثاء منذ نعومة أظفاره، فهو الغرض الملازم له ملازمة الغزل، لا يعيش دونهما؛ الأصل فيهما شدة التعلق وتبدو آثارهما حزنا وأسى بعد الفراق والابتعاد، فكما كان الارتباط قويا كلما كان النأي مؤثرا. وقد انسحبت طبيعة هذه العلاقة إلى الارتباط بالمكان؛ وللشاعر العربي سابق عهد به في صورة الوقوف على الأطلال. إذ هو يعيش تجربة مماثلة مع الشاعر الجاهلي من جهة؛ ومختلفة عنها من جهة ثانية؛ فالشاعر العربي العباسي والأندلسي يفقده مدينته إنما فقد هوية وحضارة وكيونة هي كيونته الإسلامية؛ وهو أعمق ما يمكن أن يؤثر في الإنسان.

لما عمّت الفتن في الأندلس وانتشر فساد حكامها واشتدت الصراعات فيما بينهم استطاع الإسبان استرجاع الفردوس الذي فقده، فتساقطت المدن الأندلسية كحبات العقد متناثرة . ولما كان الأندلسيون شديدي التعلق بمدنهم اشتهر لديهم هذا الفن المعروف برثاء المدن، وهو نموذج فني متطور عن غرض الرثاء الأصلي المعهود. ظهر في المشرق عند رثاء المدن في النكبات الأهلية وما تتعرض له المدن من نهب وحرق وتدمير وتخريب، وتأثر به الأندلسيون عندما انحلت مدنهم للأسباب المعروفة تاريخيا:

- الضعف والانقسام في البلاد.
- المواجهة بين الطرفين المسلم والنصراني.
- انهيار المدن وسقوطها على يد النصارى.

²³- الديوان: ص.ص. 225-256.

تناول هذا الغرض مجموعة من الشعراء وتجلّى على أيديهم في أشكال مختلفة منها الاستنفاذ والاستصراخ طلبا لنجدة المدن من الأقاليم المجاورة، نقل الرواة عن فقيه مدينة طليطلة قوله (عبد الله العسال):

وَلَقَدْ رَمَانَا الْمُشْرِكُونَ بِأَسْهُمٍ لَمْ تُحْطِ لَكِنْ شَأْنَهَا الْإِصْمَاءُ
كَمْ مَوْضِعٍ غَنَمُوهُ لَمْ يُرْحَمَ بِهِ طُفْلٌ وَلَا شَيْخٌ وَلَا عَذْرَاءُ
وَلَكُمْ رَضِيعٌ فَرَّقُوا مِنْ أُمِّهِ قَلَهُ إِلَيْهَا صَجَّةٌ وَوُعَاءُ
وَأَرْبٌ مَوْلُودٍ أَبْوَهُ مُجَبَّلٌ فَوْقَ التُّرَابِ وَفَرَشُهُ الْبَيْدَاءُ
وَمَصُونَةٌ فِي خَدْرِهَا مَحْجُوبَةٌ 2 لَوْنِيْسِي عَلِيٌّ
قَدْ أَبْرَزُوهَا مَالَهَا اسْتِخْفَا 24

فتعدد الشعراء الذين رثوا ملكهم الزائل نذكر منهم:

- المعتمد بن عباد: أمير اشبيلية.
 - ابن اللبانة هو أبو بكر محمد بن عيسى اللّخمي الداني: نسب إلى أمّه كانت تتبع اللبن، والتحق بالتصور حتى قرّبه المعتمد واستقر لديه.
 - ابن عبدون: هو أبو محمد عبد المجيد بن عبد الله بن عبدون الفهري اليابري.²⁵
- أما أشهر من تناول هذا الغرض فهما: ابن الأبار وأبو البقاء الرندي.

• ابن الأبار: هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي، وهو من الأدباء الذين عرّفوا بالأندلس من خلال كتبه؛ منها: التكملة في مجلدين المعجم في أصحاب القاضي الصدفي سنة 514هـ، الحلة السيرة (مجلدان)... وغيرها²⁶.

ومن شعره:

²⁴- شوقي ضيف: تاريخ الأدب العرب، الجزء الثامن، عصر الدول والإمارات، الأندلس، دار المعارف، مصر، د.ت، ص 378.

²⁵- ينظر شوقي ضيف: عصر الدول والإمارات، الأندلس ص.ص. 338-347.

²⁶- ينظر، ديوان ابن الأبار، تعليق الأستاذ عبد السلام الهراس، تقديم عبد الكبير العلوي المدغري، طبع بأمر من الملك محمد السادس-المملكة المغربية- وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1999، ص.ص. 3-23.

وَأَجْعَلِ طَوَاعِيَتِ الصَّلِيبِ فِدَاءَهَا
مِنْ عَاطِفَاتِكَ مَا يَبْقَى حُوبَاءَهَا²⁷

نَادَتْكَ أَنْدَلُسُ قَلْبَ نِدَاءِهَا
صَرَخَتْ بِدَعْوَتِكَ الْعَلِيَّةِ فَاحْبُهَا
وقال أيضا:

إِنَّ السَّبِيلَ إِلَى مَنَاجِيهَا دَرَسَا
فَلَمْ يَزَلْ مِنْكَ عِزُّ النَّصْرِ مُلْتَمَسَا
فَطَالَمَا ذَاقَتْ الْبَلْوَى صَبَاحَ مَسَا
لِلْحَادِثَاتِ وَأُمْسَى جِدَّهَا تَعَسَا
يَعُودُ مَاتَمُّهَا عِنْدَ الْعِدَى عُرْسَا
إِلَّا عَقَائِلَهَا الْمَحْجُوبَةَ الْأُنْسَا
مَا يَنْسِفُ النَّفْسَ أَوْ مَا يَنْزِفُ النَّفْسَا
جَدْلَانَ وَارْتَحَلَ الْإِيمَانَ مُبْتَسِمَا²⁸

أَدْرِكُ بِخَيْلِكَ خَيْلَ اللَّهِ أَنْدَلُسَا
وَهَبْ لَهَا مِنْ عَزِيزِ النَّصْرِ مَا التَّمَسَتْ
وَحَاشَ مِمَّا تُعَانِيهِ حُشَّاشَتِهَا
يَا لِلْجَزِيرَةِ أَضْحَى أَهْلِهَا جَزْرَا
فِي كُلِّ شَارِقَةٍ الْإِمَامِ بَائِقَةٍ
تَقَاسَمَ الرُّومُ لَا نَالَتْ مَقَاسِمُهُمْ
وَفِي بَلَنْسِيَّةٍ مِنْهَا وَقُرْطُبَةٍ
مَدَائِنُ حَلَّهَا الْإِشْرَاكُ مُبْتَسِمَا

• أبو البقاء الرندي (601هـ): هو صالح بن أبي الحسن بن صالح بن شريف يكنى كنية مشهورة بأبي البقاء وكنية أخرى بأبي الطيب. ومسقط رأسه زنده إلى الغرب من مالقة على قمة جبل شاهق يشقها نهر وينابيع وتحققها وديان²⁹.

من شعره في رثاء مدن الأندلس:

هُوَ لَهْ أُخِذَ وَإِنهَذَا تَهْلَانُ
وَأَيْنَ شَاطِبَةِ أَمِ أَيْنَ جِيَانُ
مِنْ عَالِمٍ قَدْ سَمَا فِيهَا لَهْ شَانُ
وَنَهْرُهَا الْعَذْبُ فَيَاضٌ وَمَلَانُ
عَسَى النِّقَاءُ إِذَا لَمْ تَبْقَ أَرْكَانُ

دَهَى الْجَزِيرَةِ أَمْرٌ لَا عِزَاءَ لَهْ
فَإِسْأَلْ بَلَنْسِيَّةَ مَا شَأْنُ مَرْسِيَّةِ
وَأَيْنَ قُرْطُبَةَ دَارِ الْعُلُومِ فَكَمْ
وَأَيْنَ حَمَصَ وَمَا تَحْوِيهِ مِنْ نَهْرٍ
قَوَاعِدُ كُنَّ أَرْكَانَ الْبِلَادِ فَمَا

²⁷ - السابق، ص 35..

²⁸ - نفسه، ص 408.

²⁹ - شوقي ضيف: عصر الدول والطوائف، الأندلس، ص.ص. 388-389.

إِنِّ الْمَسَاجِدُ قَدْ صَارَتْ كَنَائِسَ مَا فِيهِنَّ إِلَّا نَوَاقِيسٌ وَصَلْبَانٌ³⁰
وقد تعددت المدن المرثية في المغرب العربي بعد سقوط الأندلس وقد انطوى تحت رثائها أبعاد
مختلفة: دينية وتاريخية وإنسانية وشمل مدنا كثيرة.³¹



³⁰ - السابق، ص 390.

³¹ - ينظر في تفصيل الموضوع: عبد القادر شريط: فن رثاء المدن في الشعر المغربي القديم من الفتح العربي الإسلامي إلى العهد العثماني، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه، جامعة الحاج لخضر، باتنة، الجزائر، 2013-2014.

المحاضرة الحادية عشرة:
الشعر الفلسفي وشعر الحكمة

توطئة

I. الحكمة في الشعر العربي

1. الحكمة بين اللغة والاصطلاح:
2. الحكمة في الشعر الجاهلي: زهير بن أبي سلمى

II. الشعر والفلسفة

1. الشعر الفلسفي
2. نماذج الشعر الفلسفي

المحاضرة الحادية عشرة: الشعر الفلسفي وشعر الحكمة

توطئة:

تميّز الشعر العربي القديم على الرغم من كونه وجداني التوجه، غنائي المظهر بملامح فكرية عكست عقلية العربي وتطوّرها من الجاهلية إلى الإسلام؛ فبعد نظرتة المادية إلى الحياة ووقوفه حائراً أمام ظاهرة الموت ونطقه بحكمة استقاها من محيطه وأودعها خلاصة تجاربه فنياً؛ شعراً ونثراً؛ ما لبث أن قفز إلى تصور جديد مغاير، بثّه شعره وسرده، فجاء أدبه محمّلاً بآثار الثقافات الأجنبية اصطبغ بموجبها بصيغة الفلسفة.

I. الحكمة في الشعر العربي

1. الحكمة بين اللغة والاصطلاح:

جاء في حدّ الحكمة عند ابن فارس بأنها أصل دال على المنع، أوله الحكم: "وهو المنع من الظلم... والحكمة هذا قياسها، لأنها تمنع من الجهل، وتقول حكمت فلانا تحكيماً، منعته عمّا يريد، وحكّم فلان في كذا، وإذا جُعِل أمره إليه والمحكّم: المجرب المنسوب إلى الحكمة؛ قال طرفة:

ليت المحكّم والموعوظ صوتكُما تحت الثراب، إذا ما الباطل انكشفا

أراد بالمحكّم الشيخ المنسوب إلى الحكمة¹. وابتداءً فإنّ الحكمة لغة هي نوع من القيد والمنع من إتباع الهوى وترجيح العقل عليه. وأضاف ابن منظور إلى هذه المعاني الأولية فقال: "والحكمة عبارة عن معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم، ويقال لمن يحسن دقائق الصناعات ويتقنها: حكيم" وأورد: "إنّ من الشعر لحكماً" وشرحه: "أي أنّ في الشعر كلاماً نافعا يمنع من الجهل والسفه وينهى عنهما. والحكم: العلم والفقه والقضاء والعدل..."² ولم يعد يخفى علينا أنّ المعاني التي أوردنا هي أساس في بلورة دلالة الاصطلاح للحكمة وهي فيه: "قول بليغ موجز صائب يصدر عن عقل وتجربة وخبرة بالحياة ويتضمن حكماً مسلماً في أمر بخير أو نهي عن شر"³. وهو قول يستغلّه الشاعر ليزيّن به نظمه من حيث المعاني والمضامين الراقية

¹ - أحمد بن فارس: معجم مقاييس اللغة، اعتنى به: محمد عوض مرعب وفاطمة محمد أصلان، دار إحياء التراث

العربي، بيروت، 2008، ص258.

² - ابن منظور: لسان العرب، المجلد الثاني، دار الحديث، القاهرة، مصر، 2003، ص.ص. 539-543.

³ - محمد عبد المنعم خفاجي: الحياة الأدبية في العصر الجاهلي، دار الجيل بيروت، ط1، 1992م، ص147.

لأجل التربية والتوجيه، وبذلك تتخذ الحكمة في الشعر ملمحا تربويا قوامه الموعظة والإرشاد، فتكون سهلة الحفظ بسيطة البناء، يتحقق لها الانتشار والذيع في أوساط العامة والخاصة.

والذي نود أن نشير إليه أن الحديث عن الحكمة في الثقافة العربية يستدعي دائما الحديث عن المثل فقيل جمعا لهما: الحكم والأمثال العربية؛ باعتبارهما من النثر الذي جاء على السنة العرب مرسلا دون قيد. وبتداخلهما يمثلان ظاهرة أدبية وقف عندها القدماء فألفوا فيها، نذكر تمثيلا كتابي: "مجمع الأمثال" للميداني؛ و"المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر" لابن الأثير. لقد أشركت الحكمة والمثل في قيامهما على تصوير تجارب الحياة في جمل قصيرة مقتضبة ومكتفة الدلالة. وعلى هذا الأساس فإن الحكمة أكثر تداولاً في النثر منه في الشعر، غير أن الشعراء استطاعوا ترويضها ونقلها من التجربة الحياتية والقول السائر الذائع بين الناس إلى تجربة شعرية فنية.

2. الحكمة في الشعر الجاهلي: زهير بن أبي سلمى

لم يخل عصر من عصور الأدب العربي من الشعر الحكمي فهي قديمة قدم الشعر، جاءت حياة مستوعبة المواقف الواردة فيها، فهي "في العصر الجاهلي مستمدة من تجارب الشاعر وآرائه الخاصة في الحياة، وفي العصر الإسلامي كثرت... وتتوَعَّبَت بما دخلها فوق ذلك من أثر القرآن والحديث وعلومهما في التفكير والأخلاق والاجتماع؛ وفي بدء عصر المحدثين أضيف إلى تلك العناصر الحكمة الفارسية اليونانية فلقحت العقول بلفاح جديد ظهر أثره في هذا القرن في العصر الثاني (العباسي) على يد أبي تمام (231هـ) وابن الرومي (238هـ) والناشئ الأكبر (293هـ)* ثم المتنبّي والمعرّي⁴.

عرف الشعر الجاهلي كثيرا من الحكماء الذين اشتهر ذكرهم في كتب تاريخ الأدب منهم أكثرهم بن صيفي التميمي وعامر بن الظرب العدواني، قس بن ساعدة الأيادي، عمرو بن معد يكرب الزبيدي، وغيرهم؛ غير أن وقتنا مع شعر الحكمة ستقتصر مع شاعر الحكمة وصاحب المعلقة الحكمية زهير بن أبي سلمى. لم يكن زهير بن أبي سلمى منصرفا إلى اللهو والمجون أو إلى وصف النساء والخمر؛ أو التكسب بالمديح، أو الهجاء المقدم مما شاع في أخلاق الجاهليين - أو أكثرهم، وإنما انصرف إلى تصوير تجارب

*- هو أبو العباس عبد الله بن محمد: عرف أيضا بابن شوشير.

4- محمد عبد المنعم خفاجي: الآداب العربية في العصر العباسي الأول، دار الجيل، بيروت، ط1، 1992،

الحياة وفق ما أملت عليه خبرته خاصة عند كبره، وقد اشتهر بجملة من المواصفات الفنيّة زكّت النظرة الإيجابية إلى شعره:

- أنه لا يعاقل في الكلام: يداخل فيه ويعقده.
- كان يتجنّب حوشي الشعر.
- لا ينمد أحداً إلا بما فيه.
- كان يتألّه في شعره ويتعفّف به، "وفي معلّته ما يحمل على القول إنّه كان مؤمناً بالله وبالبعث والحساب بدليل قوله:

فَلَا تَكْتُمَنَّ اللَّهُ مَا فِي نَفْسِكُمْ لِيَخْفَى وَمَهُمَا يُكْتَمِ اللَّهُ يَعْلَمِ
يُؤَخَّرُ فَيُوضَعُ فِي كِتَابٍ فَيُدْخَرُ لِيَوْمِ الْحِسَابِ أَوْ يُعْجَلُ فَيُنْقَمَ

- كان ينقح شعره ويهذبّه: "رويت له أربع قصائد سميت بالحواليات"⁵.

• تميزت لغته:

- بقوة التركيب.

- كثرة الغريب.

• تميزت معانيه:

- بتطلبه حقيقة المعنى الواضح ليخرجه على حقيقته.

- وبتحكيمة عقله ورويته في تصوراته وخياله.

أمّ أهمّ صفة له فكونه "أشهر شعراء الجاهلية في إعطاء الحكمة وضرب المثل، عرف في حياته بالرصانة والتعقل، فجاءت آراؤه تناسب حياته، وبنيت منزلته الأدبية عند كثير من النقاد والأدباء، على الحكمة التي عرف بها". فقد مثل زهير إذاً اتجاه شعر الحكمة في الأدب العربي وكان رائداً فيه. والمعلّقة شاهدة على ذلك بأبياتها المصدّرة بـ"من" قال فيها ابتداءً من البيت 47 في رواية الزوزني إلى نهاية المعلّقة:

سَمِئْتُ تَكَالِيفَ الْحَيَاةِ وَمَنْ يَعِشْ ثَمَانِينَ حَوْلًا لَا أَبَا لَكَ يَسَامُ
وَأَعْلَمُ مَا فِي الْيَوْمِ وَالْأَمْسِ قَبْلَهُ وَلَكِنِّي عَنْ عِلْمٍ مَا فِي غَدٍ عَمِ
رَأَيْتُ الْمَنَايَا حَبَطَ عَشْوَاءَ مَنْ تُصِيبُ ثَمْتَهُ وَمَنْ تُخْطِئُ يُعَمَّرُ فَيُهْرَمِ

⁵- ديوان زهير بن أبي سلمى: تقديم كرم البستاني، دار بيروت للطباعة والنشر، 1979، ص.ص. 5-6.

وَمَنْ لَمْ يُصَانِعْ فِي أُمُورٍ كَثِيرَةٍ
 وَمَنْ يَجْعَلِ الْمَعْرُوفَ مِنْ دُونِ عِرْضِهِ
 وَمَنْ يَكُ ذَا فَضْلٍ فَيَبْخُلُ بِفَضْلِهِ
 وَمَنْ يُؤْفٍ لَا يُذَمُّ وَمَنْ يُهْدَى قَلْبُهُ
 وَمَنْ هَابَ أَسْبَابَ الْمَنَايَا يَتَلَنَّهُ
 وَمَنْ يَجْعَلِ الْمَعْرُوفَ فِي غَيْرِ أَهْلِهِ
 وَمَنْ يَعْصِ أَطْرَافَ الرُّجَاجِ فَإِنَّهُ
 وَمَنْ لَمْ يَذُدَّ عَنِ حَوْضِهِ بِسِلَاحِهِ
 وَمَنْ يَغْتَرِبُ يَحْسَبُ عَدُوًّا صَدِيقَهُ
 وَمَهْمَا تَكُنْ عِنْدَ امْرِئٍ مِنْ خَلِيقَةٍ
 وَكَأَيِّ تَرَى مِنْ صَامِتٍ لَكَ مُعْجِبٍ
 لِسَانُ الْفَتَى نِصْفٌ وَنِصْفٌ فُؤَادُهُ
 وَإِنَّ سَفَاهَةَ الشَّيْخِ لَا حِلْمَ بَعْدَهُ
 سَأَلْنَا فَأَعْطَيْتُمْ وَعَدْنَا فَعُدْتُمْ
 يُضْرَسُ بِأَنْيَابٍ وَيُوطَأُ بِمَنْسِمٍ
 يَفْرُهُ وَمَنْ لَا يَتَّقِ الشَّتْمَ يُشْتَمُ
 عَلَى قَوْمِهِ يُسْتَعْنَى عَنْهُ وَيُذَمُّ
 إِلَى مُطْمَئِنِّ الدِّرِّ لَا يَتَجَمَّمُ
 وَإِنْ يَرِقَ أَسْبَابَ السَّمَاءِ بِسَلْمٍ
 يَكُنْ حَمْدُهُ نَمًا عَلَيْهِ وَيُنْدَمُ
 يُطِيعُ الْعَوَالِي رُكِبَتْ كُلُّ لَهْدَمٍ
 يُهْدَمُ وَمَنْ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ يُظْلَمُ
 وَمَنْ لَمْ يُكْرَمْ نَفْسَهُ لَمْ يُكْرَمْ
 وَإِنْ خَالَهَا تَخْفَى عَلَى النَّاسِ تُعْلَمُ
 زِيَادَتُهُ أَوْ نَقْصُهُ فِي التَّكَلُّمِ
 فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا صُورَةُ اللَّحْمِ وَالذَّمِّ
 وَإِنَّ الْفَتَى بَعْدَ السَّفَاهَةِ يَحْلُمُ
 وَمَنْ أَكْثَرَ التَّسْأَلِ يَوْمًا سَيُحْرَمُ⁶

فهي إذا سبع عشرة حكمة استقاها الشاعر من واقع الحياة الجاهلية وهي خلاصة التجارب التي امتدت إلى ما يقارب القرن من الزمن، ولا شك أنّ لهذا أثره في الصياغة والتصوير الذي ظهر جلياً في الإيجاز وقدرته على تكثيف المعاني وتحقيق المقاصد منها، خاصة أنه أتى بها في آخر مقاطع المعلقة، وهي معلقة السلم والحرب، فجاءت هذه الأبيات دروساً أخلاقية وموعظة وإرشادا للناس، فبعد أن افتتح بالطلل وعرج إلى الرحلة فالمديح فالحرب "أراد أن يتم المشروع بنجاح عظيم، وينفذ تنفيذاً صحيحاً كاملاً عن رضا تام واقتناع حقيقي من جميع الأطراف، فساق لهم حكماً تساعد على ذلك، فيها: أن من يرفض الصلح فسوف يكتوى بنار الحرب، والموفون بالعهود محمودون مكرمون، والميالون للخير يجنون السلام، والحذر لا ينجي من القدر، والبخل بالفضل على أهله منبوذ ومذموم ومهين نفسه مهان، ولا عزّ للمرء إلاّ بقومه،

⁶ - الزوزني: شرح المعلقات السبع، حققه وعلّق عليه محمد محي الدين عبد الحميد، دار الطلائع، القاهرة، 2005،

والضعيف مأكول، والقوي مهاب، وتارك المجاملة للناس في أكثر الأمور يصاب بما يكره، وصانع المعروف حفاظا على الشرف مصون العرض، محفوظ الكرامة، والجزء من جنس العمل"⁷.

II. الشعر والفلسفة

1. الشعر الفلسفي:

ارتبط التأريخ لميلاد الشعر الفلسفي في الأدب العربي القديم بالعصر العباسي لما عرفته السياسة العربية في قصور الخلفاء من ترويج للترجمة باعتبارها ضرورة لتوسع أرض الإسلام. فقد انفتحت الثقافة العربية على الثقافات المختلفة وأسهم تشجيع الترجمة على قوة انتشار العلوم الدخيلة ومناستها للعلوم الشرعية وعلوم العربية؛ وكان من نتائج هذا التوسع انفتاح ثقافة الأدباء: الكتاب والشعراء على أفانين المعرفة، فتأثروا بالثقافات الوافدة إليه من فارسية وهندية غير أن تأثير الثقافة اليونانية في الشعر والشعراء كان "أعمق وأبعد غورا، بما فتحت أمامهم من أبواب الفكر الفلسفي وأبواب المنطق ومقاييسه وأدلته، وما بعثت فيهم من محاولة استكشاف دفائن المعاني، واستخراج دقائقها. وقد مضى كثير من الشعراء يزيدون محصولهم من تلك الثقافة؛ بل كان منهم من أَلَّفَ في المنطق"⁸. وهو ما يؤكد اصطبغ الشعر بصبغة فلسفية، والسؤال الذي يراود كل طالب أدب هل يمكن للشاعر أن يكون فيلسوفاً، نجد الجواب عنه في قول عبد الغفار مكاوي: "ولقد ازداد ميلي في السنوات الأخيرة إلى الاعتقاد بأنّ الفيلسوف يمكن أن يكون في صميمه فتّاناً وأديباً انتزع الفكرة المجردة من إطارها المحسوس، وقنع بالنواة الجافة دون الثمرة الحية، وأنّ الفنان والأديب في حقيقته فيلسوف كسا الفكرة بالصورة الحسيّة وأحياها بالعاطفة الجياشة. لست أريد من ذلك أن أخط بينهما فلكلّ طريقته ورؤيته ومنهجه بطبيعة الحال؛ ولن يرضى الفيلسوف أن نجعله شاعراً أو أديباً، كما لن يسعد الأديب والشاعر أن نحشره مع الفلاسفة في نظام أو نسق فلسفي محدد، ولكنّ المقصود أنّ التفاعل بينهما عميق وأكيد، وإن يكن غير مباشر وشديد التعقيد"⁹.

⁷ - علي الجندي: في تاريخ الأدب الجاهلي: دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1998م، ص304.

⁸ - شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الأول: دار المعارف، مصر، ط8، ص150.

⁹ - عبد الغفار مكاوي: شعر وفكر: دراسات في الأدب والفلسفة، الناشر مؤسسة هنداوي المشهورة برقم

10585970، بتاريخ: 2017/01/26. نشر الكتاب أول مرة عام 1995. صدرت النسخة عن المؤسسة في 2022.

يكشف القول السابق عن وثوق العلاقة بين الشعر والفلسفة من حيث كون الفكر مجالا بينهما؛ يتمثله الفيلسوف حسًا ومنطقًا ويتمثله الأديب خيالًا وعاطفةً، والبون بينهما شاسع؛ وهو واقع يستقطب إليه سؤالًا آخر في غاية من الأهمية: فمتى تصبح القصيدة فلسفية تعبر عن حقائق كبرى¹⁰ دون أن تفقد خواصها الشعرية.

و اختصارًا للمقولات في الإشكال المطروح «فإن القصيدة تكون فلسفية بأحد المعنيين: فقد تكون أداة تستخدم لتوصيل حكمة أو تعليم فلسفي مستقل عن القصيدة نفسها.... ويمكن من جهة أخرى وعلى نحو أعمق مما سبق أن تعتمد القصيدة على الأدوات اللغوية والفنية والإيقاعية لتزيدنا بصيرة بالقيم والعلاقات والدلالات الممكنة على القضايا الكبرى في حياتنا (كالحب والموت والمصير)¹¹.

يثير الإشكال المطروح قضية الشعر كيف يكون فلسفيًا أو حتى نكون أكثر دقة، أين تتجلى الفلسفة فيه: هل هي على مستوى الشكل: من حيث اعتماد ألفاظ المنطقة مثلًا واصطلاحاتهم، أم على مستوى المضمون: أي من حيث التعرض إلى أمهات القضايا الفلسفية التي تناقش الوجود والغيب والميتافيزيقيا، يقتضي الجواب عن ذلك تقصي الجانبين عند شعراء العرب الذين اشتهروا بالتوجه الفلسفي، وهي مباحث طويلة ومعقدّة، وعليه فقد ارتأينا أن نذكر أشهر من اتسم شعرهم باللامح الفلسفية.

2. نماذج الشعر الفلسفي

1- أبو تمام: 192هـ-231-232هـ.

هو من عمالقة الشعر العربي القديم بين القرنين الثاني والثالث، وهو مفجّر مدرسة التصنيه-مذهب البديع وهو مذهبه في الشعر - وهو "حبيب بن أوس الطائي (نسبة إلى قبيلة طيء العربية). ولد في منبج أو قرية جاسم في بلاد الشام"¹²، اشتهر بغرض الرثاء خاصة على الرغم من كثرة ممدوحيه، تفجّر على يديه اتجاه الصنعة والتصنيع في زمانه، وقد أقام عليه شعره إلى درجة عابه عليها النقاد: نقل أنيس المقدسي آراءً فيه فنذكر منها:

¹⁰- السابق، ص 66.

¹¹- نفسه، ص 67.

¹²- أنيس المقدسي: أمراء الشعر العربي في العصر العباسي، دار العلم للملايين، بيروت، ط11، 1977، ص.ص.

- الجرجاني: "إن أبا تمام أسلم نفسه للتكلف، يرى أنه إن مرّ على اسم موضع يحتاج إلى ذكره أو يتصل بقصة يذكرها في شعره من دون أن يشتقّ منه تجنيساً أو يعمل فيه بديعاً فقد باء بإثم وأخلّ بفرض حتم"/نقله عن أسرار البلاغة.

- الأمدى: "كانهم يريدون إسرافه في طلب الطباق والتجنيس والاستعارات وإسرافه في التماس من هذه الأبواب وتوشيح شعره بها، حتى صار كثير ممّا أتى من المعاني لا يعرف ولا يعلم غرضه فيها إلاّ مع الكدّ والفكر وطول التأمل، ومنه ما لا يعرف إلاّ بالظنّ..."، نقله عن الموازنة.

لقد صعب أبو تمام شعره على المعاصرين حتى اشتكوه فقالوا: لم تقول ما لا يفهم؛ فقال: لم لا تفهمون ما يقال، وما نرى أسباب ذلك إلاّ تعاطيه الفكر الفلسفي والحكمة وتأثره بالمنطق، وليست الفلسفة والحكمة غرضين قائمين بذاتيهما في شعره، وإنما تتسريان إلى كلّ أغراضه، قال يمدح سليمان بن وهب:

أَيُّ مَرَعَى عَيْنٍ وَوَادِي نَسِيبٍ لَحَبْتَهُ الْأَيَّامُ فِي مَلْحُوبٍ
مَلَكْتُهُ الصَّبَا الْوَلُوعُ فَأَلَقْتُ هُ قَعُودَ الْبِلَى وَسُورَ الْخُطُوبِ
نَدَّ عَنكَ الْعَزَاءُ فِيهِ وَقَادَ الـ دَمَعُ مِنْ مُقْلَتَيْكَ قُودَ الْجَنِيبِ

إلى أن يصل إلى قوله -في هذا التقديم الطللي- في البيت الثاني عشر:

رُبَّ خَفْضٍ تَحْتَ السُّرَى وَغَنَاءٍ مِنْ عَنَاءٍ وَنُضْرَةٍ مِنْ شُحُوبِ

قال الشارح: "أي ربّ دعة تحت التعب، وغناء أي نفع، والشحوب ضد النضرة"¹³.

وقال مادحا في غاية من الحكمة:

فَلَا تُتَكْرِي عَطَلَ الْكَرِيمِ مِنَ الْغِنَى فَالَسَيْلُ حَرْبٌ لِلْمَكَانِ الْعَالِي

2- أبو الطيب المتنبّي: (303هـ-354هـ) - (916م-966م).

تضاربت الأقوال حول الإطلاع المتنبّي على الفلسفة اليونانية أم لا¹⁴، غير أن الذي لا شك فيه أنّه

أودع شعره كثيرا من الرؤى الفلسفية، نذكر منها:

• قال المتنبّي:

¹³- ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي، تح: محمد عبده عزّام، الجزء الأول، دار المعارف، مصر، ط5،

¹⁴- ينظر فاروق حسان: ثقافة المتنبّي: العلم والإيمان للنشر والتوزيع، مصر، ط1، 2008، ص.ص. 89-106.

كُلِّ حِلْمٍ أَتَى بِغَيْرِ إِقْتِدَارٍ حُجَّةٌ لَاجِئٌ إِلَيْهَا اللَّئِيمُ

• وقال أرسطو: الفرق بين الحلم والعجز أن الحكم لا يكون إلا عن قدرة والعجز لا يكون إلا عن ضعف، فليس للعاجز يتسمى بالحليم.

• وقال أرسطو: على قدر بصيرة العقل يرى الإنسان الأشياء، فالسالم العقل يرى الأشياء على قدر حقائقها، والنفس الكئيبة ترى الأشياء بطبعها.

• وقال المتنبي في هذا المعنى:

وَمَنْ يَكُ ذَا فَمٍ مُرِّ مَرِيضٍ يَجِدُ مُرًّا بِهِ الْمَاءَ الزُّلَالَا

• وقال أرسطو: على قدر الهم تكون الهموم.

• وقال المتنبي:

أَفْاضِلُ النَّاسِ أَغْرَاضُ لِذَا الزَّمَنِ يَخْلُو مِنَ الْهَمِّ أَخْلَاهُمْ مِنَ الْفِطَنِ

• وقال أرسطو: النفس الذليلة لا تجد ألم الهوان، والنفس العزيزة يؤثر فيها يسير الكلام.

• وقال المتنبي:

مَنْ يَهْنُ يَسْهُلِ الْهَوَانُ عَلَيْهِ مَا لَجُرْحٍ بِمَيِّتٍ إِبْلَامُ

• وقال أرسطو: الكلام والملال يتعاقبان الأجسام لضعف آلة الجسم لا لضعف آلة الحس.

• وقال المتنبي:

وَإِذَا الشَّيْخُ قَالَ أَفٍّ فَمَا مَلَّ لَنْ حَيَاءً وَأَيْمًا الضَّعْفَ مَلًّا¹⁵

3- أبو العلاء المعري: (363هـ-449هـ) - (973م-1057م) حكيم المعرفة:

استغلق شعره على كثيرين لما ضمّنه من أبعاد فلسفية، تشربها من تنوع ثقافته الفكرية؛ استطاع أن يتفرّد من خلالها بأدبه شعرا ونثرا؛ وشكلا ومضمونا. ابتداءً من عنونته مؤلفاته: سقط الزند - لزوم ما لا يلزم - رسالة الغفران - وثانياً في خطبة لكتبه وثالثاً في المضامين التي استحدثها في شعره ورسائله والقوالب الفنيّة التي استوعبها. وقد ذكرت الدراسات أن مناهله النارية التي وجهته وجهة فلسفية هي:

- رسائل إخوان الصفا.

- رمزية الباطنية الحرفية.

¹⁵ - نقلا عن المرجع السابق: ص.ص. 99-100.

أسهمت هذه العوامل في إثراء نزعاته الفكرية التي حدّدت اتجاهه الفكري وقد كانت دوافع لاتهامه بالزندقة وفساد عقيدته، وذلك بناءً على تواتر في شعره من أفكار ومقولات تكشف الزيف لديه، ومن الذين اتهموه في دينه: ياقوت الحموي، وابن الجوزي والصلاح الصفدي، وقال عنه الذهبي: "مات متحيراً لم يؤمن بدين من الأديان". ومن الذين رأوا أنّه كان صحيح العقيدة: أبو الحسن الهكاري وابن العديم: صاحب الإنصاف والتحري في دفع التجري على المعري¹⁷.

والذي نشير إليه أنّ رحلة أبي العلاء الفكرية مرّت بطوري: طور سقط الزند-ديوانه الأول، وهو الطور الأول من فكره، كان فيها سليم الفطرة على ما ذكرته الدراسات فيه. أمّا الطور الثاني فقد مثله ديوانه لزوم ما لا يلزم وفيه تجلّت فلسفته ومواقفه من الأديان والوجود والناس والحياة. ومن أشهر قصائده الدالة على موقفه داليتها: غير مجد في ملتي واعتقادي، قال فيها:

غَيْرُ مُجِدِّ فِي مِلَّتِي وَعَيْقَادِي نَوْحُ بَاكِ وَلَا تَرْنَمُ شَادِ
وَسَبِيَّةٌ صَوْتُ النَّعِيِّ إِذَا قِيدَ مَسْ بِصَوْتِ الْبَشِيرِ فِي كُلِّ نَادِ
أَبْكَتْ تِلْكَمُ الْحَمَامَةُ أُمَّمُ غَدَّ نَتْ عَلَى فَرَعِ غُصْنِهَا الْمَيَّادِ
صَاحَ هَذِهِ قُبُورُنَا تَمَلُّ الرُّدَّ بَبَ فَأَيْنَ الْقُبُورُ مِنْ عَهْدِ عَادٍ؟
خَفِيَ الْوَطْءُ مَا أَظُنُّ أَيْدِيمُ الْإِلَّ مِنْ هَذِهِ الْأَجْسَادِ
وَقَبِيحٌ بِنَا وَإِنْ قَدَّمَ الْعَهْدُ دُ هَوَانُ الْأَبَاءِ وَالْأَجْدَادِ
سِرٌّ إِنْ اسْطَغَتْ فِي الْهَوَاءِ رُونِدًا لَا اخْتِيَالًا عَلَى رُقَاتِ الْعِبَادِ
رُبَّ لَحْدٍ قَدْ صَارَ لَحْدًا مِرَارًا ضَاحِكٍ مِنْ تَرَاحِمِ الْأَضْدَادِ
تَعَبَ كُلُّهَا الْحَيَاةُ فَمَا أَعَدَّ جَبُّ إِلَّا مِنْ رَاغِبٍ فِي ازْدِيَادِ
إِنَّ حُرْنَا فِي سَاعَةِ الْمَوْتِ أَضْعَا فُ سُرُورٍ فِي سَاعَةِ الْمِيلَادِ
خُلِقَ النَّاسُ لِلْبَقَاءِ فَصَلَّتْ أُمَّةٌ يَحْسَبُونَهُمْ لِلنَّقَادِ
إِنَّمَا يُنْقَلُونَ مِنْ دَارِ أَعْمَا لِ إِلَى دَارِ شِقْوَةٍ أَوْ رَشَادِ
ضَجَعَةُ الْمَوْتِ رَقْدَةٌ يَسْتَرِيحُ إِلِ جِسْمُ فِيهَا وَالْعَيْشُ مِثْلُ السُّهْلِ د¹⁸

¹⁶- عبد الله العاللي: المعري، ذلك المجهول: رحلة في فكره وعالمه النفسي، دار الجديد، بيروت، ط3. 1995م،

¹⁷- أنيس المقدسي: أمراء الشعر في العصر العباسي، ص398.

¹⁸- أبو العلاء المعري: ديوان سقط الزند، دار بيروت للطباعة والنشر، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، 1957،

المحاضرة الثانية عشرة:

المؤشحات والأزجال

توطئة

1. حركة الأدب في العهد الأول

2. تسمية المؤشحات

3. سياق نشأة المؤشحات

4. هيكل المؤشح

5. أوزان المؤشحات

6. أغراض المؤشحات

7. الأزجال

المحاضرة الثانية عشرة: الموشحات والأزجال

توطئة:

تنتقل مع الموشح والزجل الأندلسيين إلى بيئة تختلف عن شبه جزيرة العرب مهد الآداب العربية التي ظلّ الشعراء في المشرق العربي متأثرين بها في أغراضهم وأساليبهم؛ محدثين عليها تطويرات ناشئة عن مقتضيات حياتهم الحديثة-بعد الفتوحات الإسلامية خاصة- ولما دخل العرب الفاتحون الأندلس* واستقروا بها؛ استوطنوا معهم أدبهم حتى يكون لسانا ناطقا عن أحوال الأندلس بعد الفتح، وقد مرّت بمراحل هي:

"1- عهد الفتح والولاية: 92هـ-95هـ/138-95هـ

ويشمل هذا العهد فتح الأندلس بقيادة طارق بن زياد، استغرقت عمليات الفتح أربع سنوات. ثمّ أعقبه عهد الولاية التابعين لملوك بني أمية في دمشق، وقد كان أول والٍ عبد العزيز بن موسى بن نصير وآخر الولاية يوسف الفهري...

2- العهد الأموي: (الإمارة والخلافة والحجابه** والفتنة) (138-316/366-399)

ويستهل هذا العهد بدخول عبد الرحمان بن معاوية الأندلس وقضائه على آخر والٍ كان يحكمها، حيث تنقطع الأندلس عن الخلافة ببغداد ويتولى حكم الأندلس سبعة أمراء آخرهم عبد الرحمن الثالث الذي يعلن الخلافة لأول مرّة سنة 316هـ¹. وينقسم إلى: تأسيس الإمارة: 138هـ-206هـ، صراع الإمارة: 206هـ-300هـ.

3- عهد ملوك الطوائف والمرابطين: (400هـ-484هـ)، (484هـ-540هـ)

*- ينظر في التسمية: أحمد هيكل: الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، دار المعارف، مصر، 1985، ص.ص. 13-55.

**- الحجابه: عهد هشام الثاني (المؤيد). وقد كان صغيرا، فتولى المنصور -الحاجب- الحكم الحقيقي للبلاد.

¹- منجد مصطفى بهجت: الأدب الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة+92هـ-897م، مديرية دار الكتب للطباعة والنشر، الموصل، 1988، ص.ص. 18-19.

"يؤرخ لعهد ملوك الطوائف من سقوط الدولة الأموية، ونشوء دويلات مستقلة تولتها مجموعة من الأسر الحاكمة، غير أن الأمر لم يدم على هذه الحالة من الانشقاق حيث استرجعت الأندلس الوحدة في عهد المرابطين بقضائهم على الملوك سنة 484هـ، حكم المرابطون-يوسف بن تاشفين- حوالي نصف قرن. ثم سقطت دولتهم على يد الموحدين بزعامه محمد بن تومرت.
4- عهد الموحدين: 540هـ-620هـ.

"ويبدأ هذا العهد بمجيء عبد المؤمن بن علي (524هـ-543هـ) خلفا لابن تومرت فمنذ عام 541هـ تخضع الأندلس لحكم الموحدين في المغرب وتصبح ولاية تابعة لها واستمر عهدهم حوالي قرن من الزمان حتى عهد بني الأحمر"².
5- عهد بني الأحمر في مملكة غرناطة: 635هـ-897ع.

"وتقوم هذه الدولة في رقعة صغيرة من بلاد الأندلس التي سقطت بأيدي الإسبان ويبقى المسلمون تحت سيادة بني الأحمر في غرناطة ويستمر حكمهم حوالي قرنين ونصف. ويمثل عهدهم نهاية الحكم الإسلامي في الأندلس، حتى تسقط دولتهم هي الأخرى لتؤذن بمغيب شمس الأندلس الساطعة بعد حضارة إسلامية زاخرة استمرت حوالي ثمانية قرون"³.

1. حركة الأدب في العهد الأول:

عرف الأدب في الأندلس حركة مواكبة للظروف المؤثرة فيه من نشأته في عهوده الأولى عند الفتح إلى الاضمحلال والسقوط، فكانت فترة الولاة -من الناحية الأدبية- فقيرة لم تحظ بوفرة الإنتاج، وما قلّ فيها من الشعر كان بسيطا ليس ذا بال سوى قابليته لأن يتخذ أشكالا أرقى مستقبلا؛ خطّ لها طريقها الجيل الأندلسي الجديد -في عهد تأسيس الإمارة- وقد تشكّل فيها الشعر تشكيلا محافظا -مقلدا لأدب المشرق- غير أنّه تميّز بجملة من المميزات الأندلسية تجلت على مستويات: التجديد في الموضوع والتجويد الفني والتركيز العاطفي⁴. واتجه الأدب وجهته الجديدة في أزمة الصراع لأجل

²- السابق، 19.

³- نفسه، ص.ص. 19-20.

⁴- نفسه، ص.ص. 86-91.

الحفاظ على الإمارة الجديدة -في عهد عبد الرحمن الأوسط-⁵، وعلى الرغم من شدة الصراع فقد ازدهرت الحياة الأندلسية وانفتحت الثقافة الأدبية على المشرق، فكان لحركة التجديد التي تزعمها محدثو العباسيين مثل أبي نواس ومسلم بن الوليد وأبي العتاهية آثار في الأندلس عن طريق الشاعر عباس بن ناصح؛ فقد التقى أبا النواس وأعجب بأشعاره فنقلها إلى موطنه فشاعت وتداولها الناس فكانت عاملا في نشأة الاتجاه الجديد؛ نضيف إليها دواعي التجديد المنبثقة عن المستجدات الحياتية ومتطلباتها، حيث شاع الغنى والترف متبوعين بالفحش، يقابلها الزهد⁶.

وعلى الرغم من موجة الحداثة هذه فقد ظلّ الاتجاه التقليدي سائدا بعد أن تمكن من ذائقة الأندلسيين، فساد في هذه الفترة فضلا عن الاتجاهين السابقين، المحافظ والمجدد اتجاه جديد وصف بالأدب الشعبي وهو الموشحات.

2. تسمية الموشحات:

يرى الدكتور إحسان عباس "أنّ العلة في التسمية هو التعليم (وضع علامة) فالموشح يعني "المعلم" بلون أو خطّ يخالف سائر لونه أو الثوب حين تكون فيه توشية أو زخرفة"⁷. ذلك أن الوشاح خيطان من لؤلؤ وجوهر منظومان يخالف بينهما معطوف أحدهما على الآخر⁸. وفي رأي الناقد أن الأندلسيين تصوروا الموشح: قصيدة الشعر كهذا النوع من الثياب: قال: "فقد تصور الأندلسيون هذا النوع من النظم كركعة الثوب وفيه خطوط (أو سمّها أغصانا) تنتظمه أفقيا أو عموديا، فالأصل فيه وحدات كبيرة هي الأشرطة، وقد جزئت أجزاء صغيرة فأصبحت أشرطة أصغر من أشرطة القصيدة، فهي قد تولدت وتتابعت تتابع النقش"⁹. وعلى هذا الأساس فإنّ "الموشح" كقول شعري قائم على التزيين

⁵ - السابق، ص 116.

⁶ - نفسه.

⁷ - إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي: عصر الطوائف والمرابطين، دار الثقافة، بيروت، ص 7، 1985، ص 220.

⁸ - أحمد مختار عمر: معجم اللغة العربية المعاصرة، المجلد 3، عالم الكتب، القاهرة، ط 41، 2008، ص 2444.

⁹ - إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي، عصر الطوائف والمرابطين، ص 220.

والتنوع في الألوان وقد استغرقت هذه المعاني لتحديد المعنى الاصطلاحي للقصيدة الموشح أو شعر الموشحات إذ هو "نوع من التنظيم يتألف من فقرات تسمى أغصانا هي عبارة عن أشطار أبيات شعرية بعدد معين وقافية واحدة، ويعقب كل فقرة قفل مكوّن من أشطار في نفس البحر ولكنه بقافية مختلفة تلزم في كلّ الأفعال، أمّا الأغصان فقوافيها قد تختلف ولكنها لا تكون إلا من نفس البحر"¹⁰

3. سياق نشأة الموشحات:

• ردة فعل:

ذكر إحسان عباس في معرض حديثه عن الموشحات أنّ الفنون إنّما تظهر مقاومة لنقائضها، وأنّ نشأة الموشحات الأندلسية مرتبطة باسترجاع بعض "الغنائية" التي افتقدتها القصيدة العربية عبر العصور والمستحدثات، فقد داخل الشعر العربي كثير من الفلسفة والفكر فكان من الضروري أن يبعث من جديد، "وكان لابد من توازن يحفظ التوازي، ولذلك اتسع نطاق الموشح لتتسع الناحية الغنائية، فالموشح بهذا المعنى ثورة على طبيعة القصيدة فهو حركة تجديدية، وهو أيضا رجعة إلى الغنائية من وجهة أخرى، أي هو زخرف حضاري قد ينطوي على كلّ مقومات السطحية الجذابة والترف المسترخي"¹¹.

يكشف الرأي الذي صرح به القول عن خلفيات ثقافية في نشأة الموشح الأندلسي فهو يختلف في بنائه ولغته عن القصيدة العربية المشرقية والمغربية -المعترف بها- وليدة الصحراء أو وليدة القصور أو البادية، إنه ابن بيئة شعبية "نشأ في أوساط الشعب لإرضاء حاجة الشعب يستخدم في بعض فقراته اللغة العامية، ويعتمد في تعابيره أحيانا على أجزاء من أغنيات شعبية"¹².

وقد تداخلت ثلاث عوامل أساسية في نشأة هذا النوع من الشعر:

1- تأثير الأغنية العامة العربية والأجنبية فيه (الزجل).

¹⁰ - حكمت علي الأوسي: فصول في الأدب الأندلسي في القرنين الثاني والثالث للهجرة، مطبعة سلمان

الأعظمي، بغداد، د.ت، ص122.

¹¹ - إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي، عصر الطوائف والمرابطين، ص217.

¹² - أحمد هيكل: الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، ص138.

2- قدوم المغني زرياب تلميذ إسحاق الموصلني من العراق واستحدثه الأوتار في العود وكذلك تأنقه في الملبس وتصنيف الشعر والمأكّل وتحضير الموائد وغيرها من الأنظمة التهذيبية في السلوك الاجتماعي اليومي.

3- التفنن العروضي: نقل إحسان عباس عن ابن بسّام صاحب الذخيرة تفسير هذا التفنن قال: "وكان [أي القبري] (منشئ الموشحات) يضعها على أشطار الأشعار غير أن أكثرها على الأعاريض المهملة غير المستعملة" وعلّق على هذا القول "لماذا جربوا الأعاريض المهملة التي لم يألّفها الذوق العام في المشرق ثمّ في المغرب؟ هنا تبرز خاصية الامتحان للقدرة والميل إلى الابتداع معاً". وذلك لأنّ:

- هذه الأعاريض معروفة مقررة ولكنها غير مفعلة فعمل التلحين على تخفيفها على الأسماع.
- اعتماد بعض المنشئين لها إظهار للقدرة على التفنن والتنوع.¹³
والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن بعد هذا: من هو مخترع الموشحات؟ لقد تضاربت الأقوال في أول من قال قصيدا بمواصفات الموشح، ومن الأسماء التي ترددت في نسبة الإبداع إليها ذكر مؤرخو الأدب:

1- محمد بن حمود القبري الضريير، ويبدو أنّه مجهول¹⁴. وهو قول قال به ابن بسام في "الذخيرة".

2- المقدم بن معافى القبري "وكان شاعرا معروفا أيام عبد الرحمن الداخل"¹⁵.
وقد رجّح إحسان عباس أم محمد بن محمود القبري هو مخترع الموشحات، افتراضا أن حالة العمى عامل للتكسب بهذا النوع من الشعر عن طريق التجوال.

وقد ارتبطت هذه النشأة بالمراحل التي مرّ بها الموشح، وهي:

1- البداية: حيث كان أشطارا كالقصييدة، غير أنّه من مهمل الأعاريض كما ذكرنا سابقا، ويختلف عن الشعر في بنيته (وهو عند القبري وابن عبد ربّه) وهو خال من التضمين والأغصان.

¹³ - إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي: عصر الطوائف والمرابطين، ص.ص. 244-225.

¹⁴ - حكمت علي الأوسي: فصول في الأدب الأندلسي، ص 128.

¹⁵ - إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي: عصر الطوائف والمرابطين، ص 228.

2- مرحلة الإكثار من التضمين والأغصان "أي تجزئة الأشرطة إلى أجزاء صغيرة وهو ما فعله الرماد، وهو ما فعله الرمادي...".

3- الإكثار من التضمين في الأغصان أي تجزئة أشرطةها وهذا هو ما فعله ابن ماء السماء، وهو الذي بعث صنعة الموشح، فأصبح وكأنه رائد هذا الفن نازعه في نسبة هذه الريادة عبادة بن القزاز وهو شاعر المعتصم بن صمادح.¹⁶

4. هيكل الموشح:

ينقسم الموشح إلى أجزاء تتداخل في بنيته الخارجية:

- 1- المطلع (المذهب): وليس أساسياً في الموشح ويسمى القفل: إن وجد في المطلع يكون الموشح تاماً وإن حذف كان أقرع.
- 2- الدور: "هو مجموع الأشرطة التي تعقب المطلع، في الموشح التام، وتكون من نفس بحر المطلع ولكن بقافية مختلفة عن قافيته، تلتزم في أشطر الدور الواحد"¹⁷.
- 3- السمط: "كل شطر من أشطر الدور يسمى سمطاً، وقد يكون السمط مفرداً، أي مكوناً من فقرة واحدة، وقد يكون مركباً من فقرتين أو أكثر"¹⁸.
- 4- القفل: "هو مجموع الأشرطة التي تلي الدور وفي نفس بحره ولكن بقافية مختلفة وليس لأقفال الموشحة عدد محدد ولكن الأغلب فيها أن تكون من خمسة أقفال"¹⁹.
- 5- البيت: "يتألف البيت في الموشحة من الدور مع القفل الذي يليه".
- 6- الغصن: "هو الشطر الواحد من المطلع أو القفل أو الخرجة"²⁰.
- 7- الخرجة: وهو آخر جزء في الموشح بعد الخمسة أو الستة أقفال. ويمكن أن تكون-وفق ما ذكره حسان عباس عن ابن سناء الملك:

¹⁶ - السابق، ص.ص. 229-230.

¹⁷ - حكمت علي الأوسي: فصول في الأدب الأندلسي، 123.

¹⁸ - نفسه.

¹⁹ - نفسه.

²⁰ - نفسه.

- أن تكون عامية.

- أن تكون معربة إذا كان الموشح مديحا.

- يجب أن يكون لفظها سفاسفا.²¹

وقد مثل لهذه المقاطع حكمت علي الأوسي بنموذج من موشحات ابن الزهر، جاء في الطراز

في عمل الموشحات لابن سناء الملك:²²

		غصن		غصن	
بيت 01	دور	قَدْ دَعَوْنَاكَ وَإِنْ لَمْ تَسْمَعْ	← سمط	أَيُّهَا السَّاقِي إِلَيْكَ الْمُشْتَكِي	← المطلع
		فِي غُرَّتِهِ	← سمط	وَتَدِيمِ هِمَّتِ	
		مِنْ رَاحَتِهِ	← سمط	وَشَرِبْتَ الرَّاحَ	
		مِنْ سَكْرَتِهِ	← سمط	كُلَّمَا اسْتَيْقَظَ	
		غصن		غصن	
بيت 02	دور	وَسَقَانِي أَرْبَعًا فِي أَرْبَعِ	[قفل	جَذَبَ الزُّقَّ إِلَيْهِ وَاتَّكَى	[
		مِنْ حَيْثُ اسْتَوَى		غُصْنٍ بَانَ مَالٌ	→ سمط
		مِنْ قَرَطِ النَّوَى		بَاتَ مِنْ يَهْوَاهُ	→ سمط
		مَوْهُونِ الْقَوَى	غُصْنِ	خَافِقُ الْأَحْشَاءِ	→ سمط
		غصن		غصن	
بيت 03	دور	مَا لَهُ يَبْكِي لِمَا لَمْ يَقَعْ	[قفل	كُلَّمَا فَكَّرَ فِي الْبَيْنِ بَكَى	[
		وَلَا لِي جَلْدٌ		لَيْسَ لِي صَبْرٌ	→ سمط
		وَأَجْتَهَدُوا		يَا لِقَوْمِي عَدَلُوا	→ سمط
		مِمَّا أَجْدُ		أَنْكَرُوا شَكْوَايَ	→ سمط
		غصن		غصن	
بيت 04	دور	كَمَدَ الْيَأْسَ وَذَلَّ الطَّمَعِ		مِثْلُ حَالِي حَقُّهُ أَنْ يَشْتَكِي	→ سمط
		بِالنَّظَرِ		مَا لِعَيْنِي عَشِيَتْ	→ سمط
		ضَوْءَ الْقَمَرِ		أَنْكَرْتَ بَعْدَكَ	→ سمط
		فَاسْمَعْ خَبْرِي		وَإِذَا مَا شِئْتَ	→ سمط
		غصن		غصن	
بيت 05	دور	وَبَكَى بَعْضِي عَلَى بَعْضِي مَعِي		شَقِيَّتْ عَيْنَايَ مِنْ طَوْلِ الْبُكََا	
		وَدَمَعٌ يَكْفُ		كَبِدٌ حَرِيٌّ	→ سمط
		وَلَا يَعْتَرِفُ		يَعْرِفُ الذَّنْبَ	→ سمط
		عَمَّا أَصِفُ		أَيُّهَا الْمَعْرُضُ	→ سمط
		لَا تَقُلْ فِي الْحُبِّ إِنِّي مُدْعِي ← خُرْجَةٌ		قَدْ نَمَّا حُبُّكَ عِنْدِي وَزَكَا	

²¹ - إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي: عصر الطوائف والمرابطين ص.ص. 236-237.

²² - ابن سناء الملك: الطراز في عمل الموشحات، ص 27-28.

5. أوزان الموشحات:

أول من تحدّث عن أوزان الموشحات ابن سناء الملك في كتابه دار الطراز في عمل الموشحات. وقد جعل الموشحات صنفين: صنفاً توافقت أوزانه مع الأوزان العربية التي ابتدعها الخليل، وصنفاً آخر خرج عن هذه الأوزان: قال: "والموشحات تنقسم قسمين: الأوّل ما جاء على أوزان أشعار العرب، والثاني ما لا وزن له فيها ولا إمام له بها"²³. ثم إنّه قسّم النوع الأوّل: الذي على أوزان العرب قسمين:

1- "ما لا يتخلل أفعاله وأبياته كلمة تخرج به تلك الفقرة التي جاءت فيها تلك الكلمة عن الوزن الشعري، وما كان من الموشحات على هذا النسج فهو المرذول المخذول وهو بالمخمسات أشبه منه بالموشحات ولا يفعله إلا الضعفاء من الشعراء"²⁴.

2- وهو الذي لم يدخل في الأوزان المعروفة: "وهذا القسم منها هو الكثير والجَمّ الغفير والعدد الذي لا ينحصر، والشارد الذي لا ينضب..."²⁵.

وفضلاً عن هذين القسمين فقد تنوّعت التقسيمات، وهي:

- 1- قسمان آخران:
- قسم أفعاله وزن أبياته حتى كأنّ أجزاء الأبيات مع أجزاء الأفعال.
- قسم أفعاله مخالفة لأوزان أبياته.
- 2- قسمان آخران:
- "قسم لأبياته وزن يدركه السمع ويعرفه الذوق كما تعرف الأشعار ولا يحتاج فيها إلى وزنها يميزان العروض (وهو أكثرها)"
- قسم مضطرب الوزن -مهلهل النسج، مفكك النظم، لا يحسّ الذوق صحته من سقمه ولا دخوله من خروجه"

²³ - القاضي السعيد أبي القاسم هبة الله بن جعفر بن سناء الملك: دار الطراز في عمل الموشحات، تح: جودت الركابي، دمشق، 1949، ص33، نسخة عن منتدى سور الأزيكية: www.Books4All.net.

²⁴ - نفسه، ص33.

²⁵ - نفسه، ص35.

3- قسمان آخران:

- " قسم يستقل التلحين به ولا يفتر إلى ما يعينه عليه- وهو أكثرها".

- "قسم لا يحتمله التلحين ولا يمشي..."²⁶.

6. أغراض الموشحات:

تطرقت الموشحات إلى الأغراض الشعرية العربية المعروفة قال ابن سناء الملك: "الموشحات يعمل فيها ما يعمل في أنواع الشعر من الغزل والمدح والثناء والهجو والمجون والزهد، وما كان منها في الزهد يقال له المكفّر، والرسم في المكفّر خاصة أن لا يعمل إلا على وزن مَوْشَح معروف وقوافيه وأقفاله، ويختم بخرجة ذلك المَوْشَح ليدل على أنّه مكفّر ومستقبل ربّه عن شاعره ومستغفره"²⁷.

7. الأزجال:

1.7. الزجل لغة واصطلاحاً:

يأتي الزجل لغة في عدّة معان منها إرسال الحمام الهادي²⁸ والزجل بالتحريك: اللّعب والجلبة ورفع الصوت وخصّ به التطريب، فهو الصوت الرفيع العالي، والسحاب ذو الزجل: أي ذو الرعد. وغيث زجل: لرعده صوت، ونبت زجل، صوتت فيه الريح"²⁹. وهو في الاصطلاح نوع من الشعر يختلف عن الشعر العمودي المعروف "من حيث الإعراب والقافية، كما يختلف عن الموشح من حيث الإعراب ولا يختلف عنه من جانب القافية إلا نادراً"³⁰.

2.7. نشأته:

ردّ المؤرخون الزجل باعتباره فنّاً شعبياً إلى ارتباطه بالحاجة الشعبية إلى الغناء والموسيقى، وهو بهذا شبيهه بالمَوْشَح، وربما كان هذا سبباً لتلازمهما في الذكر: الموشحات والأزجال؛ والشائع أنّه

²⁶- السابق، ص.ص. 35-38.

²⁷- نفسه، ص.38.

²⁸- أحمد بن فارس: معجم المقاييس، ص.448.

²⁹- ابن منظور: لسان العرب، 344/4-345.

³⁰- محمد عباسة: الموشحات والأزجال الأندلسية وأثرها في شعر التروبادور، دار أم الكتاب للنشر والتوزيع،

مستغانم- الجزائر، ط1، 2012، ص.106.

ظهر بعد انقسام اللغة في الأندلس إلى دارجة وأخرى مكتوبة، في القرن الثالث³¹. وقد مرّ بمراحل نوجزها في النقاط الآتية.

أ- **التأثر بالأغنية الشعبية:** يرى إحسان عباس أنه تقليد لأغاني السكان الأصليين كان ذلك عند اختلاطهم (الأصليون والوافدون) في الحياة اليومية في حفلاتهم ومواسمهم، حيث كانت تتردد هذه الأغاني، فقتربوا بينها وبين الشعر بالفصحى (العربية) دون تجاوز الألفاظ الأعجمية. وعليه لم يكن له منشئ معين، إنما هو وليد "الجماعة الشعبية"³²

ب- **فترة المتقدمين على ابن قزمان؛ ومنهم ابن نمارة، وفي هذه المرحلة كانت قصائد الزجل "مقصّدة وأبياتا مجردة في أبحر عروض العرب بقافية واحدة كالقريض، لا يغيّره بغير اللحن واللفظ العامي وسموها القصائد الزجلية"³³.**

ج- **مرحلة ابن قزمان:** وقد لقب "الإمام" وهو "محمد بن عيسى بن عبد الملك بن عيسى بن قزمان وكنيته أبو بكر"³⁴ -480هـ-554هـ (ت 1160م)، وهو من بيت قرطبي مشهور بالعلم والغنى والرئاسة، فقد كان عمّه الأكبر كاتباً ووزيراً للمتوكل صاحب طائفة بطليوس وكان الدارسون يخطون بينه وبين عمّه هذا. اتّجه ابن قزمان إلى الزجل لما أحسّ أنه لا يمتلك القدرة على مضاهاة كبار الشعراء ممّا اضطره إلى الاقتصار على الزجل والتفرد به بحيث لا يناظره أحد فيه³⁵. ويلقب بالإمام في هذا المجال. اتصف ديوانه إصابة الأغراض في ذكر الأعراض بمجموعة من الميزات:

³¹- إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي: عصر الطوائف والمرابطين، ص257.

³²- نفسه، ص222.

³³- صفى الدين الحلي: العاقل الحالي والمرخص الغالي، تح: حسين نصار، مطبعة دار الكتب والوثائق

القومية، القاهرة، ط2، 2003، ص14.

³⁴- إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي، عصر الطوائف والمرابطين، ص264.

³⁵- ابن قزمان: إصابة الأغراض في ذكر الأعراض (ديوان ابن قزمان القرطبي) تح وتصدير:

فيديريكو كورينتي، تقديم: محمود علي مكي، المجلس الأعلى للثقافة، المكتبة العربية، القاهرة، 1995، ص26.

- أن فيه "وصفا مفصلا صريحا لأحوال الأندلس وأخلاق أهلها لا تعتمه النعرة القومية أو العقائدية ولا الخوف ولا الطمع ولا الحياء والتمويه"³⁶.

- لسأته نظم في فترات متنوّعة من حياتها فجاءت الأزجال متفاوتة فيما بينها من حيث الأصالة والجمال الفني والإحكام اللغوي.

- تميّز الديوان كذلك باصطناع لغة زجلية "معتمدة أساسا على عامية قرطبة مع تحليتها ببعض محسنات اللغة المشتركة لاسيما منها المقتبسات المعجمية"³⁷.

- صوّر الديوان الشاعر من خلال أزجاله مكديا ومجرّبا السجن.³⁸

- كثر زجله في المديح وهو متفاوت بين طبقتين: طبقة نافذة وطبقة هشة وهو في المديح الأول: "جادّ يتحدث عن الانتصار في المعركة وعن فضيلة الجهاد والعدل وصلاح الحال والكرم" وهو في المديح الثاني متفنن " في المجون وخط المدح بالغزل".

- كان بعض ممدوحيه يطلبون منه التغزل بهم، كما كان يفعل الأمير أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد الوشكي وقد أشار إحسان عباس إلى صفة المجون والاستهتار التي امتلأت بها -في المقدمات- هذه الأزجال.³⁹

- ومما تميّز به زجل ابن قزمان أنه افتخار بالذات وإعجاب بفنّ صاحبه قال:

والله إني مطبوع وإني رشيق

كل سحر نعمل في كل طريق

عندي الغوامض والفنّ الرقيق

ومقاطع أحلى من شعر الحسن*

قد سرق كلامي حديث وقديم

³⁶- السابق، ص 05.

³⁷- نفسه، ص 06.

³⁸- إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي: عصر الطوائف والمرابطين، ص 268.

³⁹- نفسه، ص.ص. 269-274.

*- الحسن: الحسن بن هانئ: أبو نواس.

سلط الله علي من ذا عظيم

كل واحد يسرق قسيم في قسيم

أي مصيبة قوم! الخرس فيه الأمن.

- تميّز زجله بالنقل الواقعي النفسي الدقيق.

ولعل أهم ما تميز به ابن قزمان هو تأثيره في لغة الزجل حيث كانت قبله هي اللغة الفصحى التي قيلت فيها الموشحات، وبظهوره - طالبا للشهرة كما تواتر ذلك في الدراسات - سنّ للزجالين الخروج عن الإعراب وإدخال العامية⁴⁰. قال: "ولمّا اتسع في طريق الزجل باعي، وانقادت لغريبه طباعي وصارت الأئمة فيه حولي وأتباعي، وحصلت منه على مقدار لم يحصله معي زجال، وقويت فيه قوة نقلتها الرجال عن الرجال، عندما أثبت أصوله وبينت فيه فصوله... وعديته من الإعراب وعربته من التخاليق والاصطلاحات تجريد السيف من القراب... والإعراب... هو أقبح ما يكون في الزجل وأنقل من إقبال الأجل..."⁴¹

⁴⁰ - محمد عباسة: الموشحات والأزجال الأندلسية، ص 132.

⁴¹ - ابن قزمان: الديوان، ص 17.

المحاضرة الثالثة عشرة:

الشعر الأندلسي نصوص من أشعار ابن زيدون

توطئة

1. المرحلة الأولى: الشعر في عهد الولاة في بداية الفتح الإسلامي
2. المرحلة الثانية: الشعر في عهد الحكم الأموي
3. المرحلة الثالثة: الشعر في عهد ملوك الطوائف والمرابطين

المحاضرة الثالثة عشرة: الشعر الأندلسي.

توطئة:

للأندلس وجهان:

- الأوّل ذلك الفردوس المفقود الذي ذهب بالعقول، وتيمّ الشعراء، حيث كان لطبيعة شبه جزيرة إيبيريا الواقعة جنوب غرب أوروبا آثار عميقة وبعيدة في الزمن في تشكيل شخصية إنسان هذا الإقليم ومزاجه. وقد لعبت جغرافيتها من جبال ووديان وسهول منبسطة واسعة خضراء أدواراً مؤفّقة في جعل الشعراء ينقلون هذا الواقع الجغرافي إلى دواوينهم، فباتت الأندلس في المتخيل الشعري فردوساً ضيّعته الفتن والحروب الداخلية.

- أمّا الوجه الثاني فهو تلك الاضطرابات التي مرّت بها البلاد قبل الفتح الإسلامي وبعده. أمّا قبل الفتح؛ فقد عرفت الجزيرة كثيراً من الأجناس الوافدين عليها؛ وأمّا بعد الفتح فإنّ البلاد لم تهناً بالعيش الآمن بسبب الفتن السياسية والصراعات على اعتلاء كرسيّ الحكم. ولقد كان لهذين الواقعين آثارهما في نسج بيئة خاصة ترعرع فيها الشعر الأندلسي.

مرّ الشعر الأندلسي بمراحل بارزة سبق أن أشرنا إلى بعضها وبعض خصائصها في سياق الحديث عن الموشح. وسنقتصر في محاضرتنا هذه على إطلالة بسيطة على المراحل الثلاثة الأولى من الشعر الأندلسي.

1. المرحلة الأولى: الشعر في عهد الولاة في بداية الفتح الإسلامي:

لقد شاكلت حالة الأدب في هذه المرحلة الواقع الأندلسي الذي لم يستقر بعد على دعائم ثابتة مؤسسة؛ فليست حركة إبانها سوى تقليد فاتر لما حمله الشعراء من ذاكرتهم الأدبية، وهي حركة لم يلتفت إليها ولم يُهتَمّ بها؛ وذلك للعامل الذي ذكرناه آنفاً - وتميّزت بالتنافس بين القبائل العربية الوافدة بصراعاتها القبلية التي أذكأها الأمويون في المشرق من جهة، وبمواصلة الفتوح ونشر الدعوة من جهة أخرى.

أما أدبيا فقد ظهر عليها التأثير المشرقي الوجداني الذي ظلَّ يُوجج شعرهم إلى مطلع القرن الرابع الهجري¹. ومن شعراء العرب الوافدين:

1- **أبو الأجر جعونة بن الصّمة**²: مثل النزعة القبلية والصراع بين القبائل بهجائه للقيسية، حيث اشتهر بهجاء سيدها الصميل بن حاتم، ثمّ تحوّل إلى مدحه بعد أن عفا عنه. والشاعر في نظر الدارسين في مرتبة جدير والفرزدق المشرقيين غير أنّه لم ينصف، فلم تحفظ أشعاره، ومما قاله:

و لقد أراني من هواي بمنزلي عال، ورأسي ذو غدائر أفرع
و العيش أعيد ساقط أفنانه والماء أطيبه لنا والمرّة³

2- **أبو الخطار حسام بن ضرار**: وهو قحطاني الأصل من الوافدين والمشاهير من الأشراف، وهو كذلك لم يلق الاهتمام، على الرغم من تلقيبه بعنزة الأندلس⁴. ومن شعره في معاتبة حكام بني مروان على مناصرتهم للقيسية على اليمانية، قال:

أفأتمّ بني مروان قيساً دماغنا وفي الله إن لم تُتصّفوا حكّم عدل
كأنكم لم تشهدوا مزج راهط ولم تعلموا من كان له الفضل
وقيناكم حرّ الوغيبصدورنا وليس لكم خيل تعدّ ولا رجل
فلما رأيتم واقد الحرب قد خبا وطاب لكم منا المشارب والأكل
تغافلتُم عنا كأن لم يكن لنا بلاء وأنتم - ما علمت - لها فعل
فلا تجزعوا إن عضت الحرب مرّة وزلت على المرقاة بالقدم النعل⁵

¹ - منجد مصطفى بهجت: الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط غرناطة، مديرية دار الكتب للطباعة والنشر، جامعة الموصل، 1988، ص57.

² - أحمد هيكل: الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط غرناطة، دار المعارف، مصر، 1985، ص.ص. 61-62.

³ - نفسه، ص62.

⁴ - نفسه، ص62.

⁵ - نفسه، ص 63.

وقد تميّز الشعر في عمومه- في هذه المرحلة:

- أنّه ليس له من الأندلس سوى نسبة الجغرافيا: أنّه قيل فيها؛
- تماثل مع الشعر المشرقي من حيث النظم في المديح والهجاء والفخر والحماسة؛
- اعتنى من الناحية اللغوية بجزالة اللفظ وفخامة العبارة؛
- معانيه بسيطة لا تعمق فيها، وهو أميل إلى البداوة منه إلى التحضر "وربما كان هذا الشعر أنسب شيء إلى طبيعة الناس وظروفهم في ذلك الحين، فقد كانوا لا يزالون على كثير من بداوتهم، متمسكين بقبيلتهم؛ ولم يصيبوا بعد من الثقافة والتحضر والتأثر بالحياة الجديدة، ما من شأنه أن يوجّه شعرائهم إلى تجارب شعرية محدثة وأساليب فنيّة مميزة"⁶.

2. المرحلة الثانية: الشعر في عهد الحكم الأموي

تمثل المرحلة الثانية الحكم الأموي الذي توّزع على فترات فصلها "أحمد هيكل" كما سبق أن

رأينا إلى ست مراحل هي:

- فترة تأسيس الإمارة.
- فترة صراع الإمارة.
- فترة الخلافة.
- فترة الحجابة.
- فترة الفتنة.

وقد سبقت الإشارة إلى هذا التقسيم في محاضرة الموشحات. وكما هو معهود من تأثير العوامل الخارجية في الأدب -شعره ونثره من حيث الموضوعات والفنّيات؛ فإنّ الشعر الأندلسي خضع لهذا التأثير؛ وقد رأينا سابقا أن الشعر الأندلسي في عهد الأموي عرف اتجاهين محافظا ومجددا؛ حيث نحت الأوائل على قوالب المشاركة مع تسجيل جملة من الخصوصيات الأندلسية؛ وذهب الجيل الموالي

⁶- السابق، ص64.

في فترة الصراع إلى استحداث الموشح باعتباره فناً شعبياً منبثقا عن ثقافات متميزة بين العرب والإسبان. أما في فترة الخلافة فقد ازدهر الأدب ثم ما لبث أن جمد وفي العصرين المواليين.⁷

وبناء على ما تقدّم فإنّ عنفوان الأدب كان في عهد الخلافة مع الخليفين عبد الرحمن الثالث وابنه الحكم (300هـ-350هـ) (912م-961م) (350هـ-366هـ) وقد تحكمت في الشعر خلفية ثقافية أقرها بنو أمية في الأندلس فقد كانوا "ينظرون إلى دولتهم في قرطبة بالأندلس على أنّها استمرار لدولتهم في دمشق بالشام. فهذا النظر القومي العصبي مضافا إلى الجامع الديني الروحي جعل أهل الأندلس كلّهم يرون في المشرق مثلاً أعلى وقدوة في الحياة الاجتماعية وفي الفقه والعلم والتفكير والأدب. من أجل هذا كلّه لا يستغربن أحد إذا لم يختلف الأدب الأندلسي في الشعر والنثر من الأدب المشرقي -في خصائصه المعنوية وخصائصه اللفظية- اختلافاً ظاهراً. ومما يروى في هذه الحال أنّه لما وصل كتاب "العقد" لابن عبد ربّه الأندلسي (ت328هـ) إلى المشرق واطّلع عليه صاحب بن عبّاد (326هـ-385هـ) قال: "هذه بضاعتنا ردت إلينا!"، فإن كتاب العقد هذا كتاب مشرقي في اتجاهه وموضوعاته وأسلوبه وروحه ومنتخباته، ولولا أنّ فيه فصلاً يتعلق بأمرء الأمويين في قرطبة لما أدرك أحد أنّ للكتاب صلة بالأندلس"⁸.

امتد استحضار النموذج الأموي في الحكم والسياسة إلى الأدب باستحضار النموذج الشعري المشرقي فقد أعجب الأندلسيون به فنظموا على شاكلته باعتباره مثلاً أدبياً/ تقليداً راسخاً. فقالوا في الأغراض نفسها: المدح والثناء والفخر والحماسة والهجاء والوصف والغزل... وبالأساليب نفسها.

والذي يجب أن نشير إليه أنّ هذا الاتجاه التأثيري بالمشرق استطاع الانفلات من قيود التقليد إلى إرساء خصوصية المنشأ الأندلسي -وقد أشرنا إلى ذلك عدّة مرات- خاصة فيما تعلق بغرض

⁷ ينظر أحمد هيكل: الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، ص.ص. 73-400.

⁸ عمر فرّوخ: تاريخ الأدب العربي-الجزء الرابع الأدب في المغرب والأندلس منذ الفتح الإسلامي إلى آخر عصر ملوك الطوائف. (أواخر القرن الخامس الهجري- الحادي عشر للميلاد)، دار العلم للملايين، بيروت، ط2، 1984، ص194.

الوصف الذي عرف اتساعا من حيث انفتاحه على وصف المدن وراثتها ووصف المعارك البحرية، قال الرمادي* في وصف السفن:

وَالسُّفُنُ قَدْ جَلَّلَهَا قَارُهَا كَأَنَّهَا أَعْرَاءُ حُبْشَانَ
كَأَنَّهَا فِي دَارِ مِضْمَارِهَا خَيْلٌ يُصَنِّعْنَ لِمِيدَانِ
كَأَنَّهَا وَالْمَاءُ مِيدَانُهَا فِي الْجَوِّ مَنْقُضَةٌ عِقْبَانَ
تَرَى الْمُقَادِيفَ بِأَحْنَائِهَا كَأَنَّهَا تَرْمِي بِنِيرَانِ
لِذَاكَ تَمْشِي تَمْشِي صَاحِحِ فُلُوْ جَاوَزَ أَمَسْتَ شِبَهَ نَشْوَانِ
كَالْأَعْيُنِ الْحَوْرِ مَجَازِيْفُهَا مِنْ حَوْلِهَا أَشْفَارُ أَجْفَانِ
كَأَنَّهَا أَبْرَاجُهَا فِي الْوَعْيِ تَرْمِي مِنَ النَّفْطِ بِبُرْكَانِ⁹

ومن الشعراء الذين ذاع صيتهم في هذه المرحلة نذكر ابن عبد ربّه (236هـ - 328هـ) صاحب العقد الفريد، وهو أحمد بن محمد بن عبد ربّه ولد في 236هـ ونشأ في قرطبة نشأة علمية. اتصل بالعلماء والأمراء في عصره، وكان مميزا في زمانه، "لقب بألقاب منها: شاعر الأندلس، ومليح الأندلس، ويقال إن المتنبي وصفه بأنه أشعر القوم. أما ابن شرف القيرواني (ت460هـ) فقد أتى على أشعاره في مرحلتي الشباب والشيخوخة.... وصفه ابن حيان (ت469هـ): زعيمهم وسابق حيلتهم، الفحل الخنديد والصانع المجيد...¹⁰.

*- الرمادي: "هو أبو عمر يوسف بن هارون الكندي المعروف بالرمادي، ويقول مترجموه إن نسبته إلى قبيلة كندة جعلت الكثيرين من شيوخ الأدب في زمنه يقولون: "فتح الشعر بكندة وختم بكندة" يعنون أما القيس الكندي في الجاهلية والمنتبي والرمادي القرطبي الكنديين. أما لقبه الرمادي فيقول ابن بشكوال في الصلة إنه تعريب لكنية إسبانية هي "أوجنيس".... وقال ابن سعيد في المغرب إنه منسوب إلى رمادة من قرى مدينة شلب في الجنوب الغربي للأندلس، وربما كان قول ابن سعيد أكثر دقة لأنه أعرف بـ شلب وقرأها "شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، الجزء الثامن عصر الدول والإمارات، الأندلس، دار المعارف، ط1، ص277.

⁹- إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي، عصر سيادة قرطبة-دار الثقافة، بيروت، ط2، 1969، ص96.

¹⁰- منجد مصطفى بهجت: الأدب الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة، ص82.

يأتي شعر ابن عبد ربّه نموذجاً للشعر الأندلسي من حيث تناوله للأغراض التي قال فيها معاصروه من مديح مقترن بوصف للمعارك والجهاد. يتلو غرض المديح* في شعر ابن عبد ربّه الغزل، وهو في غالبه عبارة عن مقطوعات شعرية، فضلاً عن ذلك فقد قال في "شعر الآداب والأخلاق الإسلامية" وهو داخل في باب الأمثال، والباب الأوسع: الزهد.

وقد ذهب فيه "مذهباً جديداً أطلق عليه تسمية المحصّات، وهي قصائد يعارض فيها قصائد تقدمت في حياته الأولى يلتزم الوزن والقافية وحركة الروي ولكنه ينقض نزعت المتساهلة في باب الغزل، ويشير إشارة صريحة إلى تلك القصائد والصلة بين المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي واضحة. يقال محصّ الذهب بالنار، إذا أخلصه ممّا يشوبه حيث يضمن قصيدته الثانية شطر بيت من قصيدته الأولى"¹¹. قال:

يا عاجزاً ليس يَغْفُو حِينَ يَقْتَدِرُ ولا يُقْضَى له مِنْ عَيْشِهِ وَطَرُ
عَايِنُ بِقَلْبِكَ إِنَّ الْعَيْنَ غَافِلَةٌ عَنِ الْحَقِيقَةِ وَأَعْلَمُ أَنَّهَا سَقَرُ
سَوْدَاءُ تَزْفُرُ مِنْ غَيْظٍ إِذَا سَعِرَتْ لِلظَّالِمِينَ فَمَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ
إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوْا دُنْيَا بِآخِرَةٍ وَشَقْوَةً بِنَعِيمٍ سَاءَ مَا تَجْرُوا
أَنْتَ الْمُقُولُ لَهُ مَا قُلْتُ مُبْتَدِئاً هَلَّا ابْتَكَّرْتَ لِبَيْنٍ أَنْتَ مُبْتَكِّرُ

"وهو يعارض فيها أبياتاً قالها في خطاب فتى كان يألّفه أزمع على السفر فحال المطر الغزير دون ذلك. فكتب إليه:

هَلَّا ابْتَكَّرْتَ لِبَيْنٍ أَنْتَ مُبْتَكِّرُ هَيْهَاتَ يَا بِي عَلَيْكَ اللَّهُ وَالْقَدَرُ
مَا زِلْتُ أَبْكِي حِذَارَ الْبَيْنِ مُلْتَهَافاً حَتَّى رَثَى لِي فِيكَ الرِّيحُ وَالْمَطَرُ
أَلَيْتُ أَلَا أَرَى شَمْساً وَلَا قَمراً حَتَّى أَرَكَ فَأَنْتَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ¹²

*- مدح عدداً من حكام الأندلس منهم عبد الرحمن الثالث.

¹¹- السابق، ص 87.

¹²- نفسه، ص.ص. 87-88.

3. المرحلة الثالثة: الشعر في عهد ملوك الطوائف والمرابطين:

عرفت هذه الفترة من تاريخ الأندلس كثيرا من الاضطرابات والفتن مما كان أسبابا واضحة في انهيارها لاحقا. وربما كان هذا -أيضا- عاملا من العوامل التي أسهمت في تألق الشعر، فبتعدد الدويلات تعددت مراكز الأدب "وكثر الممدوحون وحماة الأدب ورعاته، وكثرت دواوين الإنشاء، وتعدّد الوزراء الكتاب الشعراء، وأصبحت المنافسة أشدّ وأقوى"¹³. فوقع الشعر إثرها تحت جملة من الظروف الداخلية والخارجية أحييت حركيته فعرف تطوّرات على مستوى الشكل والموضوع.

• الشكل: اشتهت تأثر الأندلسيون بالنموذج العربي المشرقي القديم، الموصوف بمذهب العرب -عندهم- في قاعدتيه الأساسيتين: الجزالة والتدفق.¹⁴

وعلى هذا فإن الشعراء الأندلسيين ذهبوا إلى معارضة وتقليد شعراء مرموقين في المشرق أمثال أبي الطيب المتنبي وأبي العلاء المعري. قال ابن عبدون* على طريقة المتنبي:

هِيَاهُ لَا أَبْتَغِي مِنْكُمْ هَوًى بِهَوًى حَسْبِي أَكُونُ مُحِبًّا غَيْرَ مَحْبُوبٍ
فَمَا أَرَأَى لِيذَكَرِي غَيْرَ عَالِيَةٍ وَلَا أَلْذَّ بِحُبِّ دُونَ تَعْذِيبِ
وَلَا أَصَالِحُ أَيَّامِي عَلَى دَخَنِ لَيْسَ النِّفَاقُ إِلَيَّ خُلْفِي بِمَنْسُوبِ
يَا دَهْرُ إِن تَوَسَّعِ الْأَحْرَارَ مَظْلَمَةً فَاسْتَنْتَنِي إِن عَلِيَّ غَيْرُ مَقْرُوبِ
وَلَا تَخَلْ أَنْتَنِي أَلْقَاكَ مُنْفَرِدًا إِنَّ الْقَنَاعَةَ جَيْشٌ غَيْرُ مَغْلُوبِ

وعلق على هذه الأبيات بقوله: "ذلك أنه يبينه على القوة، ويستأنف بعد قطع الكلام بإرسال الحكمة والمثل، إذ أنه قد يخالف المتنبي في فلسفته إذ يقول: "ولا ألد بحب دون تعذيب"، كما يخالفه

¹³- إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي - عصر الطوائف والمرابطين - دار الثقافة بيروت، ط7، 1985، ص107.

¹⁴- نفسه، ص108.

*- ابن عبدون: "هو أبو محمد عبد المجيد بن عبد الله بن عبدون الفهري البائري من يابرة غربي بطليوس... وفي الصلة لابن بشكوال أنه كان عالما بالخبر والأثر ومعاني الحديث وأنّ الناس أخذوا منه. واستيقظت ملكته الشعرية مبكرة، فمدح المتوكل عمر بن مظفر أمير بطليوس...". شوقي ضيف: عصر الدول والإمارات - الأندلس، ص344.

ويبتعد عن طريقه في قوله: "إنّ القناعة جيش غير مغلوب"، ولكن السياق العام في القصيدة فيه احتذاء شديد لأبي الطيب¹⁵.

ومن الجوانب الشكلية التي تأثر بها الشعر الأندلسي بالشعر في المشرق الافتتاح بالمقدمة الطليية في المديح وإحاقها بوصف الرحلة.

• **الموضوعات:** تطرّق الشعراء في هذه المرحلة إلى الأغراض المعهودة في الإرث الأدبي العربي القديم -المشركي- وقالوا في بعض الأغراض كان لبيئتهم الدور الأكبر في استحداثها: وهي شعر الطبيعة وشعر المدن وصفا وراثاً وشعر الغربة والحنين -والموشحات- والذي يجب أن نشير إليه أن تأثير البيئة والظروف امتد إلى الأغراض القديمة كذلك وأهمّها: الغزل والمديح والرتاء والزهد والتصوف.

• **ابن زيدون:** يمثل ابن زيدون نموذجاً شعرياً راقياً للشعر الأندلسي في عهد ملوك الطوائف، اشتهر بغزله في ولادة بنت المستكفي وهو واحد من الذين تولّوا الحكم في الأندلس ولم تطل مدة اعتلائهم الكرسي؛ غير أن الشاعر خاض في أغراض شعرية مثل من خلالها محطة من محطات الحياة الأدبية في الأندلس.

وابن زيدون هو "أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن أحمد بن غالب بن زيدون المخزومي الأندلسي القرطبي. وهو من أبناء وجوه الفقهاء، فقد كان والده من هيئة الفقهاء المشاورين لعهد الخليفة المستعين، وكان جدّه لأمّه صاحب الأحكام بقرطبة.... ولد أبو الوليد أحمد بن زيدون سنة 394هـ/ 1003م¹⁶. وتوفي عام 463هـ بأشبيلية. اتهم أنّه كان يدعو إلى عودة بني أمية إلى الحكم فاعتقله أبو حزم وهو حاكم بني جهور، وظل فيه مدة ثم هرب منه، وانتهى أمره إلى العفو عنه. واستوازه فيما بعد -على يد ابن أبي حزم- غير أن العلاقة فسدت بينهما فاضطر إلى مغادرة قرطبة إلى اشبيلية حيث تحكّم أسرة بني عباد، فاستوزره المعتضد وبعده ابنه المعتمد¹⁷.

¹⁵- إحسان عباس: عصر الطوائف والمرابطين، ص111.

¹⁶- فوزي خضر: عناصر الإبداع الفني في شعر ابن زيدون، طبع مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري بالكويت، 2004م، ص13.

¹⁷- ينظر شوقي: الفن ومذاهبه في الشعر العربي، دار المعارف، مصر، ط4، 1943، ص439.

٤٧٠ مذهبه في الشعر: تجمع الدراسات على ابن زيدون هو بحتري الأندلس ذلك أنه يحذو حذوه حيث قارب ذوقه ذوق البحتري، غير أنه لم ينج من الصنعة والتصنيع "لأن من يتتبع ابن زيدون في ديوانه يجده كبقية الشعراء الأندلسيين يخلط بين مذاهب العباسيين من صنعة وتصنيع وتصنع في غير طريقة مرسومة ولا خطة موضوعة"¹⁸. وقد أحصى له الدارس مجموعة من الأبيات اتضح من خلالها أخذه المباشر عن عمالقة الشعر المشرقي، راداً رأيه هذا إلى صاحب الذخيرة ابن بسّام. نورد فيما يلي الأبيات التي قالها ابن زيدون وأبيات الذين تأثر بهم من المشاركة:

(1) قال ابن زيدون في وصف سواد ليلة:

يا لَيْتَ ذَاكَ السَّوَادَ الْجَوْنَ مُنْصِلًا قَدْ اسْتَعَارَ سَوَادَ الْقَلْبِ وَالْبَصْرِ
وقال أبو العلاء:

يُودُ أَنْ ظَلَامَ اللَّيْلِ دَامَ لَهُ وَزَيْدٌ فِيهِ سَوَادُ الْقَلْبِ وَالْبَصْرِ
وقال ابن زيدون مادحا:

بَنِي جَهْوَرٍ أَحْرَقْتُمْ بِجَفَائِكُمْ جَنَابِي فَمَا بِالْمَدَائِحِ تَعْبِقُ
تَعْدُونَنِي كَالْعَنْبَرِ الْوَرْدِ إِنَّمَا تَطْيِبُ لَكُمْ أَنْفَاسُهُ حِينَ يُحْرَقُ
وهو قد سبق إلى هذا المعنى بهذه الألفاظ أبو تمام في بيته المشهور:

لَوْلَا اسْتِعَالُ النَّارِ فِيمَا جَاوَرَتْ مَا كَانَ يُعْرَفُ طَيْبُ عَرَفِ الْعُودِ.
وقال أيضا:

هَرِمْتُ وَمَا لِلشَّيْبِ وَخَطُّ بَمْفَرِقِي وَكَأَنَّ لِشَّيْبِ الهَمِّ فِي كَبْدِي وَخَطُّ
وهو فيه متأثر بالمتنبي:

إِلَّا يَشِبُّ فَلَقَدْ شَابَتْ لَهُ كَبِدٌ شَيْبًا إِذَا خَضَّبَتْهُ سَلْوَةٌ نَصَلًا
وقال في المديح وهو مأخوذ من قول البحتري:

وَصَلْنَا فَعَبَّلْنَا النَّدَى مِنْكَ فِي يَدٍ بِهَا يُتَلَفُ الْمَالُ الْجَسِيمُ وَيُخْلَفُ
وقال البحتري:

¹⁸ - السابق، ص 441.

دَنَوْتُ فَتَبَّلْتُ النَّدَى فِي يَدِ امْرِئٍ كَرِيمٍ مَحْيَاهُ سِبَاطٍ أُنَامُهُ¹⁹
 ولعلَّ أشهر نصِّ لابن زيدون هو نونيته التي بوّأته أن يترجّع على عرش غرض الغزل
 الأندلسي، وقد جاءت في واحد وخمسين (51) بيتاً، قالها مستحضراً أيام الهوى مع ولادة بعد أن
 انقطعت العلاقة بينهما نذكر منها هذه الأبيات القلائل:

أُضْحَى التَّنَائِي بَدِيلاً مِنْ تَدَانِينَا	وَنَابَ عَنْ طَيْبِ لُقْيَانَا تَجَافِينَا
أَلَّا وَقَدْ حَانَ صُبْحُ الْبَيْنِ صَبَبْنَا	حِينَ فَقَامَ بِنَا لِلْحَيْنِ نَاعِينَا
مَنْمُبلِغَالْمُلبِسِينَا بِانْتِزَاحِهِمْ	حُزْناً مَعَ الدَّهْرِ لَا يَيْلَى وَيُبلِينَا
أَنَّ الزَّمَانَ الَّذِي مَازَالَ يُضْحِكُنَا	أُنْساً بِفُرْبِهِمْ قَدْ عَادَ يُبْكِينَا
غِيظَ العِدَا مِنْ تَسَاقِينَا الهَوَى قَدَعُوا	بِأَنَّ نَعَصَّ فَقَالَ الدَّهْرُ آمِينَا
فَانْحَلَّ مَا كَانَ مَعْقُوداً بِأَنْفُسِنَا	وَانْبَتَّ مَا كَانَ مَوْصُلاً بِأَيْدِينَا
وَقَدْ نَكُونُ وَمَا يُخْشَى نَقْرُفُنَا	فَالْيَوْمَ نَحْنُ وَمَا يُرْجَى تَلَاقِينَا
يَا لَيْتَ شِعْرِي وَلَمْ نُعْتَبِ أَعَادِيكُمْ	هَلْ نَالَ حَظّاً مِنَ العُتْبَى أَعَادِينَا
لَمْ نَعْتَقِدْ بَعْدَكُمْ إِلَّا الوَفَاءَ لَكُمْ	رَأياً وَلَمْ نَنْقَلِدْ غَيْرَهُ دِينَا
مَا حَقَّنَا أَنْ تُقَرِّوْا عَيْنَ ذِي حَسَدٍ	بِنَا وَلَا أَنْ تَسْرُوْا كَاشِحاً فِينَا
كُنَّا نَرَى اللَّيْأَسَ تُسَلِينَا عَوَارِضُهُ	وَقَدْ يَيْسُنَا فَمَا لِلْيَأسِ يُغْرِينَا
بِنْتُمْ وَيَنَّا فَمَا ابْتَلَّتْ جَوَانِحُنَا	شَوْقاً إِلَيْكُمْ وَلَا جَفَّتْ مَاقِينَا
نَكَادُ حِينَ تُتَاجِيكُمْ صَمَائِرُنَا	يَقْضِي عَلَيْنَا الأَسَى لَوْلَا تَأْسِينَا
حَالَتْ لِفَقْدِكُمْ أَيَّامُنَا فَعَدَّتْ	سُوداً وَكَانَتْ بِكُمْ بِيضاً لِيَالِينَا ²⁰

وقال في الحنين إلى قرطبة وهو في السجن:

تَتَشَّقَّقُ مِنْ عَرَفِ الصَّبَا مَا تَتَشَّقَّقُ
 وَعَاوَدَهُ ذِكْرُ الصَّبَا فَتَشَّقَّقُ

¹⁹ - السابق، ص.ص. 441-442.

²⁰ - ابن زيدون: الديوان، شرحه وضبط نصوصه وقدم له عمر فاروق الطباع، دار القلم للطباعة والنشر

والتوزيع، د.ت، ص.ص. 225-226.

وَمَا زَالَ لَمَعُ الْبَرَقِ لَمَّا تَأَلَّقَا
يُهَيْبُ بِدَمْعِ الْعَيْنِ حَتَّى تَدَقَّقَا
وَهَلْ يَمْلِكُ الدَّمْعُ الْمَشُوقُ الْمُصَبَّأُ؟
أَقْرَبُ بَةُ الْغَرَاءِ هَلْ فِيكَ مَطْمَعُ؟
وَهَلْ كَبِدٌ حَرَى لِبَيْنِكَ تُنْفَعُ
وَهَلْ لِلَّيَالِيكِ الْحَمِيدَةِ مَرْجِعُ
إِذِ الْحُسْنُ فِيكَ وَاللَّهُوُ مَسْمَعُ
وَإِذْ كُنْتُ الدُّنْيَا أَدِيكَ مُوْطَأُ



المحاضرة الرابعة عشرة:
نصوص من الشعر الجزائري القديم بكر بن حماد
التيهري.

توطئة

1. مراحل الحركة الشعرية في المغرب العربي
2. الملامح العامة للأدب في هذه المرحلة
3. بكر بن حماد التيهري

المحاضرة الرابعة عشرة:

نصوص من الشعر الجزائري القديم

بكر بن حماد التيهرتي.

توطئة:

تمتد نشأة الشعر العربي في المغرب إلى القرون الأولى من الفتح الإسلامي لإفريقيا. فقد كانت المنطقة مطمحا للفاتحين منذ عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه- ولم يتحقق الحلم المراد إلا أيام الأمويين مع عقبة بن نافع وموسى بن نصير. ولا تسعفنا الدراسات عن كيان ثقافي أدبي للمنطقة بلغته الأصل، حيث أحاط به الغموض الذي أحاط بغموض البربر والأمازيغ وتعريبهم. ولم يلبث المغرب بعد فتحه حتى استقلّ بحكمه الذاتي وانفصاله عن الخلافة العباسية، وربما كان ذلك لشخصية سكانه التي لا تأبى الانصياع للأجنبي. فكانت أول دولة استقلت بنفوذها في المغرب الأوسط - هي الدولة الرستمية بمذهبها الإباضي، التي أسسها عبد الرحمن بن رستم واستغرق حكمها قرابة القرنين من 140 هـ - 144 هـ / 160 هـ - 296 هـ. أي أنها زامن الحكم العباسي في عصره الذهبي في القرنين الثاني والثالث.

1. مراحل الحركة الشعرية في المغرب العربي:

مرّ الشعر العربي في المغرب العربي القديم بمراحل، قسّمت تقسيمين سياسيين:

- التقسيم الأول: وفيه مرّ الأدب بثلاث مراحل هي:

1- مرحلة التأسيس والنشوء: 50 هـ - 184 هـ.

2- مرحلة النهضة الأدبية يفتح مع الدولة الأغلبية وينتهي بزوالها: 184 هـ - 296 هـ.

3- عصر الازدهار السياسي: "ويبتدئ بقيام الدولة الفاطمية، وينتهي بسقوط دولة بن زيري

على يد المؤّحدين 296 هـ - 547 هـ".¹

¹ محمد مرتاض: الأدب المغربي القديم - نشأته وتطوره، دار هومة، الجزائر، 2016، ص19

- التقسيم الثاني: ومن خلاله فإنّ الأدب عرف مرحلتين هما:

1- عصر النشوء الثقافي: وله حقبتان:

أ- من الفتح الأولي إلى 144هـ.

ب- من 144هـ إلى 184هـ.

2- عصر النهضة الثقافية: ويبدأ من سنة 184هـ وينتهي سنة 296هـ. "وهذا التقسيم،

ومهما يوجّه إليه من طعن؛ فهو منطقي، لأنّه يتصل بتأسيس دول كان لها الأثر الكبير على هذا للإشعاع هنا، وذلك الضعف أو الركود هناك لأنّ الأمر يتصل بدول أسهمت بصورة بارزة في تشييد هذا الصرح مثلما هو الأمر مع دولة الرستميين التي لا يجحد منصف أهمية تشجيعها للأدباء والشعراء والمتقنين بعامّة"².

1.1. مرحلة التأسيس:

ويطلق عليها: مرحلة الولاة ومرحلة الولاء: وقد جابه هذه المرحلة إشكال نسبة هذا الأدب: هل ينسب إلى المشاركة الفاتحين أو إلى المكان الذي قيل فيه: المغرب -شمال إفريقيا- ذلك أنّ هذه النصوص قد كان له دور كبير في تعريب هذه المنطقة³. تأخذ هذه المرحلة تسميتين أخريين: مرحلة الولاة اتفاقا مع مرحلة الولاة في الأندلس ومرحلة الولاء باعتبار المرحلة ولاء لبني أمية. فكانت أول خصائص الشعر فيها "التقليد" من حيث الشكل والمضمون، "فمن البديهي أن لا نرى أدبا ولا أدباء إلا ما كان من رجال الدين والفقهاء والدعاة الذين يفدون لتتقيف أهل البلاد. وإن كان أدباء فهم من العرب الداخلين. ولكن لا نجد لهم أثرا، وإن وجد يوما ما فليس له من الجزائرية شيء. لأن أصحابه مشاركة. وهو أدب يتناول في الشعر ما عرفناه للمشاركة من أبوابه. وفي النشر الرسائل والوعظ الديني والخطب الدينية والسياسية"⁴.

² - السابق، ص 23.

³ - ينظر العربي دحو: مدخل في دراسة الأدب المغربي القديم - نشأته و تطوره، دار الشهاب، باتنة، 1986.

⁴ - محمد الطمار: تاريخ الأدب الجزائري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ص 24.

ومن الصعب أن نعثر على دراسات في الأدب الجزائري القديم سواء قبل الفتح أم بعده؛ والجدير بالذكر أن الفاتحين المسلمين استطاعوا أن يتغلغلوا إلى هذه البيئة ويؤثروا فيها وإن لم يكن ذلك سهلاً عليهم⁵. فزاحمت اللغة العربية لغة السكان الأصليين -في المناطق التي وصلت إليها- وقد كان هذا عاملاً جوهرياً في نشأة أدب عربي في هذه المنطقة، نضيف إلى هذا العامل هجرة كثير من المغاربة إلى المشرق، ثم إنهم لم يعودوا إلى أوطانهم إلا بعد أن تمكّن منه اللسان العربي⁶.

وعلى الرغم من ندرة المؤلفات فإن أسماء أدبية يرد ذكرها في التأسيس لنشأة الأدب العربي في منطقة شمال إفريقيا، تحدث محمد مرتاض في كتابه "الأدب المغربي القديم" عن أدباء زامنوا الفتح الأول مستندا إلى بعض الدراسات السابقة عن دراسته؛* وهم:

1- سابق البربري:

ويسمى سابق المطماطي، وهو معاصر للخليفة عمر بن عبد العزيز؛ ذكر له الكاتب أبياتا في موعظة الخليفة الأموي:

إِنَّ الْأُمُورَ إِذَا اسْتَقْبَلَتْهَا إِشْنَبَتْهَا فِي تَدَبُّرِهَا التَّبْيَانُ وَالْعَبْرُ
وَالْمَرْءُ مَا عَاشَ فِي الدُّنْيَا لَهُ أَمَلٌ إِذَا انْقَضَى سَفَرٌ مَنَا أَتَى سَفَرٌ
لَهَا حَلَاوَةٌ عَيْشٌ غَيْرٌ دَائِمَةٌ فِي الْعَوَاقِبِ مِنْهَا الْمُرُّ وَالصَّبْرُ
وَلَيْسَ يَزْجُرُكُمْ مَا تُوعِظُونَ بِهِ وَالْبَهْمُ يَزْجُرُهَا الرَّاعِي فَتَنْزَجِرُ
أَصْبَحْتُمْ جَزْرًا لِلْمَوْتِ يَقْبِضُكُمْ كَمَا الْبَهَائِمُ فِي الدُّنْيَا لَهَا جَزْرٌ

⁵ - عباس الجاربي: الأدب المغربي من خلاله ظواهره وقضاياها، نشر وتوزيع مكتبة الرباط، ط2.

⁶ - محمد مرتاض: الأدب المغربي القديم: نشأته وتطوره، ص15.

*- الدراسات التي ذكرها: (1) دراسة عباس الجاربي -المذكورة في هامش سابق- ونشير هنا أن اسم الكاتب عند محمد مرتاض فيه خطأ مطبعي: عباس الجزلثري عوض عباس الجاربي، ص15. (2) الدراسة الثانية: حسني ناعسة: شعر الفقهاء.

وقد علّق الباحث على خبر الشاعر وبلوغه الشام متسائلاً: "ولكن السؤال الذي يطرحه المتلقي هو: كيف وصل الشاعر إلى بلاط الخليفة؟ أكان ذلك تضايقا ببلده؟ وفرار من ضيق العيش ورغبة في العطاء؟ أم أنّ الأمر غير ذلك؟ أو أنّه أصلا لم يتصل به إطلاقاً؛ وما هذا إلاّ نسيج من خيال"7.

2- طارق بن زياد وعبد الرحمن بن زياد القيرواني:

وردّا على الشك في نسبة الخطبة المشهورة لطارق بن زياد؛ في أوّل الفتح، وهو حديث عهد بالإسلام والعربية، قال إنّ اللغة العربية لم تكن غريبة عن هذه الدّيار، فذكر شاعرا أصوله عربية إفريقية هو عبد الرحمن بن زياد القيرواني -74هـ/75هـ- 161هـ. "تولى وظيفة القضاء مرتين على عهد بني أمية"؛ قال مشتاقا إلى القيروان:

ذَكَرْتُ الْقَيْرَوَانَ فَهَاجَ شَوْقِي وَأَيْنَ الْقَيْرَوَانُ مِنَ الْعِرَاقِ ؟
 مَسِيرَةٌ أَشْهُرٍ لِلْعَبِيرِ نَصًّا وَلِلْخَيْلِ الْعِتَاقِ
 بِأَنَّ اللَّهَ قَدْ خَلَى سَبِيلِي وَجَدَّ بِنَا الْمَسِيرُ إِلَى مُزَاقِ

2.1. المرحلة الثانية: مرحلة النهضة الأدبية:

تمثل هذه المرحلة حركة النهضة في الأدب العربي المغربي، وقد تحدّدت زمانيا بدولة الأغالبة -في تونس اليوم- مع العلم أنّ هذه الدولة تأسست بعد دولة الرستميين* في الجزائر والتي نختصر سياق ميلادها كما ورد عند محمد الطّمار في "تاريخ الأدب الجزائري"، حيث قال: "تنتسب الدولة الرستمية إلى عبد الرحمن بن رستم الفارسي. الذي استخلفه أبو الخطاب المعافري على القيروان بعد أن قرّر أن يذهب إلى طرابلس ليقف في وجه الحملات التي اعتزم الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور إرسالها إلى بلاد المغرب لإخماد الثورات الخارجية، فزحف ابن الأشعث والي مصر، سنة 144هـ (763م) بأمر الخليفة على المغرب الثائر، والنقي بأبي الخطاب وجموعه، وتمكّن من قتله وتشتيت قواه واستعاد القيروان من الخوارج، ولاحق صاحبها ابن رستم، إلى جهات الأوراس وبدّد شمله وأرغمه على الفرار. فنزل ابن رستم بجبل على مقربة من "تيارت" الحالية. فلم يكد يسمع الإباضيون بهذا

⁷ - السابق، ص17.

*- الدويلات في المغرب العربي: الأغالبة في تونس، والأدارسة في المغرب، والرستميون في الجزائر.

الخبر حتى أموا عبد الرحمن فشدوا أزره. فقوي حينئذ أمره، وفكر في تأسيس مدينة تكون شارة استقلالهم، فافتحوها وشيدوها سنة 148هـ (775م). وأصبحت قاعدة إمارتهم بل دولتهم التي كان لسلطانها كلّ المدن والقرى الواقعة بين الزّاب وفاس وسجلماسة على قول الباروني. وسميت هذه المدينة "بتيهرات" المعروفة "بتقادم"، فترجع عبد الرحمن بن رستم على عرش إمارته سنة 160هـ، فكان حينئذ أول مؤسس لدولة إسلامية جزائرية مستقلة⁸

2. الملامح العامة للأدب في هذه المرحلة:

شاع في تناول الأدب في هذه المرحلة الاتفاق شبه الكلّي على أنّ ميزته الأساسية هي الطابع الديني حيث طغى التوجه الفقهي⁹ وذلك بحكم الظرف التاريخي اللغوي، والثقافي الذي سعى إلى تعزيز اللغة العربية بالمنطقة، وهي اللغة التي تحقّق مكانتها وتثبتها بقوة الدين. وقد تميّز الأدب الجزائري في العهد الرستمي بأن نشأ فيه أول جيل للأدباء الجزائريين "الحقيقيين"، عالجوا الشعر وأحسنوا معالجته، ولكن ظلّ يتسمّ بسمات المدرسة الشرقية المحافظة. وأساليب هذا الشعر متينة بحيث لا نجد فيها اختلافاً من حيث الصناعة عما يعرف من شعر المشاركة على ذلك العهد¹⁰.

عرض الشعر الجزائري ثلاثة أصناف من الشعراء:

أ- الشعراء الأمراء: ونذكر منهم أفلح بن عبد الوهاب الرستمي، حكم الدولة الرستمية بين 238هـ - 241هـ، وقد كان له أثر في تطوّر الأغراض والموضوعات، وشعره ذو طابع تعليمي يخلو من جماليات الإبداع الفني القولي ومنه قوله:

العلم أبقى لأهل العلم آثاراً يريك أشخاصهم رَوْحاً وإبكاراً
حيّ وإن مات ذو علم وذو ورعٍ ما مات عبداً قضى من ذاك أوطارا
وذو حياة على جهل ومنقصةٍ كميت قد ثوى في الرمس أعصاراً¹¹

⁸ - محمد الطّمار: تاريخ الأدب الجزائري، ص.ص. 27-28.

⁹ - محمد مرتاض: الأدب المغربي القديم، ص.24.

¹⁰ - محمد الطّمار: تاريخ الأدب الجزائري، ص.30.

¹¹ - محمد مرتاض: الأدب المغربي القديم، ص.30.

ب- الشعراء الفقهاء: ومنهم أحمد الصواف القيرواني عاش ما بين 204هـ-291هـ، ومن

شعره:

سألِبسُ للصبرِ ثوبا جميلا وأقتل للصبر حبالا طويلا
وأصبرُ بالرغمِ لا بالرضى وأخلص نفسي قليلا قليلا لا¹²

3. بكر بن حماد التيهرتي*:

هو الصوت الشعري الجزائري العربي الأول، عاش في القرن الثالث الهجري بين المغرب والمشرق العربيين فكانت تجربته رائدة في التأسيس لحركة الشعر الجزائري القديم.

1.3. التعريف به:

"هو أبو عبد الله بكر بن حماد بن سهل وقيل بن سهر بن إسماعيل الزناتي أصلا التاهرتي نشأة ودارا ووفاة"¹³. ولد الشاعر في عام 200 للهجرة بمدينة تيهرت وهي التي ينسب إليه. أخذ عن علمائها حتى بلوغه السابعة عشر من عمره، فرحل عنها متوجها إلى إفريقية (القيروان) ولم يبق فيها طويلا ومنها رحل إلى المشرق العربي في عهد الخليفة العباسي المعتصم (حكم بين 218هـ-227هـ). استقر بدار الخلافة وكانت له اتصالات وعلاقات مع مثقفي ذلك العصر: عمر بن مرزوق البشري. أبو الحسن البصري، أبو حاتم السجستاني، الرياشي، ابن الأعرابي ومن الأدباء: دعلب الخزاعي وأبو تمام. وعلي بن جهم الخراساني¹⁴. عاد الشاعر إلى المغرب وأقام بالقيروان مرة ثانية،

¹² - محمد بن رمضان شاوش: الدر الوقاد، ص.ص. 62-66.

* - تاهرت بفتح التاء وسكون الراء أو تيهرت بكسر التاء مدينة قديمة كانت موجودة بالقرب من مدينة تيارت الحالية في الجهة الغربية وعلى بضعة أميال منها، وهذه اللفظة أي تاهرت أو تيهرت بربرية ومعناها في اللغة العربية: اللبوة، سميت المدينة بهذا الاسم لأن المكان الذي أسست به كان به قبل تأسيسها عرين تلتجئ إليه لبوة لأوضاع* أشبالها" نقلا عن: محمد الأخضر عبد القادر السائحي: بكر بن حماد شاعر المغرب العربي في القرن الثالث الهجري، صدر عن وزارة الثقافة، الجزائر 2007 (بمناسبة الجزائر عاصمة الثقافة العربية 2007)، ص15.

¹³ - محمد بن رمضان شاوشي: الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد التاهرتي: تقاديم وجمع وشرح، مطبعة

العلوية، مستغانم، ط1، 1966، ص43.

¹⁴ - نفسه: ص 47-48.

ويبدو أنه "رجع من المشرق بعلم غزير وأدب جمّ وأنه كان من رواة الحديث كما كان من هواة الأدب وأنّ مجالسه لم تكن تخلو من مباحثات ومناقشات ومناظرات علمية وأدبية ممّا يدلّ على رفعة شأنه في الفقه والحديث وعلوّ كعبه في الأدب والشعر"¹⁵.

وكان يتردد بين تاهرت والقيروان -حسب ما ذكره جامع الديوان محمد بن رمضان شاوش- بما يقتضيه الظرف السياسي؛ ويبدو أنه اتصل ببعض أمراء المغرب الأقصى حيث مدح الأميرين: أحمد بن القاسم الكرتي وأبا العيش عيسى بن إدريس¹⁶. ذكر رمضان شاوش في خبر وفاته أنه خرج فاراً من القيروان بصحبة ابنه عبد الرحمن فتعرض له قطاع طرق بقلعة ابن حمّة على مقربة من تاهرت فأصابوا ابنه وتوفي وفيه قال مرثيته المشهورة، وأصيب الشاعر وصارع حتى وصل إلى مدينته وبها توفي في شوال من عام 236هـ.¹⁷

2.3. مذهبه:

عملت الدولة الرستمية على نشر المذهب الإباضي وفق تعاليم الخوارج وأهمّها أن الحكم لمن هو أهل له، وقد اختلفت الأقوال في مذهبه: هل ظلّ إباضياً بعد رحلته إلى المشرق أم أنه تشرب معدن مذهب السّنة والجماعة فعدل عن إباضيته، وقد مال إلى هذا الرأي جامع الديوان وكذلك محمد الأخضر عبد القادر السائحي¹⁸. ولعلهم استنقدوا مع غيرهم ممّن رأوا هذا الرأي - إلى قصيدته في هجاء عمران بن حطان - شاعر أموي سبق أن تحدثنا عنه - الذي مدح عبد الرحمن بن ملجم قاتل علي بن أبي طالب - رضي الله عنه -، قال هاجياً معارضاً قصيدة عمران في المدح:

قل لابن ملجم والأقدار وغالبة هدمت ويليك للإسلام أركاننا
فتك أفضل من يمشي على قدم وأول الناس إسلاماً وإيماننا
وأعلم الناس بالقرآن ثم بما سن الرسول لنا شرعاً وتبينانا

¹⁵ - السابق، ص 50.

¹⁶ - نفسه، ص 51.

¹⁷ - نفسه، ص 52.

¹⁸ - محمد الأخضر عبد القادر السائحي: بكر بن حماد شاعر المغرب العربي في ق 3، ص 10

صهر النَّبي ومولاه وناصره أضحت مناقبه نوراً وبرهانا
وكان منه على رغم الحسود له مكان هارون من موسى بن عمران
وكان في الحرب سيفاً صارماً ذكراً ليثاً إذا لقي الأقران أقرانا
ذكرت قاتله والدمع منحدر فقلت: سبحان رب الناس سبحانا
إني لأحسبه ما كان من بشر يخشى المعاد ولكن كان شيطاناً
أشقى مراد إذا عدت قبائلها وأخسر الناس عند الله ميزانا
كعافر الناقة الأولى التي جلبت على ثمود بأرض الحجر خسارنا
قد كان يخبرهم أن سوف يخضبها قبل المنية أزماناً فأزمانا
فلا عفا الله عنه ما تحمله ولا سقى قبر عمران بن حطانا
لقوله في شقي ظل مجترماً ونال ما ناله ظلماً وعدوانا
يا ضربة من تقى ما أراد بها إلا ليبلغ من ذي العرش رضوانا
بل ضربة من غوى أوردته لظى مخلداً قد أتى الرحمن غضبانا
كأنه لم يرد قصداً بضربته إلا ليصلى عذاب الخلد نيراناً¹⁹

3.3. شعره:

صرّح جامع الديوان وشارحه أنّ ما ورد في "الدرّ الوقاد" ليس هو كل ما قاله الشاعر ومعنى هذا أن كثيراً ممّا قاله الشاعر ومردّ ذلك عدم الالتفات إلى الشعر المغربي من قبل القدامى والمحدثين؛ وقد توّصل إلى جمع ما يقارب المائة وعشرة أبيات (110) عثر عليها متفرقة في ثنايا المخطوطات، احتواها تسعة عشر نصاً بين مقطوعة وقصيدة، الغالبية فيها للمقطوعات حيث بلغ عددها أربع عشرة مقطوعة تتراوح بين الستة أبيات والبيتين وربّما البيت الواحد، وخمس قصائد، أطولها قصيدته التي عارض فيها عمران بن حطان شاعر الخوارج هاجياً قاتل علي رضي الله عنه ومادحاً لعلي كرم الله وجهه.

عاش بكر بن حماد في القرن الثالث وقد تمثل هذا العصر أدبياً بوجود نزعتين اثنتين اللهو والمجون والزهد مثلهما في المشرق أبو نواس وأبو العتاهية، وقد نحا الشاعر منحى شعراء الزهد فجاء

¹⁹ - محمد بن رمضان شاوش: الدرّ الوقاد، ص.ص. 62-66.

شعره على طريقة شعر الزهاد من بساطة وليونة ووضوح وسهولة لفظ وعبارة وسطحية معنى، وقد كان في هذا الأسلوب مشابها لشاعر الزهد -دون منازع- أبي العتاهية. غير أن الشاعر لم يقتصر على طرق موضوعات الزهد فقد قال في الوصف والهجاء -حتى أنه هجا الخليفة العباسي على لسان دعبل الخزاعي- والثناء .

نماذج من شعره نقتطفها من الديوان وتاريخ الأدب الجزائري لمحمد الطمار:

- قال في وصف جوّ تاهرت شتاء:

ما أخشن البرد وريعانه و أطرف الشمس بتاهرت
تبدو من الغيم إذا ما بدت كأنها تنتشر من تحت
نحن في بحر بلا لجة تجري بنا الريح على سمت

- قال يهجو الخليفة المعتصم على لسان دعبل الخزاعي (وهو الخليفة الثامن):

مُلوكُ بني العباسِ في الكُتبِ سبعةٌ ولم تأتينا عن ثامنٍ لهمُ كُتبُ
كذلكِ أهلُ الكهفِ في الكهفِ سبعةٌ خيارٌ إذا عدوا وثامنُهُم كلبُ
وإني لأعلي كلبَهُم عنك رِفعةٌ لِأَنَّكَ ذو ذنِبٍ وليسَ لهُ ذنِبُ
- وقال يرثي ابنه عبد الرحمن:

بكيت على الأحبة إذا تولوا ولو أني هلكت بكوا عليا
يا نسلي بقاؤك كان ذخرا وفقدك قد كوى الأكباد كيا
كفى حزنا بأني منك خلو وأنك ميت وبقيت حيا
ولم أك آيسا فيئست لما رميت التراب فوقك من يديا
فليت الخلق إذا خلقوا بواق وليتك لم تكن يا بكر شيئا
فلا تفرح بدنيا ليس تبقى ولا تأسف عليها يا بنيا
فقد قطع البقاء غروبُ شمس ومطلعها عليا يا أخيا
وليس الهم يجلوه نهار تدور له الفراقد والثريا

- وقال في الزهد:

لقد جمعت نفسي فصدت وأعرضت
فيا أسفي من جنح ليل يقودها
الى مشهد لا بد لي من شهوده
ستأكلها الديدان في باطن الثرى
سحاب المنايا كل يوم يظله
وللنفس حاجات تروح وتغتدي
تجهمت حمسا بعد عشرين حجة
وأيدي المنايا كل يوم وليلة
يصبح أقوام على حين غفلة
وقد مرقت نفسي فطال مروقها
وضوء نهار لا يزال يسوقها
ومن جزع للموت سوف أدوقها
ويذهب عنها طيبها وخلوقها
فقد هطلت حولي ولاح بروقها
ولكن حدثان الزمان يعوقها
ودام غروب الشمس لي وشروقها
إذا فتقت لا يستطيع رتوقها
ويأتيك في حين البيات طروقها





خاتمة



خاتمة:

سعيًا من خلال هذه المحاضرات الإمام بحركة الشعر العربي القديم مشرقًا ومغربًا. فتطرقنا إلى مجموع المحاور المبرمجة وفق مفرداتها المعينة، فوقفنا عند أشهر النصوص الشعرية التي جلت التجارب الإبداعية على اختلاف أشكالها وأغراضها وأزمنتها وأمكنتها. فرصدنا النتائج الآتية:

• استطاع الشاعر العربي الجاهلي أن يمهد الطريق للشعر العربي، فقد سنّ تقليدًا أدبيًا في هيكله القصيدة -ممثلًا في نصّ المعلّقة- صعب على الشعر العربي التخلص منه. كما سنّ الشعراء أغراض الشعر وتفاؤنا من خلالها في التعبير عن المجتمع والذات؛

• جاء شعر الصّعاليك نموذجًا ثانيًا في التعبير فعكست قصيدة الصّعلكة حياة التشرد والسّلب والنهب موضوعًا أدبيًا وفتنًا شعريًا متميزًا بخصوصياته؛

• وابتداءً من عصر النبوة عرف الشعر العربي انعطافًا فكريًا، حيث تغيّر مفهوم الشعر عند العرب المسلمين؛ فقد أصبح أداة للدفاع عن قضية الدين الجديد -الإسلام- وقد انعكس هذا التوجه على البناء الشكلي والموضوعي للقصيدة العربية المتأثرة بالقرآن الكريم؛

• وقد كان من جملة آثار الإسلام استحداث شعر الفتوحات، بموجب هجرة الشعراء لأوطانهم والتحاقهم بمواكب الفتوح الإسلامية؛

• نصيف إليه استحداث نموذج رثائي خاصّ تمثل في مرثي الرسول صلى الله عليه وسلّم؛

• وصولًا إلى الشعر الأموي ميّزنا:

- تطوّر شعر الغزل من الجاهلية إلى الإسلام بظهور بيتين: بيئة البادية ومثلها الشعراء العذريون من خلال الغزل العفيف العذري؛ وبيئة الحضر ومثلها شعر المدن - مع عمر بن أبي ربيعة من خلال شعر الغزل الحسيّ/ الماجن. وفي البيئتين فقد استقل الغزل بقصائد خاصة به.

- ظهور نصوص شعر النقائض؛ والنقيضة نصّ/ غرض شعري ولدتها طبيعة الحياة في عهد الأمويين. واستغلّت سياسيًا بإثارة العصبية القبلية.

• أمّا في الشعر العباسي، فقد وقفنا -على كثرة مظاهره وقضاياه موضوعًا وفتنًا- عند شعر الزهد والفلسفة والحكمة؛

• وعرجنا على شعر التصوّف عند ابن الفارض باعتباره تجربة لافتة للنظر في حركة الشعر العربي.

• وفي تناولنا للشعر العربي في المغرب وقفنا:

- عند الموشحات من حيث هي تعبير أبدعته الثقافة الأندلسية متأثرة بثقافة الأرض التي استوطنت الشعر العربي، فكانت لها تلك الخصوصية مثلها مثل الزجل من حيث نشأتها وموضوعاتها وأشكالهما التعبيرية.

• وكانت لنا وقفة مع الشعر الأندلسي بصفة عامة، اقتصرنا فيها على ثلاث مراحل منه رصدنا فيها حركيته ابتداء من تأثره بالنموذج العربي القديم، وصولاً إلى ابن زيدون؛

• وقد كانت وقفنا الأخيرة في مسار الشعر العربي القديم مع الشعر الجزائري العربي القديم، حيث قدّمنا مراحل وركنا على شخصية الشاعر بكر بن حماد التيهرتي الذي يمكن أن نعتبره مؤسساً. حاولنا أن نقدّم نظرة وافية على إبداعات متنوعة وممتدة في الزمن صعب علينا حصرها لكثرتها وتشعبها، فقد تجاوزت عشرة قرون من العطاء الأدبي، وهو ما لا يمكن لهذه المحاضرات أن تفيه حقّه من التقديم.



قائمة المصادر

والمراجع

قائمة المصادر والمراجع:

﴿ القرآن الكريم.﴾

1. ابن الرشيقي القيرواني: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ج2، دار الطلائع، القاهرة، ط1، 2006
2. ابن زيدون: الديوان، شرحه وضبط نصوصه وقدم له عمر فاروق الطباع، دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع، د.ت.
3. ابن سلام الجمحي : طبقات فحول الشعراء.
4. ابن سناء الملك: الطراز في عمل الموشحات.
5. ابن قتيبة: الشعر والشعراء، مطبعة ليدن، 1903
6. ابن قزمان: إصابة الأغراض في ذكر الأعراض (ديوان ابن قزمان القرطبي) تح وتصدير: فيديريكو كورينتي، تقديم: محمود علي مكي، المجلس الأعلى للثقافة، المكتبة العربية، القاهرة، 1995.
7. ابن منظور: لسان العرب، دار الحديث، القاهرة، 2003
8. أبو العتاهية: الديوان، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1986
9. أبو العلاء المعري: ديوان سقط الزند، دار بيروت للطباعة والنشر، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، 1957.
10. أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني
11. أبو عبيدة معمر بن المثنى: كتاب النقائض، نقائض جرير والفرزدق، الجزء الأول، وضع حواشيه خليل عمران المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1988
12. أبو علي أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي: شرح ديوان الحماسة لأبي تمام، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2003
13. أبو علي الحسن بن الرشيقي: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده: الجزء الثاني، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الطلائع، القاهرة، ط1، 2006

14. أبو محمد عبد الله بن محمد العبدلكاني الزوزني: حماسة الظرفاء من أشعار المحدثين المحدثين والقدماء، الجزء الأول، تح: محمد جبار المعبيد، منشورات وزارة الإعلام، العراق، 1973، نسخة الكترونية.
15. أبو محمد عبد الله بن محمد العبدلكاني الزوزني، شرح المعلقات السبع، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الطلائع، مصر، 2005.
16. أبو يزيد القرسي: جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام، تح: محمد البجاوي، نهضة مصر
17. إحسان بن صادق اللواتي، فاطمة كريمي تركي: "فن النقائض نظرة في المفهوم والممارسة" في مجلة سرّ من رأى جامعة سامراء، مج16، ع62، السنة الخامسة عشر، آذار 2020
18. إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي - عصر الطوائف والمرابطين - دار الثقافة بيروت، ط7، 1985.
19. إحسان عباس: تاريخ الادب الأندلسي، عصر سيادة قرطبة - دار الثقافة، بيروت، ط2، 1969.
20. أحمد الشايب: تاريخ النقائض في الشعر العربي، مكتبة النهضة المصرية، مصر، ط2، 1954
21. أحمد بن الأمين الشنقيطي : شرح المعلقات العشر وأخبار شعرائها، اعتنى به عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، لبنان، ط4، 2010.
22. أحمد بن فارس: معجم مقاييس اللغة، اعتنى به وصححه محمد عوض مرعب وفاطمة محمد أصلان، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 2008
23. أحمد صالح محمد النهمي: الخصائص الأسلوبية في شعر الحماسة بين أبي تمام والبحتري - شعر الحرب والفخر أنموذجا - أطروحة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في البلاغة والنقد، جامعة أم القرى، 1434هـ/2013م
24. أحمد مختار عمر: معجم اللغة العربية المعاصرة، المجلد 3، عالم الكتب، القاهرة، ط41، 2008.

25. أحمد هيكل: الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط غرناطة، دار المعارف، مصر، 1985.
26. الأصفهاني، الأغاني، الجزء الثاني، تقديم محمد حسنين الأعرجي، موفم للنشر، 1992.
27. أنيس المقدسي: أمراء الشعر العربي في العصر العباسي، دار العلم للملايين، بيروت، ط11، 1977.
28. أنيس المقدسي: أمراء الشعر في العصر العباسي، دار العلم للملايين، ط7، بيروت لبنان، 1989.
29. البحتري: الحماسة، تح: محمد إبراهيم حور، أحمد محمد عبيد، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، المجمع الثقافي، ط1، 2007.
30. بدوي طبانة: معلقات العرب، دراسة نقدية تاريخية في عيون الشعر الجاهلي، مكتبة الأنجلومصرية، ط1، 1958.
31. توفيق بن عامر: دراسات في الزهد والتصوف، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس، 1981.
32. جميل بن معمر: الديوان، تقديم بطرس البستاني، دار صادر بيروت، د.ت.
33. جورج غريب: أبو العتاهية في زهدياته، دار الثقافة، بيروت، ط1، 1985.
34. جورج زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية، الجزء الأول، تقديم إبراهيم صحراوي، موفم للنشر، الجزائر، 1993.
35. حرشايي جمال: الخصائص الأسلوبية في شعر الصّعاليك، أطروحة لنيل شهادة دكتوراه في الأدب العربي، جامعة وهران، كلية الآداب والفنون، قسم اللغة العربية وآدابها، 2015-2016.
36. حكمت علي الأوسي: فصول في الأدب الأندلسي في القرنين الثاني والثالث للهجرة، مطبعة سلمان الأعظمي، بغداد، د.ت.

37. ديوان ابن الأثير، تعليق الأستاذ عبد السلام الهراس، تقديم عبد الكبير العلوي المدغري، طبع بأمر من الملك محمد السادس-المملكة المغربية- وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1999
38. ديوان ابن زيدون ورسائله، تحقيق وشرح علي عبد العظيم، نهضة مصر، للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، د،ت
39. ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي، تح: محمد عبده عزّام، الجزء الأول، دار المعارف، مصر، ط5.
40. ديوان الشنفرى: جمعه وحققه إيميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، بيروت، ط2، 1996
41. ديوان تأبط شراً وأخباره، جمع وتحقيق وشرح علي ذو الفقار شاكراً، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1999
42. ديوان زهير بن أبي سلمى: تقديم كرم البستاني، دار بيروت للطباعة والنشر، 1979.
43. ديوان عمر بن أبي ربيعة: قدّم له ووضح هوامشه وفهارسه فايز محمد، دار الكتاب العربي، بيروت، ط2، 1996
44. زكريا عبد المجيد النوتي: الأدب الأموي تاريخه وقضاياه، مطبعة الحسين الإسلامية، مصر، ط1، 1992
45. زكي مبارك: التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق-نسخة صادرة عن مؤسسة هنداوي.
46. الزوزني: شرح المعلقات السبع، حققه وعلّق عليه محمد محي الدين عبد الحميد، دار الطلائع، القاهرة، 2005.
47. سامي مكي العاني: الإسلام والشعر، سلسلة عالم الفكر، رقم66، منشورات المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت 1996
48. سيد حنفي حسنين:الشعر الجاهلي :مراحلها واتجاهاته الفنية"دراسة نصية"، الهيئة المصرية للتأليف والنشر، 1971.

49. شرح ديوان حسان بن ثابت، ضبطه عبد الرحمان البرقوقي، المطبعة الرحمانية، مصر، 1929.
50. شريف راغب علاونة: عمرو بن بركة الهمداني من مخزومي الجاهلية والإسلام سيرت وشعره، دار المناهج للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، 2005
51. شعبان أحمد غالي: كتب الحماسة وقيمها الأدبية والنقدية في التراث العربي: دراسة موضوعية وفنيّة، أطروحة مقدّمة لنيل شهادة الإجازة الدقيقة الدكتوراه في الأدب العربي، جامعة الفاتح، ليبيا، 2008-2009
52. شكري فيصل: تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام من امرئ القيس إلى ابن أبي ربيعة، مطبعة جامعة دمشق، 1959
53. شوقي ضيف : الفن ومذاهبه في الشعر العربي، دار المعارف، مصر، ط4، 1943.
54. شوقي ضيف: التطور والتجديد في الشعر الأموي، دار المعارف، مصر، ط8
55. شوقي ضيف: الرثاء، دار المعارف، مصر، ط4، 1955
56. شوقي ضيف: الشعر الجاهلي، دار المعارف، مصر، ط24
57. شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، العصر الإسلامي، دار المعارف، مصر، ط07، د.ت.
58. شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الأول: دار المعارف، مصر، ط8.
59. صحيح البخاري
60. صفي الدين الحلي: العاقل الحالي والمرخص الغالي، تح: حسين نصار، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ط2، 2003.
61. صلاح الدين الهادي: اتجاهات الشعر في العصر الأموي، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1، 1956
62. عباس الجراري: الأدب المغربي من خلاله ظواهره وقضاياها، نشر وتوزيع مكتبة الرباط، ط2.

63. عبد الحليم حفني: شعر الصّعاليك منهجه وخصائصه، الهيئة المصرية للكتاب، 1987
64. عبد الرحمن البرقوقي: شرح ديوان حسان بن ثابت الأنصاري، المطبعة الرحمانية، مصر، 1929م (نسخة الكترونية)
65. عبد العظيم علي قناوي: الوصف في الشعر العربي
66. عبد الغفار مكاوي: شعر وفكر: دراسات في الأدب والفلسفة، الناشر مؤسسة هنداوي المشهورة برقم 10585970، بتاريخ: 2017/01/26. نشر الكتاب أول مرة عام 1995. صدرت النسخة عن المؤسسة في 2022.
67. عبد القادر القط: في الشعر الإسلامي والأموي، دار النهضة العربية، بيروت، د.ط، 1987
68. عبد القادر شريط: فن رثاء المدن في الشعر المغربي القديم من الفتح العربي الإسلامي إلى العهد العثماني، أطروحة مقدّمة لنيل شهادة الدكتوراه، جامعة الحاج لخضر، باتنة، الجزائر، 2013-2014.
69. عبد الله العلايلي: المعري، ذلك المجهول: رحلة في فكره وعالمه النفسي، دار الجديد، بيروت، ط3. 1995م.
70. عبد الله بن رواحة : ديوان عبد الله بن رواحة ودراسة في سيرته وشعره، تح:وليد قصاب دار العلوم للطباعة والنشر، ط1، 1981.
71. عبد النور جبور: المعجم الأدبي، دار العلم للملايين، بيروت، ط2، 1984
72. عز الدين إسماعيل: المصادر الأدبية واللغوية في التراث العربي، الناشر مكتبة غريب، د.ت
73. علي الجندي: في الشعر الجاهلي
74. علي الجندي: في تاريخ الأدب الجاهلي: دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1998م.
75. علي سليمان: الشعر الجاهلي وأثره في تغيير الواقع، قراءة في اتجاهات الشعر المعارض، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 2000

76. علي نجيب عطوي: الشعر في العصر العباسي: مظاهره وأهم اتجاهاته مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، بيروت، 1993م
77. عمر فرّوخ: تاريخ الأدب العربي-الجزء الرابع الأدب في المغرب والأندلس منذ الفتح الإسلامي إلى آخر عصر ملوك الطوائف. (أواخر القرن الخامس الهجري- الحادي عشر للميلاد)، دار العلم للملايين، بيروت، ط2، 1984.
78. غازي طليعات: عرفات الأشقر: الأدب الجاهلي: قضاياها، أغراضه، أعلامه، فنونه، دار الفكر، دمشق، ط5، 2011
79. الغزل عند العرب، مطبعة مصر-شركة مساهمة مصرية، القاهرة، ط1
80. فاروق حسان: ثقافة المتنبي: العلم والإيمان للنشر والتوزيع، مصر، ط1، 2008.
81. فوزي خضر: عناصر الإبداع الفني في شعر ابن زيدون، طبع مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري بالكويت، 2004م.
82. القاضي السعيد أبي القاسم هبة الله بن جعفر بن سناء الملك: دار الطراز في عمل الموشحات، تح: جودت الركابي، دمشق، 1949. نسخة عن منتدى سور الأزيكية: www.BOOKS4ALL.NET
83. قدامة بن جعفر: نقد الشعر، تحقيق وتعليق محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتب العلمية. بيروت، د.ت
84. كعب بن مالك الأنصاري: الديوان، تح: مجيد طراد، دار صادر بيروت، ط1، 1997
85. الكفراوي: الشعر العربي بين الجحود والتطور
86. محمد ابراهيم الفيومي، تاريخ الفكر الديني الجاهلي، دار الجيل، بيروت، ط1، 1999
87. محمد الأخضر عبد القادر السائحي: بكر بن حماد شاعر المغرب العربي في ق 3.
88. محمد الطمّار: تاريخ الأدب الجزائري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر.
89. محمد بن رمضان شاوش: الدّر الوقاد من شعر بكر بن حماد التاهرتي: تقاديم وجمع وشرح، مطبعة العلوية، مستغانم، ط1، 1966.
90. محمد بن عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري، شروح الحديث: تحفة الأحوذى.

91. محمد شمس عُقاب: المراثي النبوية في أشعار الصحابة، توثيق ودراسة، مكتبة الغمام البخاري للنشر والتوزيع، مصر، ط1، 2003
92. محمد عباسة: الموشحات والأزجال الأندلسية وأثرها في شعر التروبادور، دار أم الكتاب للنشر والتوزيع، مستغانم- الجزائر، ط1، 2012.
93. محمد عبد المنعم خفاجي: الآداب العربية في العصر العباسي الأول، دار الجيل، بيروت، ط1، 1992.
94. محمد عبد المنعم خفاجي: الحياة الأدبية -عصر بني أمية- دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط2، 1973
95. محمد مرتاض: الأدب المغربي القديم -نشأته وتطوره، دار هومة، الجزائر، 2016.
96. محمود شاكر: التاريخ الإسلامي، الخلفاء الراشدون، ج3، المكتب الإسلامي، ط8، 2000.
97. المرزوقي : شرح ديوان الحماسة، 3/1.
98. مصطفى الشعكة: مناهج التأليف عند العرب- قسم الأدب-، دار العلم للملايين، بيروت، ط6، 1991
99. معجم تراجم الشعراء الكبير تأليف وإعداد يحيى مراد، دار الحديث القاهرة، 2006.
100. منجد مصطفى بهجت: الأدب الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة+92هـ-897م، مديرية دار الكتب للطباعة والنشر، الموصل، .
101. مي يوسف خليف: القصيدة الجاهلية في المفضليات، دراسة موضوعية وفنية، مكتبة غريب، د.ت
102. نجاة المريني:"الحماسة البياسية لأبي الحجاج البياسي" في مجلة عالم الكتب عن دار النشر والتأليف بالرياض، مج:14، ع:2، رمضان - شوال 1414هـ/مارس-أفريل 1993
103. النعمان عبد المتعال القاضي: شعر الفتوح الإسلامية في صدر الإسلام، مكتبة الثقافة الإسلامية، مصر، ط1، 2005

104. هبة الله بن علي بن حمزة العلوي الحسني : الحماسة الشجرية، لابن الشجري القسم الأول، تح: عبد المعين الملوحي وأسماء الحمصي، منشورات وزارة الثقافة، العراق، 1970، نسخة الكترونية.
105. واضح الصمد: أدب صدر الإسلام، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1994
106. ولد الجراوي: الحماسة المغربية، مختصر كتاب صفوة الأدب ونخبة ديوان العرب، الجزء الأول، تح: محمد رضوان الداية، دار الفكر لعربي المعاصر، لبنان/ دار الفكر، سوريا، ط1، 1991.
107. وليد قصاب: ديوان عبد الله بن رواحة دراسة في سيرته وشعره، دار الطباعة والنشر، ط1، 1981
108. يوسف بكار: في الشعر العربي القديم: دراسات ونقود وتراجم، دار البيروني للنشر والتوزيع، نسخة إلكترونية
109. يوسف حسين بكار: اتجاهات الغزل في القرن الثاني الهجري، دار المعارف، مصر، د.ت
110. يوسف خليف: الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، دار المعارف، د.ت.